

دلالة الألفاظ

تأليف

الدكتور إبراهيم أنيس

الطبعة الخامسة

1984

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية



تصديـر

حين فكرت في إعادة طبع هذا الكتاب لم أجد
ما أصدر به هذه الطبعة خيراً من التزويـه بما لقيه
الكتاب من تقدير في الأوساط العلمية ، وقد حاز
جائزه الدولة التشجيعية للأدب عام ١٩٥٨ .

المؤلف

مقدمة

عرض أهل الفلسفة والمنطق في بحوثهم إلى دراسة الألفاظ ودلالاتها ،
وصادفوا في شأنها بعض العنت والمشقة حين حاولوا أن يصبوا تأملاتهم وخواتمهم
في ألفاظ محددة للدلالة ، فصالوا وجالوا بين الجزئي والكلّي ، والمفهوم والمصدق ،
وعقدوا الفصول الطوال في التعريف وحدوده ، ومحاولة جعله جامعا مانعا كما
يمبرون . ثم لم تسعفهم داء اللغات ، وقصرت دلالة بعضها عن تحقيق ما يجوز
في أذهان هؤلاء الفلاسفة وكأني بهم وقد تمنوا لو اصطنعوا الرموز في بحوثهم
بدلا من تلك الألفاظ المألوفة الشائعة ليتجنبوا ما يشور بينهم في كثير من الأحيان
من جدل ونقاش حول حدود كلمة من الكلمات ، أو دلالة لفظ من الألفاظ ،
وغير ذلك مما حمل الداعين إلى المؤتمر العالمي للتأويليين في كيرديج سنة ١٩٥١ على أن
يضعوا في روجرام المؤتمر العنصر التالي للبحث والدراسة :

« موقف اللغة من الفلسفة والمنطق ، رجاء الاهتمام إلى نظام منطقي مستقل
في تكونه عن النظام المنطوق واللغات ، ورجاء الوصول إلى الأسس التي عليها
يمكن أن نحدد وأن تعرف أجزاء الكلام » .

وقد تجنب بعض الباحثين الاعتماد على ألفاظ اللغة في علاجهم للنظام المنطوق
في اللغة ، واصطنعوا من أجل هذا رموزاً وإشارات أشبه برموز الرياضيين
ومصطلحاتهم ، حتى لا تكون آراؤهم متأثرة بما في دلالة الألفاظ من قصور ،
وما يكتنفها في كثير من الأحيان من ظلال المعاني التي تختلف باختلاف الناس^(١) .

(1) Carnap, Rudolf :

The Logical Syntax of Language

وكان أهل الرياضة من العرب القدماء يتخذون الألفاظ للتعبير عن معادلاتهم الرياضية ، كالخوارزمي أحد علماء العرب في القرن الثالث الهجري - فقد عثر له على مخطوط بعنوان « الخبر والمقابلة » ونشر المخطوط وعاق عليه منذ سنوات عالمان جليلان من علماء الرياضة في مصر (١) .

ويتضح من هذا الكتاب أن الخوارزمي كان يستعمل في تصنيف معادلاته الجبرية بالألفاظ ، فكان يطلق على الرمز الجبري « س » كلمة « الشيء » ، ويسمى « س^٢ » بكلمة « المال » ، ويسمى العدد الخالي من مجهول جبري بالعدد المفرد أو المطلق .

ثم عجز الرياضيون ألفاظ اللغات ، وقنعوا برموزهم الشهيرة تخاصماً من أي احتفال لسوء الفهم أو اضطرابه تبعاً لاختلاف الدارسين في حدود الدلالة للألفاظ ، بل اختلاف الألفاظ باختلاف اللغات في العالم . ولذا أصبحت رموزهم ومصطلحاتهم بثثة اللغة المالوية ، فلا يعيها الفموض أو الإسهام ، وليست بينهم موضع الحدل أو النقاش .

وكدمات يمرض أصحاب علم النفس إلى دراسة الألفاظ ودلالاتها ، فيذهبون فيها مذاهب ، ويؤلفون حولها آراء ونظريات ، تتصل بالشعور وشبه الشعور واللاشعور ، وبالذاكرة والتصور والتخيل وتداعي المعاني ، وغير ذلك من بحوث مستفيضة في كتبهم ورسائلهم .

فالألفاظ لاتصالها الوثيق بالتميز كانت ولا زالت مجالاً هاماً للدراسة الفلسفية ، وهي أصلتها بالعقل واله طعة يتناولها أصحاب علم النفس ، ولكنها قبل هذا وذلك عفا عن عناصر اللغة ، ولذا يمرض لها اللغويون أيضاً في بحوثهم ، ويتناولونها من زاويتهم الخاصة ، وإن كانت دراسات كل هؤلاء من

(١) الدكتوران علي مشرفة محمد مري

أهل العلم تتشابه حدودها ، وتتقارب في بعض نواحيها حين تعرض للألفاظ ودلالة الألفاظ .

ونحن في كتابنا هذا نسلك مسلك اللغويين في بحث الدلالات ، ونعالجها كما يعالج اللغوي الحديث ذلك الفرع من الدراسات اللغوية المسمى لدى الأوربيين Semantics . وتلك دراسة حديثاً المولد نسبياً بدأها « بريل Bréal » في أواخر القرن التاسع عشر في رسالته التي سماها Essai de Sémantique وفيها عني ببحث الدلالة في بعض ألفاظ اللغات القديمة التي تنتمي إلى الفصيلة الهندية - الأوربية ، كالأيونانية واللاتينية والساكسونية ، وخلص من بحثه إلى نتائج هامة ، وقواعد عامة في حدود الدلالة وتطورها .

غير أن دراسة اللغويين للدلالة في بادئ الأمر قد اقتصرت على الناحية التاريخية الاشتقاقية للألفاظ ، كأن تقارن الكلمة بنظائرهما في الصورة والمعنى حتى يتسنى إرجاعها إلى أصل معين تفرع إلى عدة فروع في لغة واحدة أو أكثر من لغة ، ولم تنجح عناية الدارسين حينئذ إلى الجانب الاجتماعي وأثره في تطور الدلالات والصور ، ولا إلى المظاهر الإنسانية الأخرى ذات الأثر البين في تغيرها وانحرافها ، أي أنهم عنوا بالأمور الداخلية في الألفاظ ولم يفتنوا إلى العوامل الخارجة عنها .

ثم تطورت دراسة الـ Semantics في السنين الأخيرة ، وبدأ الدارسون يتجهون إلى العوامل الخارجية ذات الأثر في الألفاظ من إنسانية واجتماعية ، وأخذوا يتساءلون عن الأسباب التي جعلت بعض الكلمات تنكش في دلالتها ، وأخرى تنحدر بعد سمرها . وأرجعوا كل هذا إلى عوامل ودوافع صرّت في تاريخ الأمم ، وأدت إلى مثل ذلك التطور والتغير .

ومن الدارسين المحدثين فريق عنوا كل العناية بالنفس الإنسانية وبالعاطفة ، ورأوا أن العاطفة قد تظل بعض الألفاظ بظلال خاصة حين يستعملها الفرد ، وأن

هذه الظلال تختلف باختلاف الناس وتجاربهم في الحياة . ثم تبين لهم أن الاستعمال الفردي الشخصي قد يصادف هوى في نفوس جماعة من المستمعين ، فيقلدونه ويذيع بينهم ، ويترتب على ذبوعه وشيوعه نوع من التطور في الدلالة .

ولعل أحدث المحاولات في دراسة الدلالة أن يعمد الدارس إلى مجموعة من الألفاظ التي تنتمي إلى مجال واحد ، ثم يتوفر على دراستها ليثبت منها تلك التي نمت دلالاتها ، وتلك التي انكمشت فيها تلك الدلالة أو اختفت بمرور الأيام . وخير مثل لهذا تلك المحاولة التي قام بها أحد العلماء الألمان في بحث ألفاظ الذكاء التي وردت في نصوص القرون الوسطى للغة الألمانية . وكتلك المحاولة التي عني فيها أحد الباحثين بدراسة الكلمات المتصلة بالأخلاق والفضيلة في شعر « تشرسر » . وفي رأي هؤلاء الدارسين أن مثل تلك المحاولات أجدي وأنفع من دراسة الكلمات منفردة منمزلة عن مجالها وعن عصرها⁽¹⁾ .

ولما كان العام ١٩٢٣ ظهر كتاب The Meaning of Meaning لمؤلفيه Richard و Ogden ، وفيه يعالج المؤلفان مشا كل الدلالة من نواحيها المتعددة المعقدة ، ويبحثانها في ضوء النظم الاجتماعية وفي ضوء علم النفس من شعور وعاطفة ، مما جعل لكتابيهما قيمة علمية جارية الشأن بين الدارسين لدلالة الألفاظ . ولم يسكد بنهـى النصف الأول من القرن العشرين حتى شهدنا قوما من غير اللغويين يقتحمون مجال البحث الدلالي ، وفيه يدلون بدلوهم متأثرين في ذلك بما احترقوه من مهن ، أو تخصصوا فيه من دراسة .

فعلم الطبيعة « برديجان » Bridgeman⁽²⁾ يحددنا أنه وأمثاله من علماء

(1) The Gift of Tongues. p. 127.

(2) The intelligent individual and Society.

الطبيعة يقفون أمام كلمات مثل « الزمان ، المكان ، الصوت » موقفاً مبايناً لا يشيع بين جمهور الناس، ويفهمونها فهماً خاصاً ، ومن رأى هذا الباحث أن الدلالة يجب أن تخضع للتجربة كما تخضع لها الظواهر الطبيعية في المعامل ! فإذا لم تخضع إحدى الدلالات للتجربة وجب اعتبار كلياتها معاً لا معنى له ! ! فكلمات مثل الديكتاتورية ، الديمقراطية ، الحرية ، إذا لم يبرهن على وجودها عن طريق التجربة عدت عبثاً وهراء ووجب إهالها !!

كذلك اصطفت دراسة « ثورمان أرنولد » ⁽¹⁾ Thurman Arnold⁽¹⁾ بعمه كرجل من رجال القانون حيث يحدثنا عن سيطرة الألفاظ علينا وخضوعنا لها خضوعاً يشبه الرق والعبودية ، ثم أبأسنا من علاج هذه الحال ، ولم يجد لنا مخرجاً منها إلا بدواء مؤقت يمكن أن نستمد منه تحديد الدلالات .

أما أولئك الصحفيون من هواة البحث اللغوي⁽²⁾ فقد نزلوا بالبحث الدلالي إلى مستوى جمهور الناس ، وأوحوا إليهم بأمال كبار عن طريق البحث في الدلالة؛ لأنه في رأيهم سيؤدي إلى تجنب ما يصيب الإنسانية من ويلات ، وإلى علاج مقاعب البشر من منازعات أو خصومات أو حروب ! ! وهم في علاجهم متأثرون بجورهم الصحفي وما فيه من إسراف في عرض المسائل . ولذا كانت كتابتهم أشبه بمحاولات الهواة منها ببحوث العلماء المتخصصين . وتبدو مقالة هؤلاء الهواة من الصحفيين حين يؤكدون لنا في حديث مسهب أن سر التعاسة بين بني الإنسان في هذه الدنيا يعزى أولاً وقبل كل شيء إلى تباين الناس في دلالة الألفاظ. واختلاف فهمهم لها ، وافتقاد الأسس والمقاييس المشتركة في أذهانهم نحو تلك الدلالة ، مما أدى إلى الجدل والنقاش حيناً ، والنزاع والشجار حيناً آخر ، في تعاملهم بعضهم مع بعض ، ومما ترتب عليه أن المرء في بيئة معينة لا يكاد

(1) The folklore of Capitalism

(2) Science and Sanity, by Korzybski; & Tyranny of Words, by Stuart Ghase

يفهم أخاه من نفس البيئة وهم في إسرائفهم ومفالاتهم يتصورون أن الناس في معاملاتهم يقفون عادة بنوع من الفهم التقريبي ، ويقترضون لسوء الفهم في كثير من الأحيان . ويرون أن لاسبيل إلى خير الإنسانية ، إلا بتحديد مدلولات الألفاظ تحديداً دقيقاً بحيث لا تتحمل خلافاً أو نزاعاً ، وبحيث تتضح في ذهن الإنسان وضوحاً لا يدع مجالاً لأي شك أو سوء فهم .

وفي الحق أن تلك الألفاظ التي ابتدعها الإنسان وأراد بها أن تكون مصدر خير ونعمة ، كانت في كل عصور التاريخ ومازالت مصدر وبلايا وبقعة أيضاً على البشرية . فهي في نشأتها الأولى ولدى الإنسان الأول لم تكن تهدف إلى فهم أو إفهام ، بل كانت في رأى جمهور كبير من المحدثين مجرد أصوات أو مجموعات صوتية يصدرها حماز النطق للهم واللعب والغناء ، ثم اكتسبت الدلالة ولا شك تدريجاً في مسورة مؤكدة كيف تم هذا ، وكل الذي ندرجه أن الإنسان في عصوره التاريخية قد اتخذ من تلك الألفاظ وسيلة للتفاهم ، واتصال الناس بعضهم ببعض في حياة اجتماعية مرت بأطوار وأطوار حتى وصلت على نحو ما ترى الآن . والألفاظ منذ أقدم عصورها التاريخية قد استعملت لتتضمن بها فكانت بمثابة العملة ، منها الفضى ومنها الذهبى ، ومنها الصحيح ومنها الرائب ، والمتعاملون بها منهم الفقير ومنهم الغنى ، ومنهم الشحيح بها والبذر لها . ومع هذا ورغم هذا فقد بسرت تلك الألفاظ سبل الاتصال بين أفراد المجتمع البشرى ، وارتقت بالذهن الإنسانى فوق مستوى الحيوان أو العجاوات .

ولكن الإنسان في تعامله بالألفاظ لم يكن محلياً دائماً ، ولم يترجم حدودها دائماً ، فإذا شاء التضاميل والخداع والفتاق لجأ إلى تلك الألفاظ فاستمد منها أدواته ، وإذا جنح إلى الشر أو المكر أو الفتنة وجد في تلك الألفاظ ما يستعين به ، فلم ينطبق ما يدور في خلدته على ما ينطق به ، مما حمل بعض المنشائين من اللغويين مثل « تالبراند » على القول « إنما يتكلم الإنسان ليحفي ما يدور في ذهنه وما

نحتاج به حواطره ومثل « كريكنجارد » حين يقول :

[إن اللغة قد تستعمل في كثير من المناسبات ليستر المتكلم بها خلوه من الأفكار والمعلومات^(١)] !!

ويكتسب الإنسان ألفاظ اللغة ودلالاتها في تجارب كثيرة من تجارب الحياة ، معها تشكل الدلالات وتتلون وتظلل بظلال متباينة ، ثم تستقر على حال عندها يتبنى المرء لكل لفظ دلالة معينة هي جزء من عقله ومن نفسه . فتصبح تلك الألفاظ الصوتية كالسكان الحي رباه أهله وتعبوا في تربيته حتى استقام على عوده ، وسار على فخارهم وإعجابهم . وكذلك الناس مع الألفاظ لا يكادون يرون فيها مجرد رموز صوتية تعبر عن الأشياء والكائنات ، بل هي في رأيهم نفس الأشياء والكائنات .

ويؤثر كل مناسلاسل خاصة من تلك الأصوات اللغوية ؛ كما يؤثر كل منا نواحي معينة من دلالات الألفاظ ، ونستملك بهذه وتلك ونذود عنها في كل نقاش أو جدل . فإذا كنا بصدد وضع ألفاظ الحضارة الحديثة فقد تقباين آراؤنا حول أصوات اللفظ أو حول مدلوله ، وإذا كنا في مجال النقد الأدبي فقد نتمدد المذاهب ووجوه الرأي . ومرجع كل هذا إلى التجارب الشخصية مع الألفاظ ، واختلافها في حياة كل منا .

ومع أن رقى الحياة العقلية في كثير من الأمم قد حددت من الدلالات وخلصها من كثير من الظلال التي كادت تطمس معالمها ، يبدو أنه لا سبيل إلى الخلاص من متاعب الدلالات إلا باصطناع وسيلة أخرى غير الكلام للتفاهم والاتصال الذهني بين أفراد المجتمع . وذلك كأن يهرب المجتمع مثلا نوطا من التفاهم الروحي الذي يكفى فيه مجرد النظر بين اثنين ليذكر كل منهما ما بدور

(١) Jespersen : Mankind, Nation & Individual p. ١٢٤.

نعم الآخر . هلو أن كلا منا وهب من الاستعداد الفطري أو العرزي ما يكفل
دراك ما يحظر بدهن الآخر بمجرد الاتجاه إليه بذهنه وعقله سواء كان حاضراً
أو غائباً ، لأمكن حينئذ أن يتم التفاهم بين الناس دون وساطة من تلك الرموز
الصوتية ، ولتخلصت الإنسانية من دلالات ألفاظ كالنفاق والرياء وانكذب
والتصايل ، وغيرها من تلك التي شوهت حياة الإنسان فوق الأرض ، وجعلت
لحياته ظاهراً وباطناً ، مما أحل البهوض والكراه والنفور محل الود والإخلاص
والحبة بين بني البشر .

أما بعد : فلعل الله أراد بنا خيراً إذ لم يطعمنا على حقيقة ما يدور بالأدهان
والمقول ، وإذا وهبنا تلك القدرة التي ساعدتنا على اصطناع الألفاظ في التمام ،
لحوي عنا في بعض الأحيان حقيقة ما يدور في الذهن وما تضمرة النفس ، وحققنا
شراً أكبر بشر أضر ، مما حمل منه مجتمعات إنسانياً راقياً بسوسه التمارن والتأحي
وبن لم نبالغ فيه الغاية من إعادة الروثام .

إبراهيم أنيس

الفصل الأول

نشأة الكلام

لم يظفر بحث من البحوث اللاهوتية بقدر وفير من التأمل والتفكير متصل الذي ظفرت به نشأة اللغة . ومع هذا فقد كانت النتيجة دائماً سلبية ، ولم يهتد للباحثون بعد كل ما بذلوه من جهد إلى رأى يجمعون عليه أو يطمثنون إليه . ففى كل العصور ، ومنذ الحضارة الإنسانية القديمة ، والعلماء لا ينقطعون عن البحث فى نشأة الكلام وأصله ، ويفترضون فى هذا الفروض ، ويحاولون فى هذا التجارب ، حتى أوائل القرن العشرين حين بدأ العلماء ينصرفون عن هذا النوع من البحث ، ويرون أنه من مسائل ما وراء الطبيعة ، وأن لا جدوى من الاستمرار فيه .

ولم يقتصر البحث فى النشأة اللاهوتية على علماء اللغة فى العصور القديمة ، بل تناولته أيضاً فلاسفة اليونان ، والمتكلمون وأهل الأصول من علماء العرب ، بل حتى بعض الملوك القدماء . فقد روى « هيرودوت » أن أحد الفراعنة المسمى « أيسمتيك » أراد البرهنة على أن اللغة المصرية القديمة هى أصل اللغات فى العالم ، فأمر بوزل طفلين من الناس منذ ولادتهما . وكفل لهما الغذاء والكساء فى صمت مطلق ، بحيث لا يسمعان من الناس كلاماً أو ما يشبه الكلام . ثم انتظر شهوراً حتى سمحما ينطقان بأول كلمة مسموعة تتكون من أصوات كالتى ينطق بها الإنسان ، فلما مده أن مثل هذه الكلمة لا بد أن تكون إحدى كلمات اللغة المصرية القديمة . ولكن حاب ظنه حين تصادف أن كانت تلك الكلمة « أوس » Os ، التى تعنى فى « الفريجية » إحدى السمات القديمة « احبر » .

وهكذا ظهر للملك أن اللغة « الفريجية » أقدم من المصرية .

واستمر هذا النوع من التفكير البدائي في معظم العصور . فقد حاول فردريك الثاني ملك صقلية سنة ١٢٠٠ م القيام بتجربة أسمتيك ، رغبة منه في الوقوف على سر ذلك اللغز الغامض ، ثم تبعه جيمس الرابع ملك اسكتلندا سنة ١٥٠٠ م متخذاً من نفس المحاولة الفاشلة وسيلة تهديه إلى كيف نشأت اللغة ، وكيف نطق الإنسان الأول .

وربما كان أعجب ما تحدثنا به الروايات أن عالماً سويدياً في القرن السابع عشر كان يؤكّد لستميه في صورة جدية أن الرب في جنة عدن كان يتكلم اللغة السويدية ، وأن آدم كان يتكلم اللغة الدنيمركية ، وأن الحية كانت تتكلم اللغة الفرنسية ! !

وظل بعض الباحثين في اللغات حتى العصر الحديث يذهبون بصدد النشأة النغوية إلى آراء تدعو إلى السخرية ، مثل ذلك العالم التركي الذي وقف في مؤتمر لغوي سنة ١٩٣٤ يؤكّد للمستمعين أن اللغة التركية هي الأساس الذي اشتقت منه كل اللغات مستدلاً على هذا بكلمة تركية معناها الشمس هي *gunes* ، لأن الشمس أول ما استرعى نظر الإنسان الأول من بين المخلوقات .

وقد حاول بعض المحدثين من اللغويين أن يستشف شيئاً عن أسرار النشأة النغوية بدراسة أولئك الأطفال الذين عثر عليهم في الغابات وقد ربعتهم الذئاب أو القرود ، غير أن محاولات هؤلاء الباحثين قد باءت بالفشل . وكل الذي أمكن التحقق منه بهذا الصدد هو أن العاقل بمد أن ينقل إلى البيئة الإنسانية ، لا يلبث بعد زمن قليل أن ينطق كما ينطق من حوله ، كما أنه يجده لغة ومفردات في هذا النطق في حين أنه من المستحيل أن يتعلم الذئب أو القرد شيئاً من هذا .

وقد عثر في صحراء حلوان على غلام قبيل إيه رني بين الفران . وقد أكد

لنا بعض المشرفين عليه في المؤسسات الاجتماعية أنه وجد طربيا ، وكان في بادئ الأمر بصوت بأصوات مبهمه تشبه صوت الحيوان ، وكان يأبى إلا أكل الحشائش ، ثم لم يلبث بعد شعور أن نطق بعدة كلمات ، وتمود تناول الطعام المؤلف لنا .

وقد شهدته بعد نحو سنتين من العثور عليه فوجدته يستمتع ببيئته الجديدة وياتقط منها الكلمات بسرعة غريبة .

وقد كان للعلماء من العرب مخامرات في هذا الشأن ، وآراء لا تخلو من الخدس والتخمين ، لخصها السيوطي في المزهرة فبدأت مضطربة ، لا يكاد المرء يفتنى من قراءتها حتى يصبح مبلبل الفكر حائراً مشدوها .

وكان بعض العلماء من القدماء يعتمدون في بحثهم على أدلة تقليدية التمسوها من الكتب المقدسة ، كالتوراة والقرآن ، وفسروها تفسيراً يلائم ما ذهبوا إليه من آراء . ففي الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين نقرأ قصة بابل حين حاول الناس أن يتخذوا لأنفسهم مدينة عظيمة ، ورجا شامخاً بطاول السماء ، فبذل الله السنهم وجعلهم فرقا وشيما ، لا يفهم بعضهم بعضاً ، بعد أن كانوا أهل لغة واحدة ، ولسان واحد ، فانتشروا في الأرض وتعددت لغات البشر .

على أن بعض الباحثين يؤكدون لنا أن « بابل » ليست من ببلغة الألسن ، وإنما معناها « باب إيل » أي « باب الرب » ا

وبعض علماء العرب يلتمسون من الآية الكريمة « وعلم آدم الأسماء كلها » دليلا للبرهنة على أن اللفظة توقيفية .

وقد ظهر الخلاف بين علماء العرب واضحا جليا في منتصف القرن الرابع الهجري وما بعده ، فرأيناهم فرقتين :

أولاً : أهل اللغة الذين اعتمدوا على النصوص من السنين وأضرابهم ، وهؤلاء كانوا ينادون بأن اللغة توقيفية ، وأن لا بد للإنسان في نشأة الفاظها أو كلماتها ، وزعيم هؤلاء ابن فارس في كتابه الصحاح .

ومع أن اللغويين يختلفون في مدلول كلمة « الأسماء » في قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، نرى أصحاب الرأي بأن اللغة توقيفية يستمسون بما يروى عن ابن عباس من أنه كان يفسر الأسماء بأسماء الأشياء من نبات وحيوان وجاد . وهكذا يرون أن الله تعالى علم آدم اللغة المألوفة لنا والفاظها ، واختص الأسماء بالذكر دون الأعمال أو الحروف لأنها في رأيهم أساس اللغات ، ولا بد لكل كلام مفيد من الاسم . في حين أن الجملة المستقلة قد تستغنى عن كل واحد من الفعل والحرف !

فإذا سئلتوا كيف صحح أن يقال « ثم عرضهم على الملائكة » بضمير العاقل ، أجابوا عن هذا بأنه من قبيل التقليل ، وهو سنة من سنن العرب ، وذلك كقوله تعالى « والله خالق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع » .

ثم لا يكتفون بالاستدلال بهذا النص القرآني ، بل يسوفون بعض الأدلة العقلية الجدلية للبرهنة على صحة رأيهم مثل قولهم :

(١) أجمع العلماء على الاحتجاج بلغة العرب ، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن العرب في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج بنا لو اصطاحنا على لغة اليوم ، مما يدل على أن تلك اللغة التي رويت ، والتي ليس لنا أن نغير منها أو نبدل ، هي أصل توقيفي ومن واجبنا أن نلتزم حدودها . فافه سبحانه وتعالى علم آدم ما شاء أن يعلمه من كلمات هذه اللغة مما احتاج إلى

علمه في زمانه ، ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء نبياً نبياً ماشاء الله أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

(ب) ويسوقون في أدلتهم قصة طريفة هي أن رجلاً كالم أبا الأسود الدؤلي ببعض ما أنكره أبو الأسود . فلما سأل أبو الأسود هذا الرجل عن معنى كلامه قال له : هذه لغة لم تبتك يا أبا الأسود !! فقال له أبو الأسود : يا ابن أخي إنه لا خير لك فيما لم يبغني !

ويرون في هذه الرواية رغم ما بها من صداجة التفكير أن أبا الأسود قد بين الرجل بلطف أن الذي تكلم به غثلق مخترع ، ولا يصح لهذا أن يعد من لغة العرب التي لا بد للإنسان في خاق عنصر من عناصرها .

(ج) ثم زامم يستمرون في جدلهم واحتجاجهم قائلين : إنه لم يبلغنا أن قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا أجروا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه ، لئلا يتدل بذلك على أن اصطلاحاً قد كان قبامهم . وقد كان في الصحابة من البلغاء والفعحاء ، وما علمناهم اصطاحوا على اختراع لغة أو أحداث لغة لم تقدمهم . ألا ترى أنه سبحانه يقول « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » ، مما يدل على أن اختلاف اللغات أمر توقيفي من صنع الله ، وأن لا يد للإنسان فيه ! بل لقد ذم الله تعالى أولئك الذين وضعوا أسماء ما أنزل الله بها من سلطان في قوله « إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم » .

من كل هذا ترى أن القائمين بالتوقيف يعتمدون في أكثر أدلتهم على النصوص العقلية ، ويفسرونها على حسب أهوائهم ليستنبطوا منها ما يؤيد آراءهم .

ثانياً : والفريق الثاني من علماء اللغة هم الذين نادوا بأن اللغة اصطلاحية ، وكان معظمهم من المعتزلة الذين استمدوا أدلتهم من المنطق العقلي ، ووسروا (٢٢ - دلالة الألفاظ)

ماورد من نصوص بحيث تلائم اتجاههم ، وتلتجم مع منطقتهم . على أن لا ندرى لهذه الطائفة زعيماً معيناً استتمسك بهذا الرأي جهاراً ، ودافع عنه وقوة وإصراراً ، بل نرى هذا الرأي ينسب لابن جنى ولأستاذة أبي علي الفارسي وغيرها ممن جاءوا بعد ذلك . فإذا رجعنا إلى قول ابن جنى و الخصائص نراه حاراً متردداً لا يكاد يستقر على أمر . فبعد أن يشير إلى الرأي القائل بأن اللغة اصطلاحية ، ويستدل عليه ، نراه في آخر الباب بقول مانعه « إنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والذقة والإرهاب والرفقة ما يملك على جانب الفكر فتوى في نفسى اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه وأمرها وحى » . ثم يقول « كذلك لا تفكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا ، وإن بعد مداه عنا ، من كان العطف منا أذهانا ، وأسرع خواطر ، وأجرأ جناناً فأنف بين تين الخلتين حسيراً ، وأكأثرهما فأنكفى مكثوراً » .

فنحن نرى من هذا حيرة ابن جنى ، وأخذة بالرأيين مما ، أو عدم استطاعته ترجيح أحدهما على الآخر . وهو بعدنا في آخر كلامه بأنه إذا بدا له من أدلة أخرى ، أو تكشفت له أمور أخرى في الاستدلال فسيرجع لنا أحد الرأيين وينتصر له .

فإذا استمرضنا حجج القائلين بالاصطلاح وجدناها تكاد تنحصر في الأمور الآتية :

(١) أولها أن الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها صلة عرفية لا تخضع لمنطق أو عقل ، فإسمى (بالشجرة) مثلاً كان يمكن أن يسمى بأى لفظ آخر . ولا يسمع لهذا أن ينسب مثلاً هذا العمل الناقص لله سبحانه وتعالى .

فلا ندرى لم سمي الحجر حجراً أو النهر نهراً في لغتنا العربية ، مهما أجهد

الاشتقاقيون أنفسهم في مثل هذا ، وتلمسوا له من التأويلات المتكلمة ،
والتخريجات المتعسفة . هذا إلى أن المعاني المشتركة في كل العقول البشرية قد
اتخذت لها اللغات ألفاظاً متباينة مختلفة لا يكاد يمت بعضها إلى بعض بصلة
معقولة مفهومة .

فإذا أضيف إلى ما تقدم أن كل اللغات تتضمن كثيراً من الأمثلة الشاذة ،
والشواهد الخارجة على قواعدها العامة ، وأنها تتضمن أيضاً تلك الألفاظ التي يعبر
كل منها عن أكثر من معنى وهي ما نسمى بالمشارك اللفظي ، والألفاظ التي يشترك
اثنان منها أو أكثر في معنى واحد وهي المترادفات ، تبين بعد كل هذا أن اللغة
لا يعقل أن تتفق مع إحكام ما يخلق الله من أشياء . ولذلك كان ابن درستويه
وهو ممن نادوا بأن اللغة توقيفية ينكر أشد الإنكار وجود المشارك اللفظي وبعده
مدعاة الإلباس والإيهام ، ويتره الخالق عن مثل هذا في مخلوقاته .

(ب) ثم يندافعون مع الغائبين بالتوقيف إلى طريقةهم في الجدل والنقاش
بطريقة تقليدية وبرون في قوله تعالى « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »
دليلاً يؤيد وجهه نظرهم ، لأن الآية صريحة في أن اللغة تسبق الرسالة ، وليس
العكس كما يفهم من كلام أصحاب التوقيف . وذلك لأن الوساطة بين الله
والبشر هم الرسل ، وهو سبحانه يختارهم بعد أن يستقر أمر التفاهم بين الناس ،
ويصطلحوا على وسيلة للاتصال فيما بينهم .

ثم يرى أصحاب الاصطلاح في الآية الكريمة « وعلم آدم الأسماء كلها »
أنها تفيد أنه تعالى أقدره على اللطخ بالماظ معينة ، وجعل فيه القدرة على خلقها
بنفسه والنصرف في تراكيبها .

أما كيف شأت اللانة في رأى أصحاب الاصطلاح فنراهم يفترضون في هذا

أحد مرضين بلخصها ابن جنى في الخصائص قائلا : « كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء المألومة فيضعوا لكل واحد صمّة ولنظا إذا ذكر عرف به » إلى أن يقول « فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم فأومأوا إليه وقالوا إنسان ، فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوقات) ١ .

أما الفرض الثانى فنراه فى كلام ابن جنى على الصورة الآتية :

« وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشجيع الحمار ونقيق النراب وصهيل الفرس وقزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » .

واستمر الخلاف بعد عصر ابن جنى وابن فارس بين علماء اللغة وأهل الكلام ، وكان ينتهى أحيانا بأن يقف بعضهم موقفا وسطا فيقول بأن اللغة بدأت توفيقية ثم انتهت إلى الاصطلاح والمواضمة . وهكذا ترى أن علماء العرب لم يهتدوا إلى رأى مجممون عليه ، أو يرجحونه بصدد النشأة اللغوية .

المحدثون :

أما المحدثون من علماء اللغات فى أوربا فقد صالوا وجالوا فى هذا الشأن ، ووجدوا لذة ومثمة فى هذا البحث خلال القرن التاسع عشر ، مما أدى فى آخر الأمر إلى عدة نظريات أو افتراضات فلخصها فيما يلى :

١ - Bow-wow . أولئك الذين نادوا بهذه النظرية يرجحون أن النشأة الأولى للإلماظ لا تعدو أن تكون تقليدا للأصوات الطبيعية التى سمعها الإنسان الأول ، واتخذ منها أسماء لمصدر هذه الأصوات ، فنباح الكلب مثلا اتخذ رمزا

يعبر أو يدل على نفس الحيوان . وهكذا يتصور أصحاب هذا الرأي أن الإنسان الأول سمع عواء الذئب وزئير الأسد ومواء الهر ، فأتخذ من تلك الأصوات الحيوانية المتباينة أعلاماً للحيوانات نفسها ، كما سمع حفيف الشجر وزفير النار ونصف الرعد وخرير الماء وغيرها ، فأتخذ منها أسماء لكل الظواهر الطبيعية التي تسمع لها أصوات . وبهذا تكونت له مجموعة كبيرة من الكلمات تمد في رأى أصحاب هذه النظرية من أقدم الكلمات في اللغة الإنسانية . ثم يتصورون أن الكلمة في تطورها لا تقف في دلالتها عند حدود مصدرها الأصلي ، بل قد تمتداه إلى أمر لاصلة له بذلك المصدر ، وإلى معنى جديد لا يكاد يمت إلى الدلالة الأصلية بصلة وثيقة . ولذلك يجب ألا ندهش حين نرى معاجمنا العربية تتضمن في مادة « نباح الكلب » معنى جديداً بعيداً عن الكلب وصوته مثل قول صاحب القاموس النباح منافع صفار بيض مكية تجمل في الثلاث [. وكقوله من الفجيج بمعنى صوت الأفعى « ففجج = صحح المودة وأخلصها » ، وفي مادة الشفاء أى صوت الغنم بقول « أتيت به فما أنفى = ما أعطى شيئاً » . وفي بعض الأحيان ترى الصلة بين المعنى الأصلي والمعنى الجديد واضحة مفهومة ، كأن يشتق من زئير الأسد كلمة « الزارة » بمعنى الأجمة . وكأن يقال في مادة رغاء الإبل أى صوتها « إن الترغية مفاها الإغضاب » .

ولذلك لا يصح أن نناق مع بعض المعارضين على هذه النظرية في نهـكمهم عليها بأنها تقف بالفكر الإنسانى عند حدود حظار الحيوانات ، ونجعل اللغة الإنسانية الراقية مقصورة النشأة على تلك الأصوات الفطرية الفرزية ، لأن وراء هذه الأصوات سوراً حصينا عنده في الحقيقة تبدأ لغة الإنسان ذات الدلالات المتميزة المتباينة . فلامترضون يفترضون في هذا النوع من الأصوات عفا ولا تصلح لأن يفحدر منها تلك الدلالات الإنسانية السامية . ولكن الواقع يبرهن على أن كثيراً من كلمات اللغات الإنسانية قد انحدرت عن تلك الأصوات الفرزية

المبهمة ، ثم سميت في تطورها ودلالاتها وأصبحت تعبر عن الفكر الإنساني .

وإلا فكيف تصور أن كلمة « الخيل » ، يشتق منها « الخيلاء » ، والجبانة بمعنى الصحراء ، يشتق منها « الجبن » ، وأن من « سفمت الطعنة أصرع منها الدم وجف » تجيء « السفاهة » ، إلى غير ذلك من تلك الدلالات المجردة التي انحدرت إلينا من المحسوسات . يمكننا إذن أن ندرك أن الكلمات المستقاة من الأصوات الطبيعية قد تطورت في دلالتها حتى تصبح معبرة عن الدلالات الراقية المجردة في ذهن الإنسان .

ويبدو أن « ما كس ميلر » كان زعيم المعارضين لهذه النظرية والساحرين منها . وكان « رينان » يمارسها أيضاً ويتمكم عايمها قائلاً : ليس من المعقول أو المفهوم أن الإنسان وهو أرقى المخلوقات يقلد أصوات مخلوقات أدنى منه وأخطأ . ليستنبط من تلك الأصوات المبهمة الغامضة كلمات لغته الراقية السامية . ولكن « رينان » يتجنى على هذه النظرية حين يتصور أن عملية التقايد مقصورة على أصوات الحيوانات ، فالإنسان الأول حين بدأ عملية التقايد لم يجعلها مقصورة على أصوات بعينها ، فقد كان يقلد أصوات الحيوان ، وأصوات أخيه الإنسان وأصوات الطبيعة ، ويتخذ من كل هذه الأصوات كلماته أو ألفاظه . فلم يكن الإنسان سامتاً في الوقت الذي كان فيه الحيوان مصوتاً ومهارة الإنسان تظهر في أنه انتقل بتلك الأصوات المبهمة إلى دلالات واضحة مشتركة بين أفراد النوع الإنساني ، وجعلها تعبر عن مصدر الصوت أي عن الحيوان المنبعث عنه ذلك الصوت .

ولعل أقوى ما يوجه إلى هذه النظرية من اعتراض أن اللفات في وضعها الراهن لا تكاد تشمل إلا على قدر ضئيل جداً من تلك الكلمات الواضحة الصلة بين اللفظ والمدلول ، وهي تسمى *onomatopoeia* . هذا إلى أنها قد

تختلف باختلاف اللغات حتى في الفصيلة الواحدة . فليس تخرير الماء أو حفيف الشجر أو مواء الهر أو نباح الكلب ، في لغات البشر كلمات مشتركة في لفظها أو بمعنى لفظها .

(ب) Poob-Poob :

يرى أصحاب هذا الرأي أن اللفظة الإنسانية بدأت في صورة شمقات وتأوهات صدرت عن الإنسان بشكل غريزي لتعبر عن فرح أو دهشة أو غضب أو ألم ونحو ذلك من انفعالات قوية . ومعظم المنادين بهذه النظرية لم يحملوا أنفسهم مشقة البحث في طبيعة تلك الشمقات أو التأوهات ، بل أخذوها قضية مسلطة ، وأسسوا عليها أفكارهم . ويدين أصحاب هذا الرأي بما نادى به « دارون » في نظرياته المشهورة الخاصة بتطور الكائنات الحية . فقد بين « دارون » أن الإنسان لا يبدو أن يكون تطوراً لأرقى الأجناس من الحيوان . ولم يقتصر تفكير « دارون » على التطور الجسماني ، بل شمل أيضاً التطور الفكري والعقلي . ومن ثم كان يفكر أن الإنسان هو المخلوق المتميز وحده بالفكر والنطق ، بل بشركه في هذا أيضاً بعض الحيوانات الراقية مع تفاوت في درجة التفكير أو النطق . فالإنسان ينطق والحيوان ينطق وليس الفرق بينهما إلا في الدرجة فقد تعددت وتنوعت أصوات الإنسان ، في حين أن أصوات الحيوان ظلت محدودة . ولذلك ربط « دارون » بين النشأة اللغوية للإنسان ، وبين تلك الأصوات الغريزية والانفعالية من آهات أو تأوهات وأصوات الدهشة والتعجب ، وجعلها جيماً الأساس الأول الذي منه استمدت اللغة الإنسانية نشأتها .

وحاول « دارون » ، الربط بين هذه الأصوات وبين تقاضات أعضاء النطق أو اندساطها ، أي أنه حاول تفسيرها تفسيراً فسيولوجياً ، فيقرر أن الثمور بالازدراء

أو الذنب بمصحبه عادة ميل إلى النفخ بالفم أو من الأنف ، ومن هنا ينشأ صوت مثل Poob في الإنجليزية ، أو ، أف ، في العربية .

وكذلك الحال حين يدهش المرء أو يفرح ويميل عادة إلى فرفه كما لو كان يتنفس بعمق ، فإذا زفر هذا الهواء الذي تنفسه حين فرفاه وجدنا الفم يميل إلى الاستدارة قليلا ، ومثل هذا الوضع للشفيتين يولد لنا صوت اللين المسمى بالضمه ، وهي حين تطول قد يتصل بها صوت يشبه الماء . ويترتب على هذا أن تنشأ تأوهات مثل ob وهو الصوت الذي نسمه عادة من جمهور المتفرجين حين يفتأون بمنظر بالغ الدهشة .

أما في حالة الألم فتتقلص أعضاء الجسم كلها بما في ذلك الوجه ، مما يترتب عليه أن الشفتين تأخذان الوضع المناسب لصوت اللين A ، أي الفتحة ، ويؤدي هذا إلى صوت مثل ab أو acb !!

ويعترض بعض العلماء على هذه النظرية بأن هذه الأصوات أصوات فجائية منفصلة عن الكلام أو التكلم الذي يصدر عن المرء بصورة إرادية ، فبينها وبين الكلمات فجوة تجعلنا نعد تلك الأصوات صورة سلبية للكلام ، فليست تصدر عن المرء إلا حين يصيبه القول أو حين يأتي الكلام . هذا إلى أن كثيراً من تلك الأصوات يشتمل على عناصر صوتية لا تكاد نسمها في كلام البشر ، مثل أصوات اللين المهموسة ومثل Clicks التي تنشأ مع الشيق أي في أثناء دخول الهواء إلى الفم والرئتين .

والحقيقة أن تلك الشبهات والتأوهات لا تعدو أن تكون أصواتاً عريفية تختلف باختلاف العنوب والأمم . فصوت الدهشة عندنا هو ، ab ، وليس ، ob ، كما هو الحال عند الإنجليز الذين استقى منهم « داروين » ملاحظته . فكل شعب صوت خاص عند البكاء أو الأنين أو الدهشة أو الازدراء ونحوها من الأفعالات العريفية .

وقد كتب ، كيلنج ، في إحدى رواياته يصف إحدى الشخصيات فقال
لاأظن أن هذا الرجل من الألمان لأن الناس هناك يسكنون بالصوت ، أي أي ،
ai ai ، كذلك لاأظن أنه هندستاني لأنهم يسكنون بالصوت ob,ob ، إن الرجل
يسكن كما يسكن الرجل الأوربي فيقول ow-ow |

(ج) Ding-Dong :

ويؤكد لنا أصحاب هذا الرأي أن هناك صلة وثيقة بين ماينطق به المرء
من أصوات ، وبين مايدور في خلداه من أفكار . ويرون أن كل آثر خارجي
يتأثر به المرء يستلزم النطق ببعض الأصوات ، وهذه قوة أو قدرة قد اختلفت بها
الإنسان منذ الخليقة . ثم يترفون أن سر هذه القوة لايزال غامضاً علينا كأنما
هو أمر سحري لا ندري له كنهها . أي أنهم يتصورون أن المرء يرى الأشياء
أو الحوادث فيتأثر بها ، ويتبع هذا التأثير بصورة آلية حتمية أن ينطق بالأصوات .
أي أن الألفاظ لا تعدو أن تكون صدى لتلك المؤثرات الخارجية ، غير أن
معرفة كنه الصلة بينهما أمر عسير على أذهاننا .

وقد بنوا هذه النظرية على تلك الظاهرة العامة التي نلاحظها في الأشياء
المحسوسة من أن اصطدام أي جسم أو الدق عليه يولد صوتاً معيناً ، به يتميز هذا
الجسم في غالب الأحيان . فللدق على حديد صوت يخالف ما يصدر عن النحاس
أو الفضة أو الخشب . وهكذا زى أن لكل شيء رنيناً خاصاً يتميز به . وكذلك
الآثار الخارجية التي يتأثر بها الإنسان يحدث كل منها رنيناً خاصاً فيتمدد الرنين
بتمدد الآثار الخارجية . ولذا تعددت الألفاظ وتعددت الأصوات المشتقة عليها .

وأكبر ما يوجه إلى هذا الرأي من نقد أنه يفتقر إلى أساس غامض ، وأحاطه
أصحابه أنفسهم بالآلهة والسحر ، مما جعل معظم اللغويين الآن يرون به
مر الكرام .

وملخص هذا الرأي أن النطق الإنساني نشأ أولاً في صورة جماعية ، فقد سدد عن مجموعة من الناس في أثناء قيامهم بعمل شاق مضمّن تعاونوا على أدائه . وبؤكد لنا أصحاب هذه النظرية أن الإنسان يجد الراحة في أثناء قيامه بعمل شاق إذا تنفس أو تهدد بقوة وعنف ، وكرر هذا عدة مرات ، فهو يصدر من رئتيه قدرًا من الهواء . ويستريح لهذه العمالية المضنية لأنها تخفف من عناء عمله ومشقته . وبترتب على صدور الهواء وانبعثاته إلى خارج الفم أو الأنف أن يمر بالوترين الصوتيين فيحركهما فتسمع لهما ذبذبات ذات أنغام مختلفة . وبشبهه هذا ما نسمعه أحياناً من بعض العمال الآن حين يؤدون عملاً شاقاً مضمناً . إذ نراهم يفتنون أو يرددون عبارات بدائية لا تكاد تتضمن معنى معقولاً مفهوماً . وهم بهذه العبارات ياتمسون عرباً لأنفسهم في أثناء قيامهم بعملهم الشاق ، ويجدون فيها متنفساً وتشجيعاً ، فيكررونها ويميدون تكرارها دون ملل أو سأم .

وهكذا يرى أصحاب هذا الرأي أن اللغة نشأت حين اجتمع الإنسان بأخيه الإنسان ، ولم تنشأ عنه وهو مفرد منعزل . وبهذا يربطون بين نشأة اللغة وتكون المجتمع الإنساني ، ويوثقون بين اللغة والمجتمع . ولعل أهم ما يمتاز به هذه النظرية على النظريات السابقة ، أنها عالجّت النشأة اللغوية في ضوء المجتمع الإنساني ، وربطت بين اللغة والمجتمع ارتباطاً وثيقاً ، في حين أن كل النظريات الأخرى تفترض أن الكلمات الأولى صدرت عن الإنسان المفرد ، ثم قلده غيره في نطقه .

ويرى أصحاب هذه النظرية أن تلك الأصوات التي تصدر عن جماعة من الناس في أثناء عملهم المضمّن لا تلبث أن ترتبط بالعمل نفسه ، وتصبح بمثابة علم له ، ينطقون بها كلما تكرّر هذا العمل في الظروف المختلفة . ومثل هذه العبارات الجماعية هي التي بدأ بها الكلام ، وهي التي تعدّ النواة الأولى في النشأة اللغوية .

تلك هي النظريات التي اشتمر أمرها في أواخر القرن التاسع عشر ،

وهي كما ترى لم تحمل مشكلة النشأة اللغوية ، ولم تفسرها تفسيراً بطمئن إليه ،
ومن الممكن أن توجه إليها الاعتراضات الآتية : -

١ - إن هذه النظريات على تعددها لم تفسر لنا إلا ناحية من نواحي اللغات ، وتركنا حارين أمام النواحي الأخرى . وربما كان ما فسرتة لنا أقل جواب اللغة قيمة . وذلك لأن الألفاظ التي تبدو لنا الآن وقد ارتبطت أصواتها بمدلولاتها لا تتجاوز نسبة ضئيلة في كلمات كل لغة .

٢ - هذا إلى أنها - فيما عدا النظرية الأخيرة - قد أهملت الربط بين اللغة والمجتمع ، مما لا يستطيع اللغوي الحديث أن يتصوره .

٣ - وأخيراً تفترض هذه النظريات أن الإنسان الأول ظل صامتاً فترة من الزمن قبل أن تنشأ لغته ، ثم نطق بأصوات كأصوات لغاتنا ، وأدت عضلات لفظه وظيفتها أداء كاملاً . ومثل هذا يخالف ما نعرفه من أن العضو لا يبدأ وظيفته بدءاً كاملاً ، ولكنه يحتاج إلى المراحل الطويلة قبل أن يؤدي تلك الوظيفة الأداء الكامل . ولهذا لا يعقل أن عضلات اللفظ تنطلق من صحتها فتنتطق بأصوات كأصوات كلماتنا ، وإنما العقول أنها كانت تنطق نوعاً من النطق ، وتصوت نوعاً من التصويت ، حتى إذا اكتمل لأعضاء اللفظ نموها وتطورها صدر عنها تلك الأصوات الإنسانية التي نشبه ما يصدر عن الإنسان الآن . وحينئذ يمكن أن يقال إن اللفظ الإنساني قد بدأ ، وإن اللغة الإنسانية قد نشأت .

أحدث الآراء^(١):

اهتدى بعض المحدثين من اللغويين وعلى رأسهم « جبرسن » إلى نظرية فطمئن إليهم بعض الاطمئنان ، لأنها تأخذ بكل النظريات السابقة مجتمعة ، وتؤسس عناصرها على أسس علمية واضحة المعالم ، وخاضعة للتجربة الحديثة . فالنظريات السابقة اعتمدت على طريقة استنباطية لأنها تبدأ بالفرض ، ثم تناق لهذا الفرض الأدلة والبراهين ، أما نظرية هؤلاء المحدثين فتتبع الطريقة الاستقرائية فلستعرض الملاحظات والتجارب ، ثم تتسكون النتيجة أياً ما كانت هذه النتيجة .

وأصحاب هذه النظرية الحديثة يؤسسون نظريتهم على أسس ثلاثة : -

١ - دراسة مراحل نمو اللغة عند الأطفال

٢ - دراسة اللغة في الأمم البدائية .

٣ - دراسة تاريخية لتطور اللغوى .

١ - لغة الطفل :

لقد درس علماء النشربح مراحل نمو الجنين في بطن أمه ، ثم أكدوا لنا أنه يمر خلال مشهور الحمل الأولي في نفس المراحل التي مر بها الإنسان فهل أن تكمل إنسانيته ، وهي المراحل التي استنفدت من عمر الإنسانية آلاف السنين أو ربما ملايين السنين .

وبرقت هذه النظرية لأعين بعض الباحثين في اللغة ، وحاولوا على ضوءها أن يكتشفوا شيئاً عن النشأة اللغوية . اعتقاداً منهم أن مراحل نمو اللغة

(١) لغز عن P.412 Language, its nature, development and Origin

عند الأطفال هي نفس المراحل التي مر بها الإنسان الأول ، حتى نشأت له لغة إنسانية ذات أصوات ومدلولات كالتي نالها في اللغات الآن .

ومن الواضح أن بعض هؤلاء الباحثين قد غالى في الاعتماد على دراسة مراحل نمو اللغة عند الطفل ، وتناسى الفرق الشاسع بين ظروف الأطفال الآن حين يتعلمون لغة أبويهم ، والظروف التي عاش فيها الإنسان الأول في أثناء نشأة الكلام .

فالطفل حين يتعلم لغة أبويه لا يكاد يعدو عمله الربط بين أصوات يسمعا ومدلولات يفهما ، فهو مقلد لا مبتكر أو مخترع ، وهو يلتقط الفاظا متداولة في بيئته ، وقد أعدت كل الإعداد ، وهبت له كل التهيئة على يد معلم لا يعمل تعليبه من أهله وذويه . في حين أن الإنسان الأول لم تتح له نفس الظروف ، بل كان بمثابة المخترع يستخرج أمراً جديداً ، وحدثاً جليلاً ، ويعلم نفسه بنفسه ما لم يكن له وجود من قبل . ولعل خير ما يوضح لنا الفرق بين الحالين أن تصور باحثاً في الموسيقى يحاول استنباط مراحل تطورها عن طريق دراسة المراحل التي يمر بها الطفل في تعلمه العزف على البيانو ، دون أن يفطن إلى أن الطفل في تعلمه العزف يرى نفسه أمام أنغام معدة مهيأة ، وأغان مسموعة مألوفة ، فهو يقلد ما اخترعه غيره ، وما شاع في بيئته .

غير أنه مع هذا يمكن أن يستأنس بمراحل نمو اللغة عند الأطفال في دراسة النشأة اللغوية ، إذا اقتصرنا على السنة الأولى من عمر الأطفال حين ينادون وبصوتون بأصوات مبهمه لا تهدف إلا إلى اللذة والمتعة . ففي هذه المرحلة قد نسمع من الأطفال أصواتاً غريبة على اللغة الشائعة في بيئته ، وقد ينطق الطفل بسلسلة من الأصوات تشق عليه فيما بعد حين يتعلم لغة أبويه . فقد نسمع من الطفل الإنجليزي أصوات الحلق وليس في لغة أبويه مثل هذه الأصوات . بل حتى بعد السنة الأولى من عمر الطفل وقبل نهاية السنة الثالثة نرى بعض الأطفال يكونون

ما يمكن أن يسمى بلهتهم الصغيرة وهي الملوثة بالفاظ محرمة لانكاد نمت
في اصواتها او مدلاوتها للغة ابيهم بصفة ما .

تلك هي الأمور التي تستحق الدراسة في مراحل نمو اللغة عند الأطفال
ليستأنس بها الباحث في بحثه للنشأة اللغوية ، ولتلقى ضوءاً على ذلك الضموض
الذي يكتنف تلك النشأة اللغوية .

وقد اقتصر « لويس Lewis » في كتابه *Infant Speech* على دراسة
تلك المرحلة من نمو لغة الطفل ، وحاول تفسير الكثير من ظواهرها . فهو مثلاً
يؤكد لنا أن الطفل في غضبه يصدر أصواتاً أنفية كالنون واليم ، ولكنه في
سروره يكرر أصواتاً حلقية أو قريبة من الحلق كالسكاف والخين والجيم إلى آخره ..

فإذا ربط أحد الباحثين بين هذه الملاحظة وبين ما نعرفه من أن أداة النفي
في جل اللغات البشرية تتضمن صوتاً أنفياً ، لم يكن متجنياً أو مشتتاً حين
يقول إنه من المحتمل أن صوت الغضب الفطري قد تولدت منه في آخر الأمر تلك
الأدوات التي تعبر عن النفي في اللغات .

ومع كل هذا فلا تزال دراسة هذه المرحلة عند الأطفال بحاجة إلى المزيد
من البحث حتى يمكن أن نطامن كل الامثتان إلى النتائج المؤسسة عليها .

٢ - لغة الأمم البدائية :

والأساس الثاني الذي يستأنس به الباحثون في دراستهم للنشأة اللغوية هو
ما نلاحظه الآن من صفات خاصة في لغات الأمم البدائية . ويرى هؤلاء الباحثون
أن لغات هؤلاء الأقوام تمثل مرحلة قديمة في نمو اللغات وتطورها ، وهي لهذا
تلقى ضوءاً على ما كانت عليه لغة الإنسان في العصور الصحيحة . ومقارنتها باللغات
الأمم المتعدنية ربينا الطريق الذي سلكته اللغة في تطورها ، والعناصر التي
تخلصت منها أو أبتت عليها .

ومع هذا فمن الغفلة أن تصور أن لغات الأمم البدائية قريبة الشبة بلغة الإنسان الأول . فهي مما التقطناها من بين أحط الشعوب و المدنية تمثل مرحلة متأخرة نسبياً من مراحل التطور اللغوي . فلا شك أن آلافاً من السنين قد مرت على لغة الإنسان قبل أن تصل إلى مرحلة تلك الشعوب التي نسميها بدائية .

٣ - الدراسة التاريخية :

وربما كان هذا الأساس الثالث أهم من الأساسين السابقين في بحث النشأة اللغوية . وقد وجه المحدثون كل جهودهم لهذه الدراسة التاريخية ، ولكنهم بدأوها بطريقة عكسية ، أي أنهم بدأوا البحث في لغات العصر الحاضر ، ثم عادوا إلى الوراء جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، مستخدمين معلوماتهم عن حال اللغات و العصور الماضية من النصوص اللغوية والمستندات التاريخية وهم في هذا البحث يعقدون المقارنات ليستنبطوا قوانين أو قواعد عامة للتطور اللغوي . . . فمثلاً يقارنون حال الإنجليزية الحديثة بحالها في عصر شكسبير ثم عصر تشوسر ثم بالألمانية القديمة ، ويقارنون اللهجات الهندية الحديثة بالنصوص التي رويت عن اللغة السانسكريتية ، ويقارنون اللهجات العربية الحديثة باللهجات القديمة ، وهكذا تستمر مقارنتهم خلال العصور التاريخية التي روى عنها نصوص لغوية . فإذا تجمعت لهم عن طريق تلك المقارنة التاريخية قواعد عامة للتطور اللغوي ، أمكن تطبيق تلك القواعد على عصور ما قبل التاريخ ، واستنباط الحال التي كانت عليها اللغات في تلك العصور البعيدة التي لا نكاد ندرى من أمرها شيئاً . وربما أمكن الباحث عن هذا الطريق الوصول إلى تكوين فكرة واضحة المعالم عن أقدم المراحل في النشأة اللغوية . بل ربما أمكن تبديد السحب التي تكثف تلك النشأة اللغوية .

وقد استطاع جيسبرسن^(١) أن يصل إلى نتائج قيمة عن طريق هذا البحث المقارن ، وأن بصور لنا ما كانت عليه اللغات في أقدم العصور .

الأصوات :

(١) الاتجاه نحو تبصير الأصوات : هذا هو الميل العام الذي لوحظ في تطور اللغات . فحين قررت النصوص القديمة بالنصوص الحديثة تبين للباحثين أن التطور الصوتي في اللغات يميل في غالب الأحيان نحو تبصير النطق بها ، والاقتصاد في الجهد المعنوي أثناء صدورها . وترتب على هذا الميل العام ظواهر ثلاث :

أولها : أن اللغات في أحدث صورها تمكّد تخلو من المجموعات الصوتية المتنافرة التي تنمثر في نطقها الألسنة ، مثل تلك الكلمات التي يصنفها علماء البلاغة بنفائر الحروف مجتمعة كالمخمج ، مستشزرات ، احججشش بطن فلان^(٢) . فاجتماع مثل هذه الأصوات في الكلمة الواحدة كان أمراً مألوفاً في اللغات في أقدم عصورها . ثم تطورت الأصوات ومالت إلى تهليل النطق ، فتخلصت من تلك المجموعات الصوتية الشاقة ، ولم تخاف لنا منها إلا الكلمات قليلة هي التي تشبه ما يتخذها علماء البلاغة من أمثلة لتنافر الحروف .

ثانيها : الميل نحو التقصير من بنية الكلمات . فقد دلت الملاحظات الحديثة على أن النصوص القديمة في معظم اللغات قد تضمنت كلمات طويلة كثيرة الحروف وإن خلت في بعض الأحيان مما يسمى بنفائر الحروف مجتمعة . ولذا لاندھش حين نرى أن كثيراً من الكلمات الجاهلية الكثيرة الحروف قد انقرضت عن ص العصور . كذلك الأوزان التي يشير إليها العرفيون في كتبهم والتي لا تمكّد

(1) Language, its nature p. 415

(٢) راجع مؤلفي في شهر ٣١

نرى لها أترأ في القرآن الكريم ، أو الشجرة العباسي مثل افنسس واسنقى
واحرنجم واطاخم واجرنثم . ومثل ما يروى عن امرئ القيس : « رب جفنة
متعجزة وطمنة مسحفة ٠٠٠ إلخ .

فليس في مثل « احرنجم » حروف متناثرة في اجتماعها ، ومع هذا فقد
اندثر هذا النوع من الكلمات الطويلة ، وشاع في اللغة العربية تلك الكلمات
الثلاثية الحروف أو الرباعية الحروف ، وتكونت منها معظم كلمات اللغة العربية .

وبقينا من هذا ما يدعو إليه بعض العلماء من أن الأصل في بنية
الكلمات أن تكون ثنائية لا أساس له من الصحة ، بل يبدو من ملاحظتنا
في كل العصور التاريخية أن العكس هو الصحيح ، أي أن الكلمات كانت طويلة
ثم قصرت .

كتب الأب مرمرجي الدومني الأستاذ بالمعهد الفرنسي بالقدس كتاباً سماه
« المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية » ، وقد حاول في هذا
الكتاب الصغير أن يبرهن على صحة نظريته من أن الأصل السامي القديم
كان ثنائياً .

وقد عرض لعدة كلمات من بينها كلمة « الفصح » وهو العيد الإسرائيلى
المعروف ، فافتراض أن الأصل كان يتكون من الحرفين الأولين أى الفاء والصاد
أو ما يشبههما كالباء والسين أو الشين ، وساق لنا كلمات من اللغات السامية
المتباينة كالمبرية والآرامية والحيشية ، وقد تكون كل منها من حرفين الأول
شفوى والثانى من حروف الصغير ، وكل هذه الكلمات تعبر عن معنى الخروج
أو الانتشار أو الاتصال . . . إلخ . ثم افترض أن الأصل السامى الثنائى قد زاد
مبناه بائصال الصوت الحلقى وهو الحاء . وتخصص معناه وأصبح مقصوراً على
الاجتياز أو العبور ، وهكذا نشأت كلمة « الفصح » الشائعة في العربية بمعنى
العبد المعروف . ويرغم لنا المؤلف أن الكلمة في صورتها الثلاثية ، ومعناها
(٣ - الألف)

الشباب يرحون ويلعبون ويستمتعون بالنطق دون هدف معين سوى المتعة واللعب بالسنتهم كما كانوا يلعبون بأيديهم وأرجلهم . أى أن اللغة نشأت في صورة لعب ممتع لا تهدف إلى إيصال معنى إلى السامع ، بل كانت أشبه بمناغاة الطفل وأصواته البهمة التي يطلقها أمامنا دون هدف معين .

ومن الضاوة أن تصاق مع بعض الفلاسفة الذين تصوروا أن الهدف الأصلي من الكلام كان التفاهم وإيصال المعنى إلى السامع ، فم يكن الإنسان الأول معنياً بالأفكار عنابة هؤلاء الفلاسفة . ولكن عنابته كانت مقصورة على الغرائز والعاطفة ، ولعل الحب والغريزة الجنسية أقوى هذه العواطف ، فهو ينطق أو يصوت ليسترعى انتباه الأليف ، ويثبت وجوده واستقلانه ، كالطائر حين ينتقل من فن إلى فن وهو يفتى غناء متواصلاً له بهذا يقال الخطوة لدى أليفه من الطيور .

كذلك كان الإنسان الأول يفتى في أثناء صيده وفي حربه ، وفي كل ما يقوم به ، غناء لا كغنائنا يهدف إلى الطرب أو يتضمن أصولاً وقواعد ، وإنما هو مصويت منسجم تتردد فيه الأصوات والمقاطع .

ثم تطور هذا النطق من مجرد اللعب والمتعة وأصبح ذا هدف فيما بعد ، واستغل في التعبير عن كل ما يدور بخلد الإنسان من خير أو شر .

ومثل التطور الكلامي كمثل التطور في الكتابة حين بدأت تصويرية فد يرض فيها المرء بالصورة الواحدة لعبارة ذات أحداث متعددة ، ثم صارت أخيراً إلى الكتابة الهجائية التي يرمز فيها للصوت الواحد بحرف واحد ، فأخذ كل حرف الفكرة الكلية وأصبح يستعمل والكلمات المتباينة . وهكذا الكلام بدأ في صورة كتلية ثم تحلقت الكتلة إلى عناصر هي التي سميناها الآن بالكلمات .

أما كيف انتقلت الأصوات الخالية من الدلالة إلى اللفاظ ذات دلالات ومعان فمستطيع أن ندركه بسهولة حين نتذكر عمل الطفل وربطه بين ما يسمع وبين ما يشاهد من أحداث ، مما يؤدي في آخر الأمر إلى فهمه لدلولات الألفاظ .

فإذا تصورنا زعيما ممتازا بالقوة الجسمانية والجرأة ينطق أمام ذويه بأصوات مبهمه لا يهدف من ورائها إلى هدف معين ، وتصادف أن حدث حينئذ انقصار على وحش مفترس . ربط السامعون بين هذا الحدث وبين أصوات الزعيم ، وقد يرددون ما يسمعون ، ويكررون تردده كلما تكرر هذا الحدث ، حتى تصبح تلك الأصوات بمثابة علم عليه ، ولا يلبث العلم أن يتطور إلى كلمة عامة . ولدينا في العصور الحديثة كثير من الأمثلة التي تبرهن على إمكان تطور العلم إلى لفظ عام ذي معنى كلي . فن « الإله » نشأ « القائل » ، ومن الشيطان جاء « تشيطان » ، ومن إبليس نشأت الأبلسة ، وأصبح لأمثال العلمين « حاتم ونيرون » دلالات كلية تستغل في لغات كثيرة .

أما الكلمات ذات الصلة الوثيقة بين صوتها ومدلولها وهي التي يطلق عليها Onomatopoeia فأمرها هين ونشأتها واضحة ؛ فهي قليلة في كل لغة ولا تفسر الكثرة الغالبة من ألفاظ اللغات . ولذا نرجح أن معظم الكلمات قد أخذت مدلولاتها بطريق المصادفة ، أي أنها كانت أصواتا مبهمه لا هدف منها سوى اللعب والمتعة ، ثم تصادف أن نطق بها في أثناء حدث من الأحداث ، فارتبطت به ارتباطا العلمية ، وتدرج العلم من معناه الخاص إلى معنى عام .

فإذا فسرت الأسماء في قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » بمعنى الأعلام . سار هذا التفسير أحدث ما ينادى به اللغويون في عصرنا الحاضر .

الفصل الثاني

الدلالة

أدائها ، أنواعها ، فهمها

- ١ -

بين اللفظ والكلمة

أداة الدلالة هي اللفظ أو الكلمة ، وتتكاد تجمع المعاجم العربية على أن « الألفاظ » ترادف « الكلمات » في الاستعمال الشائع المؤلف ، فلا فرق بين أن يقال أحصينا ألفاظ اللغة ، أو كلمات اللغة . ومع هذا فالنحاة في كتبهم يحاولون التفرقة بين كل من اللفظ والكلمة والقول ، في حديث طويل نخرج منه أنهم يستشعرون مع اللفظ عملية النطق وكيفية صدور الصوت ، وما يستتبع هذا من حركات اللسان والشفتهين . فإذا ربطت هذه الأصوات المنطوق بها وما يمكن أن تدل عليه من معنى تكونت في رأيهم « الكلمة » ، أي أن الكلمة أخصر لأنها لفظ دل على معنى .

من أجل هذا آثرنا في عنوان هذا الكتاب أن نستعمل « الألفاظ » دون « الكلمات » لأن أوضح ما نهدف إليه هنا هو أن نبيِّن الصلة بين ما ننطق به من أصوات وما تدل عليه من دلالات ، ونتعرف على أثر هذا المنطوق به فيما يوجهه إلى الأذهان من صور قد تختلف قوة وضعفاً ، وتباين في رفضها أو خستها ، وتنازع بين الوضوح والإبهام .

عد أنا في صلب الكتاب قد خصصنا «الكلمات» بالاستعمال ، لأنها الألفاظ ذات الدلالات ، وهدفنا الأكبر هنا هو تلك الدلالات ، وليس من أغراض هذا البحث أن نحلل الألفاظ إلى عناصرها الصوتية ، ولا أن نبين ما يتم معها من عمليات عضلية في الجهاز النطقي أو جهاز السمع .

والكلمة وإن كانت ذات مفهوم واضح في أذهان كل الناس ، تراها تظهر بجدل على حد كبير من المحدثين من اللغويين حين حاولوا تعريفها ، وبيان حدودها . فملء الأصوات لا يرون في الكلام المتصل حدوداً تميز بين كلمة وأخرى ، فلا يستطيع السامع تحليل الجملة أو العبارة إلى مجاميع صوتية كل مجموعة منها تنطبق على ما يسمى بالكلمة ، إلا حين يستعين بالدلالات التي تتضمنها الجملة ، أو العبارة . فكلمات الجملة متداخلة متشابكة يرتبط بعضها ببعض و انتهاء النطق ارتباطاً وثيقاً وليس في الكلمة عنصر صوتي يحدد بدءها أو نهايتها حين تكون في الكلام المتصل فإذا سمع أجنبي عن اللغة قرئاً بقوله تعالى « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ، يصعب عليه أن يحدد نهايات الكلمات أو بدءها إلا إذا كان على علم بالدلالات . من أجل هذا يقال لنا إن الأساس الصوتي لا يصلح وحده للتمييز بين حدود الكلمات في الكلام المتصل . وليت اللغات في الحقيقة إلا كلاماً متصلاً ، ويندر في الاستعمال العادي أن يكتبوا الكلمة بكلمة واحدة للتعبير عما يدور بخالده .

على أن بعض اللغويين من المحدثين يحاول جاهداً أن يبين لنا حدود الكلمات على أساس صوتي بحت ، وذلك بالاستعانة بالنبر وفواعده في اللغة المراد بحت كلماتها فمن اللغات ما تلتزم النبر في نهاية الكلمات ، ومنها ما تلتزمه في بدئها وهنا يمكن أن يقال إن حدود الكلمات قد تميزت بوسيلة صوتية ولكن هذه المحاولات قد ماتت في آخر الأمر بالفشل ، لأن النبر وحده على حد

تعبير فنديس^(١) « لا يكفى لتحديد الكلمة ، لأنه لا يعين حدودها إلا بصورة نائمة . نعم إن الفبر في بعض اللغات يتوقف على آخر الكلمة ، وفي البعض الآخر ترى أن مبدأ الكلمة هو الفهور ، ولكن هذه الحالات لا تستغرق جميع الإمكانيات » . وينتهي فنديس بقوله « كل ذلك يحملنا على تحديد الكلمة الصوتية من تقلة عن الفبر » .

أما ما يرويه فنديس عن « جونيو » من محاولة تحديد البدء أو النهاية للكلمة على أساس ما يعترى نهايات الكلمات من ضعف أو خور في اللفظ ، فيبدو أن هذه الصفة إن صح وجودها في بعض اللغات لا تكاد تلتزم في الكثرة الغالبة من اللغات الإنسانية . ومن المفالمة حينئذ أن يدعى أن للكلمة الصوتية حدوداً مستقلة في لغة من اللغات .

ويبدو أن تشابك الكلمات أو تداخلها في الكلام المتصل هو الذي يجعل الطفل في المراحل الأولى يلتقط الكلام بمن حوله في صورة كتل لا انفصام بين أجزائها . وبظل الطفل يستعمل تلك الكتل اللغوية زمناً ما ، دون تحليل إلى أجزائها أو عناصرها ، كما أراد التعبير عن رغبة له من رغبات الطفولة الأولى . فقد سمعها^٢ للمرة الأولى ككتلة متماصة الأجزاء ، فتعلمها هكذا دون تدقيق في تفاصيلها أو تمييز بين عناصرها . وبظل على هذه الحال حتى تتكرر التجارب اللغوية على سمع^٣ه في مناسبات متعددة متباينة . قبل أن يقوم بعملية تحليل الكلام إلى أجزائه ، ليدين استقلال الكلمات بعضها عن بعض .

وقد كان مما لاحظناه في أطفالنا أنهم تعودوا سماع ذلك السؤال التقليدي حين يقابلون شخصاً ما للمرة الأولى فيسألهم : « اسمك إيه يا خاطر ؟ » وتعلم كل منهم أن يجيب عن اسمه قائلاً : محمد أو علي أو زينب . . . الخ ويتكرر نفس

السؤال ، ويتكرر معه نفس الجواب . ويحتفظ الطفل في بادئ الأمر بصورة تقريبية لهذا السؤال التقليدي دون تمييز بين أجزائه وعناصره . فإذا نطق أمامه أحد الناس بما يشبه هذا السؤال في مجموعه كأن يقول مثلاً « سمك ليه باشافط؟ » ، فقد يسارع الطفل إلى الإجابة التقليدية وينطق باسمه .

كذلك أدى الربط الوثيق بين الكلمات في الكلام المتصل إلى بعض الظواهر اللغوية التي منها الإدغام ، وذلك كأن يفتى الحرف الذي تنتهي به الكلمة في الحرف الذي تبدأ به الكلمة التالية . وأمثلة هذا كثيرة حتى في التراتبات القرآنية (١) . ومن تلك الظواهر تأثير الأصوات المتجاورة بعضها ببعض في الجهر والهمس ، وفي الشدة والرخاوة ، ونحو هذا مما يحرص له علماء الصوتيات في محوهم (٢)

بل لقد أدى هذا الربط الوثيق بين الكلمات إلى خلط بين نهاياتها وبدئها في بعض الأحيان ، مما ترتب عليه في آخر الأمر ظهور كلمات جديدة في اللغة ، مثل الفعل العاى « جاب » ، فأعد الض أن نشأ عن التعبير القديم « جاء بكذا » ، وأن الباء الحارة قد اعتبرت نهاية للفعل السابق عليها ، وكذلك الكلمة « عقبال » التي يرجح أنها تكونت من الاستعمال القديم عقي لـ كـ أو لها أو لنا . . . إلخ فتدمرت اللام إلى الكلمة السابقة عليها ، وأصبحت تكون جزءاً منها .

ومثل هذا يمكن أن يقال حين نبحث في الاستعمالات العامية « أ كنه ، أعزونه ، أجرته » التي يرجح أنها نشأت عن العبارات القديمة كما أنه ، أعزو أنه ، جرى أنه . . . إلخ .

(١) انظر أمثلة هذا في كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٤٣ .

(٢) الأصوات صفحة ١١٢ .

ويبدو أن القدماء من علماء العربية لم يصادفوا صعوبة في تحديد معالم الكلمة ، فقد فزع أكثرهم بوصفها على أنها « اللفظ المفرد » أو « القول المفرد » ، ولم يخطر في أذهانهم أن الإفراد في الكلام المتصل لا يمكن تصويره إلا بالسكتات أو الوقفات على مجموعات صوتية من هذا الكلام . ومسألة السكتات أو الوقفات مرجعها إلى الناطق بالكلام ، فهو إن شاء وقف بعد حرفين أو ثلاثة أو عشرة أو أكثر . ويتكون نطقه حينئذ من مجموعات صوتية ، تختلف طولاً وقصراً ، منها ما ينطبق على الكلمة الواحدة ، ومنها ما قد ينطبق على كلمتين أو أكثر . فلو أن اللفات تحتم الوقوف عند آخر كل كلمة في أثناء الكلام ، لأمكن حينئذ تحديد الكلمات على أساس صوتي محض . ولأمكن أن يكون للإفراد اصطلاح هؤلاء العلماء دلالة صوتية واضحة .

وقد بدا النقص في التعريف المتقدم لبعض هؤلاء الفحاة ، محاول تلافيه بإشراك المعنى مع اللفظ وقال : الكلمة لفظ مفرد دل على معنى مفرد . وهكذا نراه يتخذ لتعريف الكلمة أو تحديدها أساسين هما اللفظ والمعنى . ومع أن هذا التعريف ينطبق على الكثرة الغالبة من كلمات اللغة العربية ، نرى أنفسنا معه في حيرة حين نتساءل : هل تعد أداة التعريف كلمة ؟ وهل تعد الماء الحارة كلمة ؟

وليس المحدثون من علماء اللغات بأوفر حظاً من القدماء في تعريف الكلمة أو تحديدها ، فقد سلـكوا في هذا مسالك شتى ، وذهبوا فيه مذاهب متعددة ، جعلتهم في آخر الأمر يذهبون إلى صعوبة تحديد الكلمة بحيث ينطبق هذا التحديد على كل اللغات . وفتنوا بمحاولة تحديدها في لغة ما ، غير أنهم يجمعون على أن الأساس الصوتي وحده لا يصلح لتحديد معالم الكلمات ، وأنه لا بد من أن يشترك معه معنى الكلمة أو وظيفتها الألفية ليكن تحديدها .

وقد اوضح للعالم المشهور ساپير Sapir^(١) ان تحليل الكلام إلى عناصر
أو وحدات ذات دلالة يقسم هذا الكلام إلى مجموعات صوتية منها ما ينطبق على
الكلمة ، ومنها ما ينطبق على جزء من كلمة ، ومنها ما ينطبق على كلمتين
أو أكثر . خذ مثلا جملة : « قطعت الشجرة بالفأس ليلة أمس » ، التي يمكن
تحليلها إلى عناصر ذات دلالات متباينة هي : (١) قطع (٢) ت (٣) ال (٤) شجرة
(٥) ب (٦) ال (٧) فأس (٨) ليلة أمس .

ودلالة العنصر الأول هي الحدث أو الفعلية ، والعنصر الثاني هي المورد
التكلم ، الثالث هي التعريفية ، والرابع النبات المروف ، والخامس الآلية ،
والسادس التعريفية ، والسابع الأداة المروفة ، والثامن الزمنية . ولا شك أن
العنصر الثاني والثالث والخامس والسادس أجزاء للكلمة ، في حين أن العنصر
الثامن وحده يتكون من كلمتين .

ولعل « بلومفيلد »^(١) Bloomfield في تحديده للكلمة بقوله : « صفة
صيغة حرة » ، إنما أراد أن يتفادى اعتبار أمثال أداة التعريف أو الباء الحرة من
الكلمات .

ومهما يكن من اختلاف وجهات النظر بين المحدثين في تحديد الكلمات
أو تعريفها ، فإنهم يشيرون في كتبهم إلى اختبار دقيق يمكن أن نقبل منه معالم
الكلمة أو حدودها ، وذلك بأن يمكن إفرادها بالنطق ، وحذفها من الكلام
أو إفحامها فيه ، أو الاستعاضة عنم بأخرى . فضمير التكلم في الجملة السابقة لا
يمكن إفراده وإن أمكن حذفه والاستعاضة عنه بغيره . أما « شجرة » في هذه
الجملة ، فيمكن إفرادها ، ويمكن إفحامها في كلام آخر مثل « نبتت الشجرة في
حديقةنا » ، ويمكن الاستعاضة عنها بكلمة مثل « الفخلة » كأن يقال « قطعت
لفخلة ليلة أمس » .

(1) language. p. 25.

(2) Language p. 178.

وبرعم هذه الحرية في تحديد الكلمة بين القدماء والمحدثين، فإن اللغة تتضمن من العناصر الواحدة الاستقلال في لفظها ومدلولها ، وهي التي يعرفها الناس بالكلمات ككل الأسماء والأفعال . وتلك هي التي تكون الكثرة الغالبة من عناصر أي لغة من اللغات ، وهي التي يبلغ من وضوحها لفظاً ومعنى أن يتعرف عليها الطفل الصغير ، مدر من قبايل من ناطقه لغة أبويه ، ويشترك في تمييزها الجاهل والتميم .

وهذا النوع من الكلمات هو الذي بعيننا هنا لوضوحه في لفظه ، ووضوحه في دلالاته ، وتميزه بين العناصر اللغوية في كل اللغات البشرية ، لأن كلام من هذه الكلمات يتضمن دلالة اجتماعية معروفة مألوفة بين جمهور المتكلمين من أبناء اللغة .

أنواع الدلالات

تصور معنى سديقين يتحدثان ويقول أحدهم للآخر لا تصدقه فهو كذاب هل يعقل أن تنضخ العين باللفظ في وسط الصحراء بعد نوان [١٩] ! ! ! .

لكن يفهم السامع المراد من هذه العبارة لا بد أن يسكور قد مر قبل سماعها بتجارب كثيرة يستعين بها على الإحاطة بظروف هذا الكلام وملابساته . ولا يتم فهمها لها بغير الوقوف على تلك الظروف والملابسات التي منها صلة المتكلم بالمتحدث عنه ، بل وصلة المتكلم بالسامع ، وما يمكن أن يتضمنه الشروع الذي يدور حوله الحديث من إمكانيات مالية وفنية وترتيب وتنظيم . ولا بد للمتكلم والسامع في مثل هذا الحديث من تجارب علمية سابقة تتصل باللفظ وطبيعته ، وكيفية استخراجها أو التفتيح عنها ، وتجارب أخرى عن الصحراء وطبيعتها وتكوينها ، وموقعها الجغرافي ، وغير ذلك من بيانات ومعلومات مشتركة بين السامع والمتكلم على أساسها يفهم أحدهما الآخر وبدونها لا يتم هذا الفهم .

وتتبع تلك الظروف والملازمات يستلزم الرجوع إلى الوراء زمنياً طويلاً ،
وتقصي حالات وتجارب كثيرة لا تنسع لها صفحات من الوصف للوقوف على
تفاصيلها . هذا إلى أن لنفسية كل من المتكلم والسامع دخلا في فهم هذا الحديث .
فهل من طبيعة المتكلم المغالاة أو التشاؤم ، وهل من طبيعة السامع حسن الظن
بالناس ، أو التشكك والريبة في سلوكهم ، إلى غير ذلك من ظروف معقدة لا تكاد
تقع تحت حصر .

ولسكى يفتنيا اللغوي بأن مثل هذا الحديث يستجيب له السامع بنفس القدر
الذي أراد المتكلم ، لا بد له من الإحاطة بكل هذه الظروف والملازمات ،
وليست هذه الإحاطة بالأمر الهين السهل ، لأنها تتطلب زمنياً طويلاً وبمحتى
مستفيضاً .

وليس يعتمد الفهم على مجرد نطق المتكلم بتلك الكلمات ، فقد يلفظ بها
هذا المتكلم أمام سامع آخر يفهم أمامها مشدوها لا يدري الهدى منها ، ولا يلبث
أن يتساءل : من هذا الذي يتحدث عنه ؟ ولماذا لا أسدقه ؟ وأى صحراء تعنى ؟
وأى موقع في هذه الصحراء ؟ ومن القاعون بهذا المشروع ؟ ومن الدولون له ؟
بل قد يتساءل عما إذا كان النفط يستخرج من عيون الأرض ، أو يصنع في معامل
ومصانع تقوم بتركيبه كما تركب الأدوية والمستحضرات !!

فالفهم عن طريق الوقوف على تلك الظروف والملازمات عملية تتم قبل الفهم
للص اللغوي أو العبارة المنطوق بها .

دعنا نفترض أن المشاركة قد تمت بين كل من المتكلم والسامع في ظروف
سابقة ، بحيث أصبح كل منهما يفهم على كل الملازمات ، وأصبح من الممكن
لهذا المتكلم أن يفتن بهذه العبارة ، كما أصبح من الممكن لهذا السامع أن

يستجيب لها ، ثم دعنا بعد هذا نساأل عن الدلالات التي يستعملها السامع من مثل هذا المنطوق :

تتضمن هذه العبارة أنواعاً من الدلالات يمكن أن تقسم بحسب مصدرها إلى ما يأتي :

١ - دلالة صوتية :

وهي التي تستمد من طبيعة بعض الأصوات في هذه العبارة ، فكلمة « تنضح » كما يحدثنا كثير من اللغويين القدماء تعبر عن فوران السائل في قوة وعنف ، وهي إذا فورت بنظيرتها « تنضح » التي تدل على تسرب السائل في تودة ويط ، يذمين لنا أن صوت الحاء في الأولى له دخل في دلالتها ، فقد اكتسبها في رأى أولئك اللغويين تلك القوة وذلك العنف وعلى هذا فالسامع يتصور بعد سماعه كلمة « تنضح » حيناً يفور منها اللفظ فوراناً قوياً عنيفاً .

والفضل في مثل هذا الفهم يرجع إلى إشار صوت على آخر ، أو مجموعة من الأصوات على أخرى في الكلام المنطوق به .

هناك إذن نوع من الدلالة تستمد من طبيعة الأصوات ، وهي التي نطلق عليها اسم الدلالة الصوتية .

ومن مظاهر هذه الدلالة الصوتية « النبر » فقد تتميز الدلالة باختلاف موقعه من الكلمة . فبعض الكلمات الإنجليزية تستعمل « اسماً » إذا كان النبر على المقطع الأول منها ، فإذا انتقل النبر على مقطع آخر من الكلمة أصبحت « فعلاً » وتستعمل حينئذ استعمال الأفعال .

أما في مجلتنا السابقة هل يعقل أن تنضح العين في وسط الصحراء في تون ، فيمكن أن يزيد الضغط أو النبر على « وسط الصحراء » فيصبح موضع القراءة

أن تنبثق بئر النفط في وسط الصحراء ، وأن هذا من غير المألوف في مهنة التنقيب عنه ، وإن سواحل البحار مثلاً هي المكان الطبيعي لمثل هذه الآبار . أما إذا زاد التكلم الضنط أو التبر على « في توان » ، كان عمل الغرابة أن تم مثل هذه العملية المتعددة في مثل هذا الزمن القصير .

ومن مظاهر الدلالة الصوتية ، ما نسميه بالنغمة الكلامية intonation وتلقب هذه النغمة في بعض اللغات دوراً هاماً . ففي اللغة السويدية مثلاً قد يكون للكلمة الواحدة عدة دلالات لا يفرق بينها إلا اختلاف النغمة في النطق .

خذ مثلاً تلك العبارة العامية « لا يا شيخ ! » وتذكر أنك تستطيع أن تنطق بها بعدة نغمات ، وهي مع كل نغمة من تلك النغمات تفيد دلالة خاصة ، فهي مرة مجرد الاستفهام ، وأخرى للتمكيم والسخرية ، وثالثة للدهشة والاستفراب وهكذا .

فتغير النغمة قد يتبعه تغير في الدلالة في كثير من اللغات .

٢ - الدلالة الصرفية :

هناك نوع من الدلالة يعتمد عن طريق الصيغ وبنيتها ، ففي جملتنا السابقة ، تخير المتكلم « كذاب » بدلاً من « كاذب » ، لأن الأولى جاءت على صيغة يجمع اللغويون القدماء على أنها تفيد بالبالغة فكلمة « كذاب » تزيد في دلالتها على كلمة « كاذب » ، وقد استمدت هذه الزيادة من تلك الصيغة المعينة ، فاستعمل كلمة « كذاب » ، يمد السامع بقدر من الدلالة لم يكن ليصل إليه أو يتصوره لو أن المتكلم استعمل « كاذب » .

٣ - الدلالة النحوية :

يخدم نظام الجملة العربية أو هندستها ترتيباً خاصاً لو اختلف أصبح من الصعب أن يفهم المراد منها . تصور مثلاً أن جملة السابقة أصبحت لا تصدق في وسط الصحراء فهو هل يعقل في ثوان النفط كذاب المين تنضح !!

٤ - الدلالة المعجمية أو الاجتماعية .

وهي الدلالة التي توجه إليها هنا كل عنايتنا ، كالدلالة التي تستفاد من « التصديق » ، ودلالة « الكذب » ، « الصحراء » ، و « النفط » ، و « التصريح » إلى آخر ما في جملة السابقة

فشكل كلمة من كلمات اللغة لها دلالة معجمية أو اجتماعية . تستقل مما يمكن أن توحيه أصوات هذه الكلمة وسيقتها من دلالات رائدة على تلك الدلالة الأساسية ، التي يطبق عليها الدلالة الاجتماعية

كلمة « الكذاب » في جملة الآفة الذكر تدل على شخص يتعمد بالكذب ؛ وذلك هي دلالتها الاجتماعية غير أنها اكتسبت عن طريق صيغتها قدر آخر من الدلالة يسمى بالدلالة الصرفية

والفعل « تنضح » كلمة تدل على تسرب السائل ، وذلك هي دلالتها الأساسية ، ولكنها في رأى اللغويين قد اكتسبت عن طريق تكويدهم الصوتي وطبيعة الأصوات فيها ، قوة وعنفاً في تلك الدلالة الأساسية .

ومع أن لكل كلمة دلالتها الاجتماعية المستقلة ، نلاحظ أنه حين تتركب الجملة من عدة كلمات تتخذ كل كلمة موقعاً معيناً من هذه الجملة ، بحيث ترتبط الكلمات بعضها ببعض على حسب قرائن لغوية خاصة بالنظام المعجمي ، وفيه تؤدي كل كلمة وظيفة معينة

ولا يتم الفهم أو يكمل إلا حين يقف السامع على كل هذه الدلالات . وليس من الضروري أن نتصور السامع على علم بالنظام الصرفي والنحوي في اللغة على الصورة المعتدة التي تراها في كتب النحاة الأول . ولا نفترض في السامع لكي يتم فهمه جملة من الجمل أن يكون قد اتصل أي نوع من الاتصال بعلوم اللغة من نحو وصرف ، بل يكفي أن يكون السامع قد عرف عن طريق التلقي والمشافهة في تجارب سابقة الفرق بين استعمال كلمتي « الكذاب » و « الكاذب » ، وأن يكون قد تعود من المناسبات الكثيرة كيفية تكوين الجمل والربط الصحيح بين كلماتها .

ويكتسب أبناء اللغة كل هذه الدلالات عن طريق التلقي والمشافهة ، ويتطاب هذا الكسب زمنا ليس بالقصير قبل أن يسيطر المرء على لغة أبويه ، ونصبح أنظمتها بمثابة المواد الكلامية ، يؤديها دون شعور بمخاضاتها ، أو على الأقل دون أن يشعر بها شعور عالم النحو والصرف .

ولا تلبث الدلالات الصوتية والصرفية والنحوية بعد المران الكافي أن نحمل من كل مدامنطقة اللاشعورية أو شبه الشعورية براعيها بطريقة تكاد تكون آلية دون جهد أو عناء كبير ، وتلك هي المرحلة التي يعرفها اللغويون بالمحاكاة اللغوية .

أما الدلالة الاجتماعية للكلمات فتظل تحتل بؤرة الشعور ، لأنها الهدف الأساسي في كل كلام . وليست العمليات العضوية التي تقوم بها في النطق بالأصوات إلا وسائل يرجو التكلم أن يصل عن طريقها إلى ما يهدف من فهم أو إقناع .

وقد اختص المحدثون من اللغويين تلك الدلالة الاجتماعية بالدراسة
(م ٤ — الألفاظ)

والبحث وجعلوا منها فرعاً دراسياً مستقلاً سموه Semantics ، زادت عنايتهم به خلال القرن العشرين .

ويبدو أن بعض اللغويين من المحدثين يميلون إلى التفرقة بين الدلالة المعجمية والدلالة الاجتماعية ، إذ أن المعجم وإن كانت مهمتها الأساسية هي توضيح تلك الدلالات الاجتماعية ، غير أنها قد تعرض لبحث مسائل من النحو والصرف . فليس من مهمة المعجم الحديث أن يبين كيف نشق اسم الفاعل من كل فعل من أفعال اللغة ، ولا الجمع لكل اسم من أسماء اللغة ، ولكن المعجم قد يعرض لشيء من هذا حين تكون الصيغة الشائعة غير جارية على النظام المؤلف للاسم الفاعل أو الجمع . فعالم اللغة يحاول تقييد القواعد ويوقفنا على المطرد القياسي منها ليستطيع كل منا استنباطها بنفسه ، أو قياسها دون حاجة إلى سماعها من غيره ، أو الكشف عنها في معجم من المعاجم . فإذا استقرت تلك القواعد وأصبح كل منا يدرك كيف يشتق اسم الفاعل اشتقاقاً قياسياً مطرداً وكيف يجمع الاسم جمعاً قياسياً مطرداً ، وكيف يستخرج المضارع من الماضي أو العكس بطريقة قياسية مطردة ، لم يعد هناك حاجة إلى النص على كل هذا في صلب المعجم . أما ما يجري على غير المؤلف من جموع أو مشتقات فتلك هي التي يعنى بها بعض مؤلفي المعاجم ويرى من الضروري النص عليها .

وقد أدرك هذه الحقيقة العلمية معظم أصحاب المعاجم العربية القديمة ، فزاهم في غالب الأحيان لا ينصون إلا على الصيغ الغريبة غير الجارية على القياس والاطراد في ظواهر اللغة .

فليس من الضروري أن ينص صاحب المعجم العربي على أن جمع « سيف » « سيوف » لأن هذا هو المطرد القياسي ، ولكنه قد يرى من الضروري أن يشير إلى أنه جمع أيضاً على (أسيات) . وليس من الضروري أن ينص على

أن مضارع الفعل « نكح » هو « ينكح » بفتح الكاف ، ولكنه قد ينص على سماع هذا المضارع بكسر الكاف أيضا .

ومن الحق أن يقال هنا إن معاجمنا العربية القديمة لم تلتزم هذا الطريق السوي و عرض مفرداتها ، بل جمع بعضها بين المطلق القياسي والشاذ السماعي في كثير من الأحيان . ولعلّ تشعب القواعد العربية واختلاف وجهات النظر فيها ، بل واضطرابها في بعض الأحيان ، كل هذا جعل مهمة واضع المعجم العربي عسيرة .

ولكن المعاجم قديما وحديثها تتخذ من الدلالة الاجتماعية للكلمات هدفاً أساسياً . ونكاد توجه إليها كل عنايتها . فلا غرابة إذن ألا يفرق بعض اللغويين بين الدلالة المعجمية والدلالة الاجتماعية ، وهذا هو ما ارتضيناه هنا أو قلنا به فكلمنا ذكرنا الدلالة المعجمية لا نمنى بها سوى الدلالة الاجتماعية .

تلك هي الدلالات المتعددة التي يمكن أن تستفاد من النص المنطوق به ، أما تلك الدلالات الأخرى التي تستمد من الظروف والملابسات أو ما يسمى أحيانا بسياق الكلام ، فمتشعبة معتقدة . ولعل من المفيد هنا لبيان قدر هذا السياق من التشعب والتعقيد أن نسوق حدثاً لنورياً صغيراً نفترض أن يتم بين شخصين متكلم و سامع ، محاولين وصف تلك الظروف والملابسات في كل خطوة من خطوات هذا الحدث اللغوي ، حتى يتم فهمه ، ويتحقق الهدف منه .

بها - ٣ -

كيف يتم الفهم ؟

تصور معي رحلاً يسير في أحد شوارع المدينة مع صبي صغير ، ثم تصور أن يمر الرجل والصبي بمطعم يعرض بعضاً من أصناف الطعام الشهى ، وتنبعث

منه رائحة مشبهة لبعض الشواء ، فيسترعى كل هذا انتباه ذلك العصبى ، ويسبل له لسانه ، ويحس بالجوع ، فينطق بمجموعة من الأصوات اللغوية ، ويقول للرجل جملة مثل (هات شطيرة من هذا الشواء) . وهنا ترى الرجل يتقدم نحو ذلك المطعم ، ويخرج بعضاً من النقود ، ويشتري تلك الشطيرة ، ويناولها للصبي فيلتهما التهاماً مسروراً مغتبطاً .

في هذا الحدث الصغير على بساطته تمت عمليات كثيرة بعضها عضوى وبعضها نفسى قبل أن يتحقق على صورة من الصور . وأولى تلك العمليات أن شعاعاً من الضوء قد انعكس على عيني الصبي من ذلك الطعام المعروف ، ففسره الصبي بأن أمامه طعاماً شهيياً ، وقد صح هذا الضوء المنعكس رائحة تعود الصبي أن يشمها مع كل طعام يشهيه ، وتصادف في نفس الوقت أن كان الصبي يحس بإفراز في فمه هو الذى نسميه بالاماب ، وإفراز في معدته في شكل عصارة تواد الإحساس بألم الجوع . وكل عمالية من تلك العمليات تتطلب من المتخصص دراسة طويلة وبحوثاً مستفيضة ، فطبيب العيون يفسر لنا في مجلدات ضخمة كيف تنعكس أشعة الأشياء المرئية على العيون وكيف تتم الرؤية ، وطبيب الأنف يوضح لنا كيف يكون الشم وكيف يرتبط بالتجارب السابقة لكل منا . مما قد يستنفد في بحثه زمناً طويلاً ، وجهداً عقلياً كبيراً . وطبيب ثالث يفسر لنا كيف يتم إفراز اللعاب ، ويوضح لنا كنه العصارة المدية ، وما تتركب منه ، وأثرها في شعور الإنسان ، ويتطلب كل هذا بحوثاً علمية يتوفر عليها نخبة من دوى العقول الجبارة في مجال من البحث يشترك فيه الطبيب والكيميائى والصيدلى وغيرهم .

ونتم كل هذه العمليات المعقدة لدى الصبي في سرعة لا تكاد تتجاوز بصع ثوان ، بعدها ينطق الصبي بتلك الأصوات اللغوية . فهى الشرط الأول الذى لا بد أن يتحقق حتى يمكن أن يكون هناك مثل ذلك النطق

أما عملية النطق فيشترك فيها هواء الرئتين ، ويشترك فيها الحنجرة والسان والشفتان ، وتم بعد عدة أشكال وأوضاع للسان في الفم ، وعدة أشكال وأوضاع للشفتين . بعدها يصدر الهواء إلى الخارج ، ويلتقل في شكل موجات مهيمنة إلى أذن السامع . فتحدث في طباتها أثراً خاصاً هو الذي تحمله أعصاب الأذن إلى المخ فيفسرها أو يفهمها

وعملية النطق والفهم يعني بها المفرد وعالم النفس ، ويعبرفان في معناها وتحليلها جهوداً علمية لا تقل عسراً عن الجهود التي يقوم بها من سبقوهم في بحث العمليات التي تمهد لهذا النطق .

أما ما يتم بعد النطق والفهم فكأن بسارع الرجل إلى تلبية رغبة هذا الصبي ، ويخرج نقوده ، ويلتظر دوره في الشراء ، ويتحمل اوقوف والانتظار إلى أن يعده صاحب المطعم ما يشتهي . وعملية الشراء ودفع تلك العملة الرمزية نظير شيء مرغوب فيه ، يستعين به المرء على دفع ضرر محقق هو الجوع وما قد يترتب عليه . هذه العملية الشرائية يبحثها رجل الاقتصاد في علمه الذي ينظم المعاملات بين الناس .

بهذا نرى أن الحدث الصغير من أحداث الحياة يتطلب عمليات كثيرة معقدة ، بعضها يسبق النطق ويمهد له ، ثم عملية النطق نفسها التي بعدها تم عمليات أخرى . وكل هذه العمليات ضرورية لصحة الفهم والتفاهم . ولا يتم هذا الفهم أو التفاهم إذا نقصت تلك العمليات عنصراً من عناصرها .

ولسنا نزعم أن الظروف التي أحاطت بالصبي في مثلنا السابق تؤدي حتماً وفي كل مرة إلى نفس العبارة التي نطق بها الصبي . فقد يرى الطعام ويشم الشواء ويحس بالجوع ، ومع هذا ينطق بعبارة أخرى أو لا ينطق ، إذ يتوقف هذا على صلة الصبي بالرجل ، وتجاربه معه ، فقد يكون الرجل والداً لهذا الصبي بدله

ويبني كل طلباته ^{له} وقد يكون العصبى حجولا هلا يتكلم ، وقد تكون تجاربه السابقة مع هذا الوالد لا تشجعه على النطق كذلك ليس من الضروري أن يسارع الرجل إلى تلبية طاب العصبى ، فقد يكون خلى الواض لا يملك من المال ما يسمع بمثل هذا الشراء ، أو قد يفتر من أن يرج بنفسه في وسط الشارين المتزاحمين على الطعام ، فيدبرف العصبى في رفق أو عنف ، إلى غير ذلك من الظروف والأحوال واللازمات التي لا تكاد تحصى عندما يحمل مثل ذلك الحادث الصغير البسيط .

وبعنى القوي عادة بالتهرف على الدور الذى تقوم به العبارة المنطوقة ، أو تلك الأصوات اللغوية التي تصدر من الفم وتنفقها الأذن . ويتضح هذا الدور حين تصور أن العصبى كان وحده . وأحطت به من الظروف من رؤية الطعام والإحساس بالجوع ، هنا ترادف يتدفع و صحت نحو الضم وبشئى منه ، أو بحذف وخففة من الشاثر . ومثله حينئذ مثل الحيوان الأعجم حين يرى الطعام أو يشمه يتدفع نحوه . و شئى غررى يحصل منه على ما يبدد رفق ، ويمنع عنه ضرراً محققاً هو نتائج الجوع من مرض أو هزال . وقد ينجح في عمله يحصل على الطعام وقد يفشل فيحصل جائعاً . فالإنسان الصامت يشبه الحيوان الأعجم إلى حد كبير .

أما الإنسان الناطق فهو في ظروف مادية أكثر توفيقاً وأقرب إلى تحقيق أهدافه ، إذ يستعين بأخيه لإنسان ، ويتعاون معه على الوصول إلى ما يشتهى بوساطة تلك الوسيلة التي تدعوها اللغة ، والتي تنظم كل العلاقات بين أفراد مجتمع من المجتمعات . فاللغة أداة لتيسير مطالب الحياة ، فهي توفر على الناطق مجهوداً عضوياً كبيراً كان عليه أن يبذله لو أنه ماش وحده ، ولم يتعاون مع مجتمع إنسانى ، يقوم كل فرد فيه بنصيب في تيسير سبل الحياة ومطالبها ، حتى يتكون

من تلك الجهود مجتمعة نظام اجتماعي دقيق محكم . ومن هنا نرى الدور الذي تقوم به اللغة في حياة المجتمع الإنساني ، وتنظيم الصلة بين أفراده .

ويستعين اللغوي الحديث بعلم وظائف الأعضاء ، وعلم التشريح وعلم الطبيعة لتفسير تلك الأصوات التي تصدر من الفم ، وتطلقها الأذان . فالصبي الذي نطق بقوله « هات شطيرة من هذا الشواء » قد حرك الوترين الصوتيين في حنجرتة حركات أو ذبذبات منتظمة ذات عدد خاص ، ثم جعل للسان أوضاعاً عدة ، وللشفنتين أشكالاً متباينة ، مما جعل هواء الرئتين يحدث موجات صوتية تحرك الهواء الخارجي ، وتنتقل إلى أذن السامع فيفسرها أو يفهمها ، ويتصرف تبعاً لها ، كما لو أنه يمرّ بنفس التجارب التي يمر بها الصبي ، أو كما لو أنه تحيط به نفس الظروف التي تحيط بهذا الصبي من رؤية الطعام واشتهائه والإحساس بالجوع .

والناس في مجتمع من المجتمعات لا يكادون يعنون بتلك الأصوات اللغوية إلا بقدر ما تحقّقه لهم من أغراض دنيوية ، فهمي لهم بمثابة الوسيلة لا الغاية . فالصبي يهنيه أولاً الشطيرة نفسها لأنها هي التي تسدّ رمقه ، ولا يكاد يعنى بتلك الأصوات التي تتكوّن من الشين والطاء والياء والراء والتاء .

ورغم أن بعض أنواع الحيوان قد تستجيب لبعض الأصوات على النحو الذي وصفناه آنفاً ، نرى أن أصوات الحيوان محدودة قابلة يمكن حصرها بسهولة . فلهرة مثلاً لا تكاد تستخدم في كل مطالبها وحاجياتها أكثر من ثلاثة أو أربعة أصوات يستطيع دارس الحيوان أن يتعرف عليها بسهولة وأن يميز بينها .

أما الإنسان فكلامه كثير التنوع متعدد الألوان ، ولا تكاد تحصى أصواته أو ألفاظه ، وهو يتخذ لكل منها دلالة معينة محقق له غرضاً من أغراض الحياة ، تلك الأغراض التي لا تحصى ، والتي لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة نفسها . ويقوسل الإنسان بكلامه إلى التفاهم بين أفراد مجتمعه ، كما قد يستعين به في التأمل والتفكير ،

ولا غرابة حينئذ أن يقال إن الإنسان يفكر في كلمات شبه مطبوقة ، وإنه لا تفكير
بغير تلك الكلمات والألفاظ (١) .

ومن العسير أن نتصور إنساناً يفتشاً وحده في جزيرة نائية ثم يفكر ويتأمل
ويصل وحده إلى الاهتداء إلى الإله ، كشخصية حتى بن يقظان التي وصفها ابن طفيل
وغيره من الفلاسفة ، أو كشخصية روبنسن كروزو المشهورة في آداب الغربيين .
أما الصلة بين تلك الأصوات وما تثيره في الأذهان من أثر أو ما يلعبها من
تصرفات ، فأمر كان ولا يزال موضع بحث العلماء والمفكرين . وسنرى فيما بعد
أن فلاسفة اليونان قد اختلفوا بصدده هذه الصلة ، فكان سقراط وأفلاطون
يمن يرون أن الصلة بين الأصوات والدلالات طبيعية حتمية ، في حين أن أرسطو
كان يراها صلة عرفية لا تعدو أن تكون بمثابة رمز اصطناع الناس على وضعه
للمداول . ومثله حينئذ كمثل كل الرموز العرفية كالإشارة باليد أو إشارات التلفراف
أو الشفرة ، أو الأعلام المتعددة الألوان والأشكال في السفن ، أو الأضواء من
أحمر وأخضر وأصفر حين يصطنعها الناس لتنظيم شئون الحياة .

وسواء كانت هذه الصلة طبيعية أو عرفية ، فالذي لا يزال يحير المفكرين
هو كيف تثير هذه الأصوات تلك الدلالات في الأذهان ، ولم لا تثير في كل مرة
نفس الدلالات ، أو تؤدي إلى نفس التصرفات ؟ وهنا يتدخل علم النفس ويرجع
هذا إلى الحالة النفسية للمتكلم والسامع ، وهي من التعقيد والغموض بحيث
يصعب الوقوف على نظامها ، ويتعسر إخضاعها للتجربة أو الملاحظة .

وعلماء اللغة صنفان من الناس (٢) :

الروحانيون : وهؤلاء يرون أن لكل منا نفساً أو عقلاً . وعمله الجسم

(1) Language in Society by M.M.Lewis. p. 235.

(2) Story of language. p 138. Language by Bloomfield p.142

ولكنه يختلف عن تلك المادة المدروسة المدروسة في كنهه ، وبعث إلى عالم آخر غير عالم المادة المألوفة لنا ، عالم روحى أو روحانى غير خاضع للملاحظة أو التجربة بالحواس كما تخضع ظواهر الطبيعة الأخرى . فقد يسهل التعرف على كل تفاعل كيميائى ، أو ملاحظة النار وأثرها فى الأشياء القابلة للاحتراق ، وقد يسهل تتبع النمو فى النبات والحيوان ، وسقوط الأمطار ، ونصف الرعد ، وضوء البرق ، وتقل الأصوات ، وغير ذلك من ظواهر الطبيعة التى أخضعها الإنسان للملاحظة والتجربة ، واستطاع تحليلها وتفسيرها ، وجعل لها أسبابا ومسببات ، وانتهى فى شأنها بالكشف عن نظمها ، وأصبح معها يقنناً بالنتائج من المقدمات ، ويصل إلى كليات لا تقبل الخلاف أو النزاع ، فكل ماء يطفى النار ، وكل نار تحرق ، وفى كل يوم تشرق الشمس من الشرق وتغرب فى الغرب ، وفى كل شهر يتناقص الهلال ويكتمل ، وكل ماء يتبخر بالحرارة ويتجمد بالبرودة ، إلى غير ذلك من النظام المادى الذى استطاع الإنسان أن يفسره ويحدده فى غالب الأحيان .

ولاشك أن للنفس نظاماً آخر ، ولكنه غير خاضع للتجربة والملاحظة بواسطة الحواس ، ولا شك أن كل مقدمات فى هذا النظام النفسى تؤدي حتماً إلى نتائج معينة ، فليست تسير النفوس على غير هدى ، أو دون نظام ، وإن كنا لانزال نجمله ، ولا نقف على أمراره .

فلو أننا نعرف تفاصيل هذا النظام النفسى لأمكن التنبؤ بنتيجة الكلام فى كل مرة يتم فيها الفطى بتلك الأصوات اللغوية .

أما الماديون من أصحاب علم النفس فيرون أن الجسم الإنسانى جهاز شديد التعقيد ، فيه الأعصاب بمثابة الأسلاك التى تكون شبكة معقدة غاية التعقيد ، ومعكمة أدق الأحكام ، وأجزاءه متشابكة ، ونواحيه متداخلة ، ويتأثر الجهاز كله بأقل خلل فى أى عضو ، بل فى أى شعيرة من شعيرات الخرايين .

ولو تصورنا أعقد جهاز ميكانيكى وصل إليه العقل الإنسانى من تلك الأجهزة التى لا تكاد نحصى أجزاؤها ، والتى تستنفد فى تركيبها الشهور أو السنين وقسناه بالجهاز الإنسانى لبدا لنا كمدوق أجوف فيه عدة من الأسلاك تعسل جنباته ، ولبدا الجسم الإنسانى كجهاز للإرسال والاستقبال فى الإذاعة ، وقد شحفت جوانبه وأنحاؤه بآلاف من الأسلاك المعقدة المتشابكة ، وآلاف القطع والأجزاء التى لكل منها وظيفة معينة فى ذلك الجهاز الضخم .

ومن طريف ما يذكر عن الجسم الإنسانى تلك الإحصائية التى قام بها الدكتور « ستيرنز » العالم الأمريكى ، والتى جاء فيها أن مجموع طول الأوعية الدموية الموجودة فى الجسم يبلغ ١٦٠ ألف كيلومتر ، وأن فى الخ البشرى ١٢ مليون خلية ، وفى الرئتين ٣٠٠ مليون خلية هوائية ، ويستبدل الجسم عشرة ملايين كرة حمراء من الدم فى كل ثانية .

وبتأثر الجهاز الإنسانى بأقل أنواع التأثير ، ومثله فى هذا مثل الآلة المعقدة حين ينفى عود من الثقب لإدارتها أو تحريكها .

وقد عرف الإنسان حتى الآن عن ذلك الجهاز الجسمانى القليل ، أو أقل من القليل ، ولا يزال يحفل الكثير ، بل لا يزال سره مغلوقاً عليه ، ونظامه غامضاً مجهولاً جهلاً تاماً .

من أجل هذا يعتمد أصحاب علم النفس إلى نوع من التجربة الخارجية حين شق عليهم ملاحظة ما يجرى فى داخل الجهاز الإنسانى ، وقنعوا بملاحظة الآثار التى تترتب على تلك العمليات الداخلية ، لهمم يهتدون إلى شىء من أسراره وخفاياه فهم يضعون عدة أفراد فى ظروف معينة ، ثم يلاحظون استجاباتهم لأثر خارجى معين ، ومن تلك التجارب والملاحظات الخارجية يحاولون تكوين رأى خاص .

ومن طرفهم مساواة المرء موضع التجربة ، وطلبهم منه أن يصف ما يشعر به ، أو يتم داخل جسمه من عمليات على إثر دافع من المواقف الخارجية ، ولكنهم في كثير من الحالات يضلون الطريق السوي . وذلك لأن المرء يصعب عليه وصف ما به وصفاً دقيقاً ، ويشق عليه أن يتبين مكان الأثر الداخلي أو كنهه . ومثله مثل المريض حين يشير للطبيب على مكان الداء من جسمه ، ثم يكتشف الطبيب أن الداء في موضع آخر .

هذا إلى أن المستول قد لا يجد من اللغة الإنسانية ، ما يكفي لوصف ما يحس به في داخل جسمه وصفاً دقيقاً ، فيتخبط في وصفه ، ويضال السائل .

ومن الأطباء من حاولوا الربط بين عملية النطق وعماية الفهم بملاحظة بعض الأمراض أو الإصابات التي تعترض المخ الإنساني . وتمت لهم على إثر الحروب حالات كثيرة من المصابين في أجزاء المخ ونواحيه . ومن هؤلاء المصابين من فقد القدرة على النطق ، وبقيت له القدرة على الفهم ، ومنهم من فقد كل ما حفظه من ألفاظ لغته طول حياته من قبل ، ومنهم من يتلعثم في نطقه ، أو يفأء أو يتأء في كلامه ، ومنهم من يفهم الألفاظ ولكنه لا يرتبها الترتيب المألوف حين يتكلم إلى غير ذلك من حالات كثيرة حاولوا عن طريقها أن يبينوا لنا اختصاص كل منطقة من مناطق المخ الإنساني بعملية معينة من عمليات الفهم والإفهام . ولكنهم مع هذا أو رغم ما بذلوه في هذا من تجارب ومشاهدات لم يصلوا إلى رأى قاطع في بحث الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها ، أو ما تثيره في الأذهان من عمليات تسميها الفهم مرة ، والتفكير مرة أخرى .

وإذا كنا قد أخفقنا حتى الآن في دراسة هذه الظاهرة في الفرد الإنساني فمن الخير أن ندرسها في الجماعات ، وذلك بأن يعرض الأثر اللغوي على أكبر مجموعة من الناس ثم نلاحظ تصرفهم إزاء هذا ، مستعينين بعلم الإحصاء للوصول

إلى أرقى مرتبة من الاحتمال . ويكفي حينئذ أن يقال إن الناس في مجموعهم يتصرفون تصرفاً معيناً حين يسمعون جملة معينة دون أن نخصص فرداً معيناً منهم يمثل هذا الحكم . وتكون دراستنا حينئذ كدراسة كثير من الظواهر الاجتماعية الأخرى حين نحكم على عدد الزيجات والطلاق والولادة والموت في شعب من الشعوب ، دون التعرض لشخص بالذات ، أي أننا لا ندرى أو لا نحاول أن ندينا ما إذا كان فلان بالذات سيتزوج أو يطلق أو يولد أو يموت .

ومن حسن الحظ أن دراسة اللغة في المجتمع لا تتطلب أحياناً الكثير من الإحصاء أو الاستقصاء ، بل يكفي في بعض الأحيان الحكم على البيئة اللغوية وتصرفاتها إذا حدث لغوي من ملاحظة هذا في فرد واحد أو عدة أفراد .

فدروس اللغة العربية مثلاً حين يسمع أحد المصريين ينطق بعبارة مثل « صباح الخير » . ويرى أن السامع يستجيب إلى مثل هذه العبارة ، ويقول « أهلاً وسهلاً » فله أن يحكم حكماً عاماً على هذه البيئة اللغوية . مقررأ أن أمرادها في مجموعهم يستجيبون لمثل هذه العبارة هذه الاستجابة ، ويردون عليها بنفس الرد .

وليس هذا الحكم بمناع من أن بعض المصريين قد يجيب إجابة أخرى أو لا يجيب . فأفراد البيئة اللغوية يخضعون في مجموعهم لنظام عام مطرد بالضرورة ، ويشيع بينهم ؛ وكما عرض لهم حدث من الأحداث اللغوية يتصرفون على حسب هذا النظام فاللغوي يحكم عليهم كجموعة لا كأفراد ، أي لا يختص فلانا بالذات بذلك الحكم ، فلا يقول مثلاً عن فلان هذا إنه حين يحويه أحد الناس غداً أو بعد غد فمن المؤكد أن استجابته ستكون على نحو معين . ولا يكاد يعنى اللغوي بتلك الظروف الخاصة ، أو الحالة النفسية الخاصة التي قد تدفع متكلماً معيناً إلى النطق بغير المؤلف من الكلام ، بل يوجهه عنانيته إلى

فلك النظام العام الذي ينتظم كل الأفراد ، والذي جرت به العادة في بيثة افوية معينة . هب مثلا أن شخصا معينا في البيثة المصرية تعود لسبب ما أن ينطق بالتاء كالنطق الإنجليزي (أى بالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا) ، أو أن في نطه صفة الفأفة أو التافاة أو اللثة ، هنا لا يصح أن تتخذ هذه الحالة الخاصة مقياسا للحكم على سائر المصريين . أو هب مثلا أن شخصا آخر تعود أن يحيي الناس بالتحية الأجنبية « بنجور » لا يصح كذلك أن يعد هذا دليلا على أن التحية في البيثة المصرية تسلك هذا المسلك .

ولذا حين نسمع زاراً ابداً من البلدان يحكم على لفته حكماً ما بمد فترة قصيرة ، لا نسميه حينئذ متعجلاً أو متسرفاً في حكمه ، بل نقبله على أنه الحكم العام الذي ينطبق على الجموع لا على الأفراد كلا منهم على حدة . فالزار لمصر لا يابث بعد زمن قابل أن يدرك أن المصريين بوجه عام حين يطلب منهم شيء ، ويعبرون عن استعدادهم لإجابة هذا الطلب بقولون « حاضر » ، ولكن هذا الزار قد يحتاج إلى زمن أطول ، وتجارب أكثر حتى يمر على أحد المصريين الذين يبدو نفس الاستعداد قائلين « ماشى » !!

ولذا نرى على الامويين القداماء ميسلكهم حين خلطوا بين الصفات الخاصة والصفات العامة للغة ، فبينما زام يحكمون حكماً عاماً على لغة العرب ، زام في بعض الأحيان يفحمون في حكمهم تلك التجارب الخاصة فيقول أحدهم مثلاً سمعت أعرابياً يقول كذا ، أو سمعت امرأة من عنى تقول كذا ، متخذين من تلك الصفات الخاصة وحوها من القول أو رخصة يضمنوها جنباً إلى جنب مع الوجهة العادية أو المسلك العام الذي ينتظم كل البيثة العربية .

الفصل الثالث

الصلة بين اللفظ والدلالة

- ١ -

نظرة فلاسفة اليونان

استرعت اللغة نظر المفكرين من اليونان القدماء ، فراحوا ينسأهون عن أسرارها ، ويمجّبون تلك المجموعات الصوتية التي ينطق بها المرء تتمرله عما يدور في خلده ، وتحقق له غرضاً دنيوياً نافعاً ، بل وتصله بيني جنسه صلة وثيقة تحمل منهم مجتمعاً إنسانياً متماوذاً متفاهماً ، وتميزهم من سائر المخلوقات الأخرى .

وكان أوضح ما استرعى انتباههم فنسأهوا عنه تلك المشككة التقليدية و الربط بين اللفظ ومدلوله ، وهل تلك الصلة طبيعية كالتي بين الأسباب الكونية وما يتسبب عنها . هل هي كالصلة بين النار والاحتراق ، والخشب والنماء ، وكذلك تلك القوانين الكونية من منهطيسية أو كثافة أو ضوء وما يترتب عليهم من استقرار الأشياء فوق سطح الأرض ، ومن عومها أو غرقها في الماء ، ومن الرؤية والإبصار إلخ .

وبدا من سحر الألفاظ في أذهان بعضهم ، وسبطرتها على تفكيرهم ، أن ربط بينها وبين مدلولاتها ربطاً وثيقاً ، وجعلها سبباً طبيعياً للفهم والإدراك ، فلا تؤدي الدلالة إلا به ، ولا تخاطر الصورة في الذهن إلا حين النطق بلفظ من . ومن أجل هذا أطلق هؤلاء المفكرون على الصلة بين اللفظ ومدلوله ، الصلة الطبيعية ، أو الصلة الذاتية .

ونلاحظ هذا الاتجاه من التفكير فيما يرويه أفلاطون في محاوراته عن استقافه سقراط الذي كان فيما يبدو يعيل إلى هذا الرأي . ولما تبين لهم غموض هذه الصلة بين الألفاظ لتفهم اليونانية ومدلولاتها ، ولم يستطيعوا لها تعليلاً مقبولاً تستريح إليه النفس وتطمئن إليه العقول ، أخذوا يفترضون أن تلك الصلة الطبيعية كانت واضحة سهلة التفسير في بدء نشأتها ، ثم تطورت الألفاظ ، ولم يمد من اليسير أن نلتصق بوضوح تلك الصلة ، أو نجد لها تعليلاً وتفسيراً^(١) !!

وأخذ سقراط في محاوراته يعنى النفس بتلك اللغة المثالية التي تربط بين الألفاظ ومدلولاتها ربطاً طبيعياً ذاتياً كذلك الألفاظ المشتقة من أصوات الطبيعة من حفيف وخرير وزفير .

وكان بجانب هؤلاء المفكرين طائفة أخرى من فلاسفة اليونان يرون أن الصلة بين اللفظ والدلالة لا نمدو أن تكون اصطلاحية عرفية تواضع عليها الناس . وتزعم هذا الفريق فيما بعد « أرسطو » الذي أوضح آراءه عن اللغة وظواهرها في مقالات تحت عنوان الشعر والخطابة ، وبين فيها عرفية الصلة بين اللفظ ومعناه .

وظلت كلمتا « الطبيعية أو العرفية » محور الجدل والنقاش زمناً طويلاً بين مفكري اليونان من لغويين وفلاسفة . وكان كل من الفريقين يؤسس رأيه على مجرد المناصرة الفكرية دون سند علمي من ملاحظة دقيقة أو استقراء للحقائق . ولكنهم جميعاً كما يصفهم « ستيفرات شاس » Stewart Chase في كتابه طينان الكلمات بقوله « إنهم مناطقة أقوياء يفسد نظراؤهم في العالم إلا أنهم لم يزالوا على مقربة من المقدمات البدائية ، فلم تتخلص عقولهم من سحر الكلمة ، وحسبوا أنها ذات قوى كامنة فيها كما قد يحسب الطفل أو معتقد الشيعة ، ولولا

(1) Miraculous birth of language, p. 162.

ذلك لما أقاموا كل شيء على « اللوغوس » وشغلوا العقول والنفس بهذه الفكرة إلى اليوم^(١) .

علماء العرب

وورث علماء العرب عن اليونان هذا النوع من التفكير ، فسطروا إلى فريقين أيضاً : أولئك الذين كانوا ينتصرون لفكرة الطبيعية الذاتية ، وأشهر من عرف عنهم هذا الرأي من مفكرى العرب « عباد بن سليمان الصيمرى » أحد المعتزلة ، ويروى أنه كان يقول « إن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة لا واضع على أن يضع ، وإلا كان تخصيص الأسماء المعين بالمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح » . وكان بعض من يرى رأيه يقول « إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، مثل ما مسمى « إدغاع » ، وهو بالفارسية الحجر ، فقال أجد فيه يمساً شديداً وأراه الحجر^(٢) » .

ومع أن معظم اللغويين من العرب لا يأخذون بهذا الرأي ، ترى كثيراً منهم يربطون في مؤلفاتهم بين الألفاظ ومدلولاتها ربطاً وثيقاً يسكاد يشبه الصلة الطبيعية أو الذاتية . ولعل السرى هذا الاتجاه هو اعتزازهم بتلك الألفاظ العربية وإعجابهم بها ، وحرصهم على الكشف عن أسرارها وخبائرها .

فابن جنى في كتابه الخصائص يعقد فصولا أربعة في نحو ستين صفحة من كتابه ، ويحاول في تلك الفصول أن يكشف لنا عن شيء من تلك الصلة الخفية بين الألفاظ ودلالاتها :-

(١) ترجمة الاستاذ عباس المقاد في بحثه الذى ألفاه بتأثير مجمع اللغة العربية

سنة ١٩٥٠ .

(٢) الزهر للبيوطى صفحة ٢٧ .

١ - في فصل عنوانه « في تلاقى المعاني على اختلاف الأصول والبناني » (١)
يربط ابن جنى بين كلمتي المسك والصورار (٢) ، فيقول إن كلا منها يجذب حاسة
من بشمه ، أي أن المسك في رأيه إنعاسي كذلك لأنه يمسك بحاسة الشم ويجذبها .
ويتخذ ابن جنى دليلا على قوله من كلمة المسك بالفتح ومعناها الجلد ، لأن الجلد
يمسك ما تمسحه من جسم !!

٢ - وفي الفصل الثاني (٣) يتحدث ابن جنى عما لحق بالاشتقاق الأكبر الذي
فسره لنا بأن الكلمة معها قلبتها تشتمل على معنى عام مشترك ، ويضرب
لنا مثلا بمادة « جبر » فيقول [جبرت العظام والفقير إذا قويتها ، والجبروت
القوة ، والجبر الأخذ بالقهر والشدة ، ورجل مجرب إذا مارس الأمور فاشتدت
شكيمته ، ومنه الجراب لأنه يحفظ ما فيه والشيء إذا حفظ قوى واشتد .. الخ .

٣ - وفي فصل عنوانه « تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني » ، يعيد ابن جنى
الحديث عن الاشتقاق الأكبر ، ثم يزعم أن مجرد الاشتراك في بعض الحروف
يكفي أحيانا للاشتراك في الدلالة ، ويقارن بين الكلمتين « دمث » و « دَمَثَر »
فالأولى من دمث المكان كفرح سهل ولان ومنه دماتة الخلق أي سهولته .
والثانية معناها السهل من الأرض والجل الكبير اللحم ا ا
ومع اعتراف ابن جنى أن كلمة « دَمَثَر » رباعية الأصول ، يرى أن مجرد
الاشتراك في الحروف الثلاثة الأرى أدى إلى الاشتراك في الدلالة .

بل يغالى فيمقد المقارنة بين رباعي وخماسي فيقول إن كلمة « دروب » تشترك
مع كلمة « درديس » في المعنى . والدرديس كائنص العاجم هو الناهية ،
والشيخ والعجوز الفانية ، ولنا ندرى أي هذه المعاني يشترك مع ما تذكرة

(١) المصانص صفحة ٥٠٧ .

(٢) الفيروز يادى : الصور الرائحة الطيبة والقليل من المسك .

(٣) صفحة ٥٢٥ وأنظر أمرار الامة صفحة ٧٤ .

المعجم عن الكلمة الأخرى إذ تقول [وامرأة دروبٌ تذهب ونجبي بالليل ،
وفي المثل دروب لما عضته الثفان أي خضع وذل] ؟

ويرى ابن جنى أن هذه الظاهرة لا تقتصر على الحالات التي أتحدث فيها
الأصوات ، بل قد تظهر أيضاً حين تتقارب الأصوات في مخارجها أو صفاتها
فيقول ما نصه [وقالوا النذر كما قالوا الختل ، والمغنيان متقاربان واللفظان
متراسلان . . . فالذين أخت الخاء ، والدال أخت التاء ، والراء أخت اللام] !
[وقالوا أقل ، كما قالوا غير ، لأن أقل غاب ، والغابر غائب أيضاً . . . فالهجرة
أخت الغين والفاء أخت الباء واللام أخت الراء] !!

٤ - أما الفصل الرابع فم عنوانه [في إمساس الألفاظ أشباه المعاني] أي وضع
الألفاظ على صورة مناسبة لعناها ، وهنا يفترض لنا أن صيغة « الفعلان » تفيد
الاضطراب كالغليان والفوران ، وأن صيغة « الفعيلة » تفيد التكرير مثل صرصر
الجندب أي كرر في تصويته ، وأن صيغة « الفعلي » تفيد السرعة مثل « الجزى » .

كما يبحث هنا أيضاً في مناسبة الحروف في اللفظ لصوت الحدث ، مثل
الفعل « نضم » حين يقارن بالفعل « خضم » ترى أن الأول يستعمل في أكل
اليابس ، في حين أن الثاني يستعمل في أكل الرطب ، ويرى ابن جنى صلة وثيقة
بين القاف الشديدة والصوت الناشئ عن أكل اليابس ، كما يرى مناسبة واضحة
بين الخاء الرخوة والصوت الناشئ عن أكل الرطب .

وقد أغرم بعض اللغويين القدماء بتلمس هذا الربط بين اللفظ ومدلوله ،
فترام يقولون مثلاً إغماسمى الإنسان إنساناً لأنه مشتق من النسيان ، وكثيراً
ما يلبس الإنسان أو يلبغ بان دريد وعنايته بهذه الناحية الاشتقاقية أن وضع
كتاباً سماه الاشتقاق ، وحاول فيه تعليل الأعلام العربية كأسماء القبائل والأمكنة
في جزيرة العرب ، فيقول مثلاً إن « قضاة » سميت كذلك لأنها رحلت من

جنوب الجزيرة إلى شمالها فهي مشتقة من اتضع الرجل عن أهله أي بعد !!

ووضع ابن فارس معجماً سماه مقاييس اللغة طبع حديثاً في ستة أجزاء ، وجه فيه كل عنايته لاستنباط الصلات بين الألفاظ ودلالاتها ، على نحو ما عالجها به ابن جنى في فصوله الأربعة السابقة ، غير أن ابن فارس قد بلغ الذروة في معجمه ، فقال وأسرف في استنباطه ، وخلص من الصلات ما لا يخلص من التعمق والتكلف . فهو يسوق في معجمه الكلمات التي تشترك في أصول ثلاثة وبشرح معانيها مع ذكر تقابلات تلك الأصول . فيقول مثلاً إن « المم والراء والضاد ، مادة يمكن أن تنشأ منها صور متعددة [مرض ، رمض ، ضرم ، ضمير ، رضم ، ومضر] ، ثم يحاول تلمس الصلة المشتركة بين معاني كل هذه الصور ، مستنبطاً معنى عاماً لهذه المادة . وفي بعض الأحيان يسوق كلمات كثيرة لا تشترك إلا في حرفين ، ويحاول أيضاً أن يبين الصلة بين معانيها على أساس الاشتراك وهدين الحرفين

ويبدو أن هؤلاء الاشتغافيين قد اقتبسوا فكرة تقلابات الأصول من معجم العين وأمثاله ، فقد سلك صاحب العين وصاحب الجهرة وغيرها مسالكاً عجيبة في ترتيب الكلمات ، فكان كل منهم حين يعرض لشرح كلمة من الكلمات يذكر معها تقلاباتها ، ويذكر معنى كل صورة من صورها ، دون التعرض لربط بين دلالات تلك الصور . فهي طريقة إحصائية أو قسمة عقلية لجأ إليها أصحاب هذه المعاجم بغية حصر كل المستعمل من كلمات اللغة وخشية أن يندب بمصراعين أذهانهم . فلما جا أصحاب المدرسة الاشتغافية كابن جنى وابن فارس ربطوا أيضاً بين دلالات تلك الصور ، واستنبطوا معاني عامة مشتركة بينها فكلفهم هذا الصنيع من العنت والمشقة قدرأ كبيراً .

رأى المحدثين

يلخص « جبرسن^(١) » آراء المحدثين في الصلة بين الألفاظ والدلالات فيعرض أولاً لمقال « همبلت » الذي يزعم فيه أن اللغات بوجه عام تؤثر التعبير عن الأشياء بوساطة اللفاظ أثرها في الآذان يشبه أثر تلك الأشياء في الأذهان .

أى أن « همبلت » كان من أنصار المناسبة الطبيعية بين الألفاظ والدلالات . وقد عارضه في هذا الرأي « مدفيج » ، وساق له كثيراً من الكلمات التي لا تتضح فيها هذه الصلة ، غير أن « مدفيج » في رأى جبرسن كان متجنباً على « همبلت » ، لأنه لم يدع أن مثل هذه الظاهرة تطرد في كل كلمات اللغة ، ولأنه بين في ثنايا هذا الرأى أن الكلمات بدأت واضحة الصلة بين أصواتها ودلالاتها ، ثم تعاورت تلك الأصوات أو تلك الدلالات ، وأصبحت الصلة غامضة علينا .

ويبدو أن جبرسن ، كان ممن ينتصرون لأصحاب المناسبة بين الألفاظ ودلالاتها ، غير أنه حذرنا من المغالاة في هذا ، إذ يرى أن هذه الظاهرة لا تكاد تطرد في لغة من اللغات ، وأن بعض الكلمات تفقد هذه الصلة على مر الأيام ، في حين أن كلمات أخرى تكسبها وتصبح فيها واضحة بهمدان كانت لا تلحظ فيها .

ويسوق لنا جبرسن أمثلة لتلك الفواحي التي نلحظ فيها وثوق الصلة بين الألفاظ والدلالات منها :

(١ .) وأوضح تلك الفواحي ما يسمى Onomatopoeis وهي الألفاظ التي

(1) Language its nature, development & origin: Chapter. XX.

تعد بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة . وهذه ظاهرة واضحة في كل اللغات ، وهي تشبه ما عندنا في العربية من أمثال الخفيف ، والخريف ، والزفير والصفير والحزيم والعرواء والزئير إلى غير ذلك من كلمات استمدت ألفاظها من الأصوات الكونية وأصوات الحيوانات .

ب) يؤكد لنا « جبرسن » أن الألفاظ التي تعبر عن الصوت الطبيعي قد تنقل ، وتصبح معبرة عن مصدر هذا الصوت ، وذلك كأن يصبح الزئير اسماً من أسماء الأسد . ففي أوربا طائر يظهر في الربيع ويصبح « كوكو » ، وكان من الممكن أن تنفع هذه اللفظة بالتعبير عن صوت هذا الطائر ، ولكنها تستعمل الآن للطائر نفسه . كذلك قد تسمى حركات الإنسان بما ينبعث عنها من أصوات ، فصوت المشي قد يطلق على المشي نفسه .

فلمنع مثلاً كلمة بدأت فيما يبدو بمثابة صدى لوقع اليد على الوجه فهي حكاية صوت لتلك الحركة الإنسانية ، ثم أصبحت تعبر عن نفس الحركة .

ويبدو أن هذا النوع من الألفاظ يكثر في اللغات البدائية ، أو بين الأمم المتخلفة ، فقد لاحظ بعض الباحثين في لغات وسط أفريقيا أن الفعل الواحد قد يوصف بكثير من الألفاظ المعبرة عن حالاته المتعددة . فمثلاً في لغة « اليوربا » نرى أن الفعل « يمشي » هو Zo ، فإذا شاء أحد أبناء هذه اللغة التعبير عن المشي منتصب القامة استعمل بعد الفعل Zo لفظاً يعبر عن هذه الهيئة أو يوحى بها ، وإذا أراد التعبير عن المشي بنشاط وحماس استعمل لفظاً آخر . وقد جمع أحد اللغويين نحو ثلاثة وثلاثين لفظاً مختلفاً لتحذ لوصف الحالات المتعددة لعمالية المشي أو الفعل Zo وحده . ومن تلك الحالات (١) :

Zo Ka Ka

١ - يمشي منتصب القامة

Zo dze dze

٢ - يمشي بنشاط وحماس

1) Language Families of Africa, p. 47

- ٣ - يمشى بسرعة Zo tya tya
٤ - يمشى متثاقلاً لضخامة جسمه Zo boho boho
٥ - مشية الرجل المتزن الطويل القامة Zo tyo tyo
٦ - مشية المرأة في هدوء وثقل Zo wudo wudo

(ح) كذلك فقد ترتبط الألفاظ بالدلالات في بعض الحالات النفسية كالـكلمات التي تعبر عن الغضب أو الغمور والسكره . كما قد ترتبط بحجم الأشياء أو أبعادها ، فقد لوحظ أن « الكسرة » وما يتفرع عنها من « ياء المد » رمز في كثير من اللغات إلى صغر الحجم أو قرب المسافة . ففي العربية مثلاً نجد أن « الياء » هي علامة التصغير ، وأن الكسرة علامة التأنيث (١)

(د) كذلك يشير « جبرسن » إلى ما عرف عند علماء العربية من أن زيادة البني تدل على زيادة المعنى ، فحين نقارن بين « صر الجندب » و « صرصر الجندب » نرى أن صيغة « صرصر » تفيد تكرير الصوت ، وحين نقارن بين « كسر » و « كسر » نرى أن التضعيف في الصيغة الثانية قد زاد في دلالاتها .

ويختتم « جبرسن » هذا الفصل الذي يدعو « رمزية الألفاظ » بقوله :
إن كلمات اللغات تزداد مع الأيام إيجاء للدلالات ، وتكتسب الألفاظ بمرور الزمن قدراً أكبر من تلك الرمزية . ويتنبأ من أجل هذا بقلك النبوءة المتفائلة التي كان يحلم بها فلاسفة اليونان من أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه الصلة بين الألفاظ ودلالاتها أكثر وضوحاً وأوثق ربطاً مما عرف أجدادنا القدماء .

ويعد دي سوسير de Saussure من أشهر المعارضين لأصحاب الصلة بين الألفاظ والدلالات ، إذ يراها اعتباطية لا تخضع لمنطق أو نظام مطرد . ومع

(١) أنظر الأبحاث العربية صفحة ٨١ .

اعتراه بتلك الصلة في الألفاظ التي تعد بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة والتي تسمى *onomatopneia* يقرر أنها من القلة في اللغات ، ومن الاختلاف والتباين باختلاف اللغات الإنسانية ، بحيث لا يصح أن نتخذ منها أساساً لظاهرة لغوية مطردة أو شبيهة بالمطردة . هي إذن في رأيه مجرد ألفاظ قليلة تصادف أن أشبهت أصواتها دلالاتها .

والأمر الذي لم يبد واضحاً في علاج كل هؤلاء الباحثين هو وجوب التفرقة بين الصلة الطبيعية الذاتية والصلة المسكونية . ففي كثير من الألفاظ كل لغة نلاحظ تلك الصلة بينها وبين دلالاتها ، ولكن هذه الصلة لم تنشأ مع تلك الألفاظ أو تولد بمولدها ، وإنما اكتسبتها اكتساباً بمرور الأيام وكثرة التداول والاستعمال .

وهي في بعض الألفاظ أوضح منها في البعض الآخر ، ومرجع هذا إلى الظروف الخاصة التي تحيط بكل كلمة في تاريخها ، وإلى الحالات النفسية التباينة التي تعرض المتكلمين والسامعين في أثناء استعمال الكلمات . فإذا تصادف أن عنى أحد المتكلمين بأصوات لفظ من الألفاظ ، واسترعى انتباهه أكثر من غيره ، لا يلبث أن يعقد الصلة الوثيقة بينه وبين دلالاته ، ويتصور نوعاً من المناسبة بين تلك الأصوات وما تدل عليه ، ويحاول نقل شعوره إلى غيره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . فإذا تصادف أيضاً أن أحس فريق من الناس بنفس الإحساس ، بدأت عملية ذهنية أخرى هي الربط بين هذه الأصوات وأشباهاها في الكلمات الأخرى ، لأن ذهن الإنسان يميل إلى التجميع والتعميم . وتلتقي تلك العملية بعملية نفسية أخرى هي التي تسمى بفتاعلي المعاني ، أي أن المعنى حين يخطر في ذهن يدعو ما يشبهه أو يقاربه . وهنا قد يخطر في ذهن فكرة الربط بين مجموعة من الألفاظ المتشابهة المتقاربة ، بمجموعة من المعاني المتشابهة

أو المقاربة ، ويترتب على هذا أن يشيع بين أبناء اللغة نوع من الوهم بشعرون معه بوثوق الصلة بين الألفاظ والدلالات .

فالألفاظ لا تبدو في حقيقتها أن تكون بمثابة الرموز على الدلالات ، كل لفظ يصلح أن يتخذ للتعبير عن أى معنى من المعانى ، فما يسمى « بالشجرة » يمكن أن يسمى بأى لفظ متى اصطلاح الناس عليه ، وتواضعوا على استعماله فليس فى لفظ « الشجرة » ما يوحى بفروعها وجذورها وأوراقها وخضرتها .

وقد كان من الممكن أن يعبر عن هذه المعانى برموز أخرى غير صوتية كالإشارة ونحوها . ولكن الإنسان بدأ منذ أمد بعيد جداً يتخذ من أصواته رموزاً للتعبير عما يخطر فى ذهنه ، واستعمل فى هذا ما نسميه بجهاز النطق الذى وظيفته الأساسية الطبيعية المضع والباع والتنفس .

دعنا نتذكر علامات المرور من أحمر وأصفر وأخضر التى يرمز كل لون منها إلى دلالة معينة اصطلاح المجتمع عليها وتقبليها قبولاً حسناً . فحين يرى السائق اللون الأحمر يخطر فى ذهنه دلالة معينة هى وجوب الوقوف ، فإذا رأى اللون الأخضر عرف أنه يرمز له بالسماح بالمرور . وليس بين هذه الألوان وما تدل عليه أى مناسبة طبيعية ، وكل ما بينهما لا يعدو أن يكون اصطلاحاً ومواضعه هى من صنع الناس .

وكذلك الألفاظ اصطلاحها الإنسان للتعبير عما يخطر فى ذهنه ، غير أنها اكتسبت مع الزمن صفة ليست فى غيرها من الرموز الاصطلاحية ، ومن المجازفة أن يفكر إلى تلك الألفاظ الآن على أنها مجرد رموز ، فقد ارتبطت بالفكر الإنسانى ارتباطاً وثيقاً ، وأصبح من الصعب أن نتصور أى نوع من التفكير بغير هذه الألفاظ . فالإنسان يفكر بوساطة هذه الألفاظ ، والدلالة التى ليس لها لفظ لا وجود لها إلا فى مخيلة بعض الفلاسفة . حتى ما يسمى بالتفكير

الصامت أو التأمل لا يؤدي إلا بعملية نطقية يقوم بها التأمل ، وإن لم يسمها أحد من حوله . فعضلات نطقه تقوم بنفس الحركات اللسانية التي يقوم بها في الكلام المسموع . وقد برهنت التجارب الكثيرة على هذه الحقيقة العلمية ، فالمرء قد يشعر بإرهاق في عضلات نطقه بعد سماعه لخطيب يخطب أمامه لمدة طويلة ، وذلك لأن عضلات نطق السامع تتحرك حركات خافتة تشبه ما تقوم به عضلات نطق الخطيب تمام الشبه .

بل لقد لوحظ أن لاعب البيانو حين يستمع لعزف غيره مدة طويلة ، قد يشعر بعدها بتعب أنامله وأصابهه ، فكأنما قد مارس هو العزف بنفسه .

وليس يعترض على هذا بأن يقال إن الذي يولد أصم يدرك الأشياء والحوادث دون أن يكون له أي نصيب من تلك الألفاظ اللغوية ؛ وذلك لأن إدراك الأصم مولداً أدنى كثيراً من إدراك السامع ، فإذا رآه للأمر إدراك ناقص ، ومع هذا لا يتم له هذا الإدراك الناقص إلا عن طريق رموز أخرى تحمل محل الرموز الصوتية كالإشارة ونحوها . بل إن مشاهد السينما الصامتة لم يكن يستطيع إدراك ما يراه إلا بعد ترجمته في ذهنه إلى ألفاظ يعرف دلالاتها ، ولو قد عرض عليه من الأشياء أو الحوادث ما لا يستطيع ترجمته إلى الألفاظ ، لمرت بذهنه مروراً عابراً غامضاً لا يترك أثراً ، ولا يبعث على تفكير أو رغبة في مشاهدتها .

فأسطفاح الألفاظ للتعبير عما يحول في الأذهان قد مرت به مئات أو آلاف من القرون جعلت من تلك الألفاظ شيئاً أرقى من مجرد رموز . فليست كإشارات المرور أو العلامات التذرايفية أو الشفرة ، بل هي بالنسبة للإنسان مصابيح تهديه في ظلمات الحوادث ، وتعيينه في معترك الحياة ، وتجعل منه مخلوقاً اجتماعياً نافعاً . وهو لهذا يمتزج بها ، ويتبناها ، وينقب عما تتضمن من أسرار ، وينسب لها فوق ما لها في الحقيقة والواقع . فهي التي ميزته عن سائر المخلوقات ، ويسرت له التفكير ولا غرابة إذن أن يوصف الإنسان بأنه المخلوق الناطق .

وقد اكتسبت تلك الألفاظ شيئاً من القدسية بعد أن حملت إلى الناس أرق ما ينتجه العقل البشري من آداب وعلوم ، وبعد أن اتخذت وسيلة لإيصال النوحى الإلهى إلى عقول البشر ، فكتبت بها أسفارهم المقدسة ونزات بها الكتب السماوية .

أما كيف ربط الإنسان الأول بين الألفاظ ودلالاتها ، وماذا اختص العربى « الشجرة » بهذا اللفظ « والبحر » بلفظ آخر ، واختصتهما الشعوب الأخرى بألفاظ أخرى ، ومتى بدأ أو تمّ للإنسان هذا الربط ، فكل هذه أسئلة حيرت عقول المفكرين منذ قرون سحيقة ولا تزال تحيرها حتى الآن .

الفصل الرابع

استيحاء الدلالة من الألفاظ

كثيراً ما نتساءل عن ذلك القدر من الدلالة الذي يمكن أن يستوحيه المرء من أصوات الألفاظ لا يعرف معناها؟ وللإجابة عن هذا السؤال لجأنا أولاً إلى بعض الألفاظ المرتجلة رجاء أن نستشف من أصواتها دلالة ما لدى سماعها.

فهب مثلاً أنك ارتجوت كلمة مثل « تزلع » ، وطلبت إلى صديق لك أن يخمن لها دلالة؟ فستراه يضع لها دلالة ما يستخرجها من تلك الذخيرة اللفظية التي يخزنها في ذهنه والتي اكتسبها في مراحل تعلمه للغة قومه . فإذا عرضت نفس الكلمة على صديق آخر يشبه الأول في وسطه الاجتماعي وفي ثقافته فقد يستخرج لك نفس الدلالة ، أو شيئاً شبيهاً بها أو قريباً منها . وهذا ندهش لئلا هذه الظاهرة ، ويراها اللغوي المحافظ مظهراً من مظاهر السليقة اللغوية التي تقصل بالوراثة ، والتي فطر عليها أفراد كل بيثة من البيئات اللغوية م

غير أن اللغوي الحديث لا يرى فيها يسمي بالسليقة اللغوية إلا المران الكافي ولا يفسرها إلا على أنها ملكة مكتسبة وليس للوراثة أو الجنس أثر فيها .

لهذا يلتزم تفسيراً آخر لتلك الظاهرة ، وينسبها إلى ما نسميه هنا بوحى الأصوات . فالمرء يتعلم لغة أبويه ، ويربط منذ طفولته بين الألفاظ قومه ودلالاتها ربطاً وثيقاً ، وتخزن في ذهنه تلك الألفاظ مع دلالاتها في شيء من التنظيم والترتيب يساعد على أن يدعو بعضها بعضاً ، ويدكر بعضها ببعض .

ويقتضى المرء في اكتساب تلك الملكة اللغوية زمناً طويلاً من حياته

أو شبابه حتى يسيطر على قدر كبير من الألفاظ ودلالاتها ، وتآلف في ذهنه تلك الذخيرة اللفظية الدلالية ، وعلى أساس ما اكتسب من الألفاظ ودلالاتها يستطيع استنباط مدلول اللفظ الجديد على سمعه . ومع أن الناس يختلفون في تجاربهم مع الألفاظ والدلالات ، تتكون لديهم تلك القدرة على استيعاب الدلالة المجهولة ، أو طرف منها من لفظ معلوم ، وذلك لأنهم لا يزالون يشتركون في اختزان الألفاظ معينة هي الألفاظ يثبتهم . وعلى قدر اشتراك الناس في الوسط الاجتماعي والثقافة العامة يكون اشتراكهم أو تقاربهم في استيعاب تلك الدلالات المجهولة . فإذا عرضت تلك الكلمة المرجلة على جماعة من وسط واحد وثقافة متقاربة رأينا تشابهاً عجيبياً في استنباطهم لدلالاتها . فعرض هذه الكلمة على مجموعة من طلبة الجامعة ينتج غير ما ينتجه عرضها على مجموعة من القرويين مثلاً .

وعايناً أن نتذكر مع ما تقدم أن لكل لغة نظاماً خاصاً في تأليف الألفاظها ، فما يشيع في إحداها قد يندر في الأخرى . فالألفاظ العربية تتألف من تلك الحروف الهجائية المألوفة لنا ؛ وتتكون لتلك الألفاظ العربية نسج خاص ، إذا حاد عنه اللفظ قيل إنه غير عربي . وكان القدماء يشعرون بشيء من هذا حين أكد لنا بعضهم أنه لا تجتمع الجيم مع القاف في كلمة عربية مثل « المنجنيق » ولا تجتمع الصاد والجيم في كلمات العرب ، فكلمة مثل « صولجان » غريبة عن النسج العربي ، ولا تكون الفون قبل راء إلا في الكلمات الأعجمية مثل « نرجس » ، ولا تكون الزاي بعد دال كما في كلمة « مهندز » الأجنبية التي صارت في لهجاتنا الآن « مهندس » ! ولا تكون الشين بعد لام ، ولا تجتمع الباء والشين والذال في كلمة عربية ، ولا تعرف لفتنا العربية الزاي ، والذال مع الشين إلا في تلك الكلمة العربية التي نطق بها على صورة (ساذج) ،

ولا تجتمع الصاد والطاء ، ونادر اجتماع الراء مع اللام ولا بد من وجود حرف من حروف الذلاقة (م ن ر ل ب ف) في الرباعي والخماسي^(١).

قرأ مثل هذه الملاحظات السريعة في كتب القدماء ، ولكن الأمر أعق من مثل تلك الملاحظات القليلة ، ويحتاج إلى استقراء أوفى وأعم حتى نستطيع الوقوف على نسج الكلمة العربية . فإيـمـكـن أن يتألف من حروفنا الهجائية بجـاوز ١٢ مليوناً من الكلمات ، قرر هذا الخليل من قبل ، وتقر صفة الآن العمليات الحاسوبية الحديثة . ولكن المستعمل من الألفاظ لا يكاد يجاوز ثمانين ألفاً ، فيها يشبع حرف أكثر من حرف ، بل قد تختلف فيها نسبة شيوع الحروف على حسب موضعها من الكلمة . فلو أن اللفة كانت تسمح باستعمال كل تلك الملايين من الألفاظ لأشبهت الحروف بعضها بعضاً في شيوعها ، ولا يتكون للغة حينئذ نسج خاص تتميز به . ولكن اللفة قد تـخـيـرت مجموعات صوتية معينة هي التي اختصتها بالدلالة ، وأهمت الكثرة الغالبة .

ونكتسب نحن ألفاظ اللفة كما وردت إلينا ، ونختزن قدرأ كبيراً منها يتألف على نظام معين ، ويمكن أن نقرر بعد دراسة واستقراء أن نسبة شيوع « السين » مثلاً في كلام فلان هي كذا ، ونسبة اليم في كلامه هي كيت ، وتوالي الفاء والذال في الألفاظ أقل من توالي الفاء والجيم مثلاً ، واجتماع اللام واليمين والباء أكثر من اجتماع اللام واليمين والقاف ، وغير ذلك من نسب كثيرة قد يهذبنا إليها الاستقراء . فالرء إذن يخضع لما يكتبه من الألفاظ ، ويتأثر بنظام تلك الألفاظ ونسجها وتركيبها . ومع هذا فأفراد البيئة قد يشتركون في شيء من هذا ، ويتأثرون جميعاً بمجموعة كبيرة جداً من الألفاظ المشتركة بينهم .

(١) ضياء الخليل لهجاء ص ٧٠

غير أن هذا الاشتراك يكثر أو بمظم في الأوساط المتشابهة ، ولدى أصحاب الثقافات المتقاربة .

وعلى هذا فمجرد النطق بتلك الكلمة المرتجلة يدعو إلى الذهن لفظاً آخر معروفاً يشترك معها في بعض حروفها أو صفات تلك الحروف ، ويند ذلك اللفظ المعروف ومعه دلالة فيوحى بشيء من دلالة ذلك اللفظ المرتجل .

ويقال بعض اللغويين فيتصورون من أجل هذه الظاهرة أن هناك ربطاً طبيعياً بين الألفاظ ودلالاتها ، ولا يخاطر بيالهم أن القدرة على استيعاب الدلالات مرجعها إلى ما يكتسبه المرء من الألفاظ معينة ، ومن ربطه بين تلك الألفاظ ودلالاتها ربطاً وثيقاً . فالعملية كلها مكتسبة لا سحر فيها ولا غموض ، ويمكن أن يستدل على صحتها بالتجربة كما سنرى .

ويرى فندريس أنه من الحق الحكم بوجود علاقة ضرورية بين أصوات الكلمة ودلالاتها . وقد سخر من أولئك الذين نادوا بهذا الرأي أمثال « سان توماس الأكويني » غير أنه اعترف بأن بعض الألفاظ أقدر على التعبير عن البعض الآخر ، ولكن المرء في رأيه حين يقيم اتئلاقاً بين اللفظ ومدلوله إنما يسير على نهج عادة قديمة جداً حين كانت الألفاظ تمد جزءاً لا يتجزأ عن الأشياء ، وحين كان الاسم له منزلة الجسد والروح كما هو الحال الآن عند بعض الأمم البدائية الذين يعتقدون أن الإنسان يتكون من الروح والجسد والاسم .

ويختتم فندريس كلامه بما نصه [كل كلمة إما كانت توظف دائماً في الذهن صورة ما ، بهيجة أو حزينة ، رضية أو كربية ، كبيرة أو صغيرة ، معجبة أو مضحكة ، تفعل ذلك مستقلة عن المعنى الذي تعبر عنه ، وقبل أن يعرف هذا المعنى في غالب الأحيان . اذكر اسم إنسان ما أمام شخص لم يره قط ، فإنه يكون عنه فكرة في الحال ، ففكرة زائفة على وجه العموم ، فإذا قدمت له هذا

المجهول أجابك على الفور « أهو هذا ؟ ما كنت أظنه هكذا ». ومثل هذا الشيء نفسه يحمل بالنسبة لكلمات اللغة . فإدراكنا للأشياء خاضع لانطباعات لحائية متباعدة من الاسم الذي يدل عليها ^(١) .

ويبدو من هذا النص أن فندريس يرى أن تلك الصورة التي تنطبع في الأذهان لدى سماع الكلمة المجهولة لا تكاد تمت إلى الدلالة الحقيقية بأية صلة ، وهو بهذا يتجاهل أثر التجارب السابقة في ذهن كل منا ، وما تخضع له كل لغة في نظام مجموعاتها الصوتية ، وارتباط كل مجموعة منها بدلالة معينة . فمجرد اللفظ باللفظ يستدعي إلى الذهن أمثاله من الألفاظ ، ويستدعي معها دلالاتها ، ويستوحى المرء من كل هذا دلالة لذلك اللفظ المجهول على أساس ما اختزنه في حافظته . وقد يوفق في هذا الاستيعاب كل التوفيق أو يفضله ، ولكنه على كل حال يجد نفسه قريباً من الدلالة الحقيقية في نسبة غير قليلة من الحالات ، وهو ما برهنت عليه تجاربنا مع بعض طلاب الكليات والمدارس .

سجل أبو حيان التوحيدى ^(٢) في رسالة له كتبها في الانتفاص من صاحب ابن عباد لو وقف له مع أحد الشعراء حين أنكر على هذا الشاعر أن يتجراً على قول الشعر وهو يجمل كثيراً من الغريب . ثم سرد صاحب على مسمع الشاعر طائفة كبيرة من الكلمات النادرة المهجورة التي كان يفخر بمعرفتها والإحاطة بدلالاتها منها : -

الهبلم ، الجرفاس ، الخيتعور ، النعل ، القهبل ، القذعمة ، الطربال ،
الشنوف ، العنلط ، القفندر .

وقد عرضنا هذه الألفاظ على مجموعة من طلبة اللسان بكية دار العلوم

(1) Language p.-237

(2) العربية تاليف الأستاذ يوهان فك ترجمة عبد الحليم النجار صفحة ١٦٢ .

عددهم أربعة وعشرون ، ثم عرضناها مرة أخرى على طلبة التوجيهية في إحدى المدارس الثانوية وعدددهم ثلاثة وعشرون ، وطلبنا من كل طالب أن يسجل ما توحىه كل لفظة من دلالة في ذهنه .

ولكن رغبة في ألا نترك الطالب في ظلام دامس ، رأينا أن نلج له بما يحصر تخمينه في نطاق محدود ، فقلنا له إن المبلغ والجرفاس والخيتور والنعل صفات للرجل ، وإن القهبلس والقذعمة من صفات المرأة ، وإن الطربال صفة للبذاء ، وإن الشموف جزء من الجبل وإن المثلط صفة لابن ، وإن القنندر لواحد من الجمال أو القبع فأيهما تختار ؟

ويلاحظ في التجربة أن بعض طلبة دار العلوم لم يجيبوا بشيء عن بعض الكلمات . وذلك لأننا طلبنا منهم عدم الإجابة حين يكون أحدهم على علم بدلول الكلمة من قبل . وها هي ذى إجابات طلبة كلية دار العلوم :

١ - المبلغ :

فسرها تسعة من الطلبة على أنها « الأبله العبيط » ، وفسرها أربعة منهم على أنها « الأكلول النهم » وهو المعنى المحمى الصحيح ، وفسرها أربعة على أنها « الضخم المهول » ، وفسرها ثلاثة من الطلبة على أنها « القصير » أما باقي الطلبة فتباينت إجاباتهم .

وهكذا نرى أن مجموعة كبيرة من هؤلاء الطلبة تشترك في الدلالة ، ونسبتهم ٣٧٪ أي ٩ من ٢٤ .

٢ - الجرفاس :

أجاب نحو ١٤ طالبا مفسراً الكلمة على أنها « القوي الضخم والشجاع الخشن » وتلك هي دلالات متقاربة بنسبة ٥٨٪ .

أما باقي الإجابات فمتباينة . والمعنى المعجمي لهذه الكلمة هو « الضخم » .

٣ - الخية مور :

أجاب ثمانية من الطلبة مفسراً الكلمة على أنها « الذليل الضيف الجبان الكسلان » ، ولم يجب بشيء ستة من الطلبة ، أما الباقي فأجابتهم متباينة ، أي أن نسبة الاشتراك في الإجابة ٤٤٪ . والمعنى المعجمي لهذه الكلمة هو « الخداع المختل » ، فليس منهم من استطاع تخمين المعنى الصحيح .

٤ - النعشل :

لم يجب عن هذه الكلمة غير ١٣ طالباً ، منهم ثمانية فسروها على أنها « المهادى - النائم الوديع » . أي أن نسبة الاشتراك في الإجابة ٦١٪ . والمعنى المعجمي لهذه الكلمة هو « الشيخ الأحمق » .

٥ - القهبلس :

لم يجب غير عشرين من الطلبة ، منهم عشرة فسروها على أنها « المرأة الضخمة البدنية » ، أي أن نسبة الاشتراك في الإجابة ٥٠٪ . والمعنى المعجمي هو « المرأة الضخمة » .

٦ - القذملة :

أجاب ١٧ طالباً ، منهم ١٤ فسروها على أنها القصيرة القميثة ، وتلك هي الدلالة المعجمية الصحيحة فتكون نسبة الاشتراك هنا ٨٢٪ .

٧ - الطربال :

أجاب ١٧ طالباً ، منهم ٩ فسروها على أنها « البناء الضخم العالي للشمخ » ، وتلك هي الدلالة المعجمية الصحيحة فتكون نسبة الاشتراك ٥٣٪ . وأجاب ثلاثة فقط فوصفوا البناء بأنه « المنهدم النهار » . أما الباقي فأجاباتهم متباينة . (م - ٦ - الألفاظ)

٨ - الشمسوف :

أجاب عشرون طالبا ، منهم ١١ فسروها بأنها « قمة الجبل » أى أن نسبة الاشتراك ٥٥ ٪ ، و حين أن ثلاثة فقط قالوا عنها إنها « أسفل الجبل » . وأربعة من الطلبة وصفوها بأنها « طرف بارز رفيع » والمعنى المعجمى لهذه الكلمة هو « القمة » .

٩ - المثلط :

أجاب عنها ٢١ طالبا ، منهم ١٧ وصفوه بأنه « الابن المتجمد المتخمر » ، وتلك هى الدلالة المعجمية ، أى أن نسبة الاشتراك ٨٠ ٪ .

١٠ - القفندر :

أجاب عنها ٢٠ طالبا ، منهم ١٢ قالوا عنها إنها صفة للجميل ، ٨ من الطلبة قالوا عنها إنها صفة للتببيع . أما المعنى المعجمى للكلمة فهو « التببيع المفطر » . وهكذا نرى أن مجموعة من الطلبة الذين ينتمون إلى وسط اجتماعى واحد ، ويشتركون فى الثقافة والبيئة التعليمية ، قد استنبطوا دلالات مشتركة بينهم بنسبة ٦٠ ٪ فى المتوسط . ولم يبق سوى النسبة القليلة التى يمكن إرجاعها إلى التجارب الخاصة والأمزجة المختلفة . كذلك نرى أن الدلالات المشتركة لم تكن دائما الدلالة المعجمية الصحيحة ، فلا تكاد تجاوز الإجابة الصحيحة نسبة ٤٢ ٪ ، أى أن استنباط الدلالة الصحيحة من اللفظ . أمر عسير حتى على أبناء دار العلوم الذين قطعوا شوطا بعيداً من الثقافة اللغوية .

أما إجابات طلبة التوجيهى فى المدرسة الثانوية ، فكانت نسبة الاشتراك فى المتوسط نحو ٦٠ ٪ أيضا ، ولكن الإجابة المطابقة للدلالات المعجمية لم تجاوز نسبتها ٣٠ ٪ لأنهم أقل اتصالا بالثقافة اللغوية العربية من أبناء دار العلوم .

فهم لأنهم من وسط واحد وعلى قدر واحد من الثقافة العامة اشتركوا في استيعاب الدلالات بنسبة كبيرة، ولكن إجاباتهم كانت مختلفة عن إجابات أبناء دار العلوم بشكل ملحوظ.

١ - المبلع :

هنا رأينا ١٦ طالبا تحوم إجاباتهم حول جو واحد من الدلالة فمعظمهم وصف الكلمة بأنها « الأبله العبيط »، وبعض هؤلاء قالوا عنها إنها « الطويل »، ومن السهل علينا الربط بين الدالتين . أى أن نسبة الاشتراك ٦٩٪ (١٦ من ٢٢)

٢ - الجرفاس :

أجاب عنها ١٢ طالبا بدلالات متقاربة تلتخص في القوة وما يصحبها من شر أو شجاعة، أى أن نسبة الاشتراك ٥٢٪ .

٣ - النشل :

أجاب عنها ١٥ طالبا بدلالات متقاربة هي « النعسان الفائم الهادى . » ، أى أن نسبة الاشتراك ٦٥٪ .

٤ - القمبلس :

أجاب ١٢ طالبا بقولهم إنها « الغانية الجذابة غير الشريفة » ، أى أن الدلالة في أذهانهم حامت حول الجاذبية الجنسية . فكانت نسبة الاشتراك ٥٢٪ .

٥ - القذمسة :

أجاب ١٦ طالبا فأصابوا في استنباط المعنى المعجمي الصحيح وقالوا إنها « القصيرة » ، أى أن نسبة الاشتراك ٦٩٪ .

٦ - الشعرى :

أجاب ١٣ طالباً فقالوا عنها « القمة » ، وتلك هي الدلالة المعجمية الصحيحة ،
أن نسبة الاشتراك ٥٦٪ .

٧ - الطربال :

أجاب ١٦ طالباً فوصفوا البناء بدلالات متقاربة مثل « العالى الشاهق
الضخم » ، أى أن نسبة الاشتراك ٦٩٪ .

٨ - المثلث :

وصفه ١١ طالباً بأنه « الجامد الرابى المقطم » ، أى أن نسبة الاشتراك
٤٨٪ .

٩ - القندر :

وصف ١٤ طالباً هذه الكلمة بأنها تعبر عن الجمال . أى أن نسبة الاشتراك
٦٠٪ .

ولسنا نزعم أن مثل هذه النسب تطردى كل تجربة من هذا النوع ، فقد
تكون بعض الكلمات أكثر إيحاءً من البعض الآخر ، وقد تختلف ظروف
التجربة فلا تؤدي إلى نفس النتيجة فى كل مرة . ولكن الذى يؤكد هو أن
نسبة كبيرة من الاشتراك فى استيحاء الدلالات تتم فى الوسط الموحد الثقافة ،
والتقارب فى التجارب . وتأييد هذا لدينا من تجارب أخرى متعددة أسست على
كلمات أخرى بمجولة الدلالة .

نتهى من هذه التجارب إلى أن اللغة تخضع لنظام خاص و تركيبها من
الحروف الهجائية ، وأن بعض هذه الألفاظ يختزنها المرء و حافظته ، وهى
وإن خضعت للنظام العام للغة تتميز بصفات معينة ، وتترك أثراً قويا و ذهن من

بمبها وبمحافظة . فاذا دل استقراء المستعمل من ألفاظ اللغة على أن نسبة توالي الفاء والجيم مثلاً أكثر من توالي الفاء والصاد ، فقد يقصد أن ما يحفظه المرء من الألفاظ يعطى نسبة أخرى قد تكون عكسية ، فيها توالي الفاء والصاد أكثر من توالي الفاء والجيم ويقال حينئذ إن توالي الفاء والصاد في ذهن شخص معين أوضح وأكثر شيوعاً منه في ذهن آخر ، ولكن الشخصين بمحضمان مما للنظام العام الذي تجرى عليه الألفاظ اللغة .

تلك هي الصفة التي تميز شخصاً من شخص ، وتعمل استيعاب الدلالة من اللفظ تختلف في بعض الأحيان بين شخصين من وسط اجتماعي واحد وثقافة واحدة .

* وتختلف نسبة شيوع الهاميع الصوتية في ذهن كل منا ، فبعضها أوضح من الآخر وأقرب إلى التذكر ، فمجموعة مثل « ملع » تدعو إلى ذهن بعض الناس مجموعة مثل « دلع » ، وفي ذهن الآخرين مجموعة أخرى مثل « لمع » ، ولذا نرى أن « ملع » قد يوحى إلى الفريق الأول دلالة « الدلع والميوعة والتخث » ، وقد يدعو إلى ذهن الفريق الآخر دلالة « اللعان والبريق والضوء » .

هذا هو وحي الأصوات أو استيعاب الدلالات من الألفاظ ، وقد أطلقنا عليه الوحي لأنه لطيف لا يدرك إلا بعد التجارب والدراسة المستفيضة ، ولأنه عمل من أعمال العقل الباطن أو اللاشعور ، يحس به المرء دون أن يدري كيف أحس به .

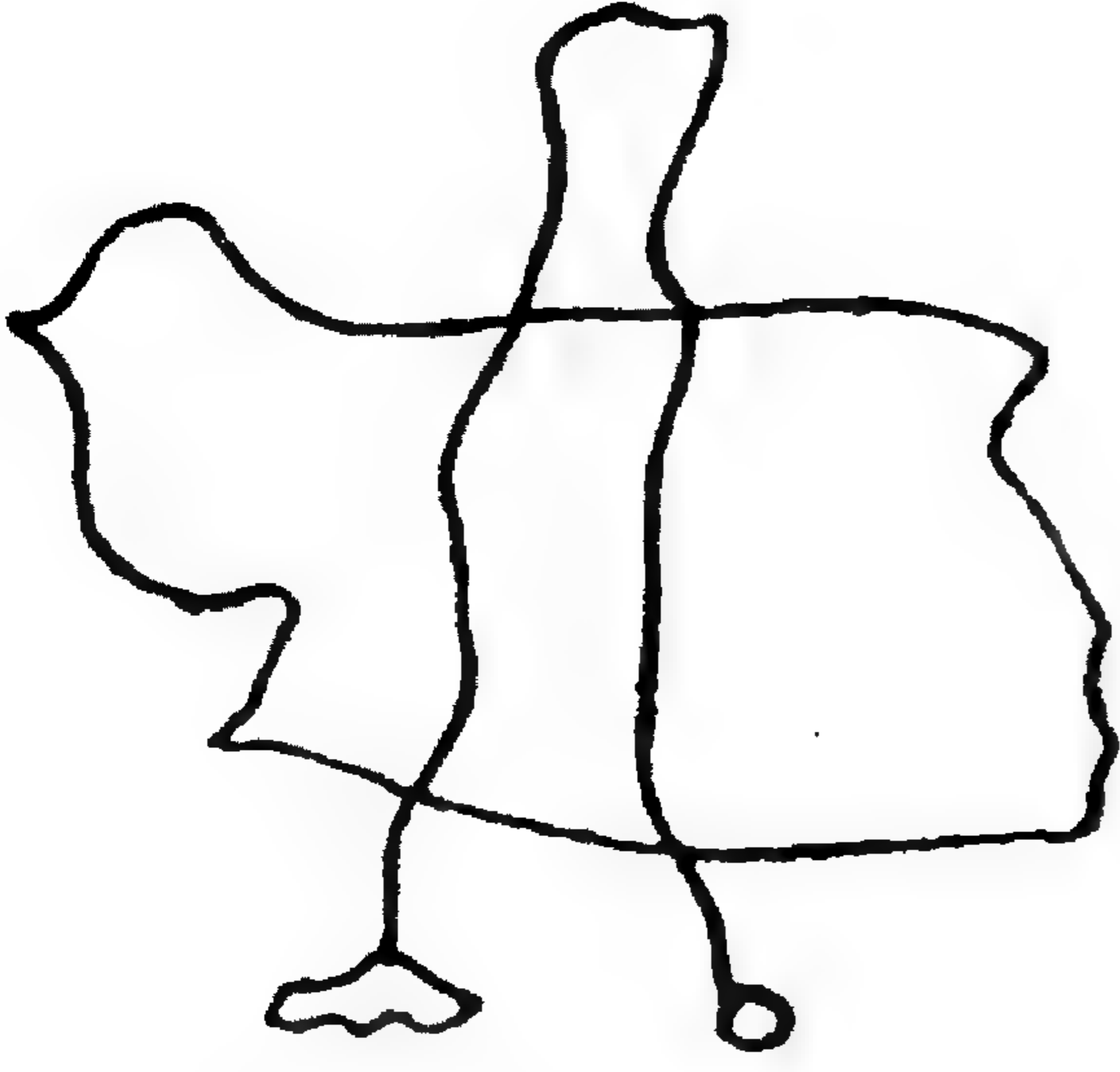
وللأدباء بصدد هذا الاستيعاب قدرة أخرى فوق ما للمرء العادي ، يستمدونها من خيالهم وتبنيهم للألفاظ . وعدم هذه القدرة بظلال من الدلالات لا تكاد تخطر في ذهن الآخرين . وليس من مجال هذا البحث التعرض لما يخطر في ذهن الأدباء والشعراء ، ولذا نؤثر الابتعاد عنه ، تاركين تلك الظلال الدلالية الخاصة بهم لدارسي النقد الأدبي .

وكما توحى الألفاظ بالدلالات . فقد توحى الأشكال والمناظر بشيء من الدلالات أيضاً . وذلك لأن المرء يعمى في ذهنه تلك الأشكال كما يعي الألفاظ ، ويربطها ربطاً وثيقاً بالألفاظ الدالة على مناظر أو أشكال شبيهة بها . فعصر الشكل يدعو إلى الذهن الألفاظ التي تدل على صغر الحجم ، وترك الشكل أو تعقده يوحى بالألفاظ الدالة على الجمع أو الكثرة .

ولغات في هذه الظاهرة حال تبعث على العجب والدهشة . فإذا تصادف أن ألفاظ اللغة التي تدل على صغر الحجم تشتمل في مجدها على صوت معين ، نرى أن المرء قد يستوحى لدى رؤية شكل صغير لفظاً مشابهاً لتلك الألفاظ ، ومشتغلاً أيضاً على ذلك الصوت المميز . وقد دلت الملاحظة على أن «الكسرة» وما يتفرع منها «كياء المد» تكون عنصراً أساسياً في كل الألفاظ الدالة على صغر الحجم . ولا تقتصر هذه الملاحظة على اللغة العربية ، بل لوحظت أيضاً في بعض اللغات الأخرى ، ولا غرابة إذن أن يقال إن الأشكال توحى بالألفاظ معينة ، أو يحمل الرأي يؤثر لفظاً على لفظ ، ويستتبع هذا أنها تندخل في استنباح الدلالات .

وقد قمنا بعدة تجارب اتضح لنا منها أن الكسرة أو ياء المد توحى بصغر الحجم ، وأن حروف التفخيم توحى بضخامة الحجم . وأن الشكل المتعدد الأطراف أو الأجزاء قد يوحى بفكرة الجمع وهكذا .

وبدأنا تلك التجارب بمرض شكابين حيايين لا يمثلان في الحقيقة شيئاً ، ولا فرق بينهما سوى أن أحدهما كبير الحجم والآخر صغيره مثل :



(شكل ٢)

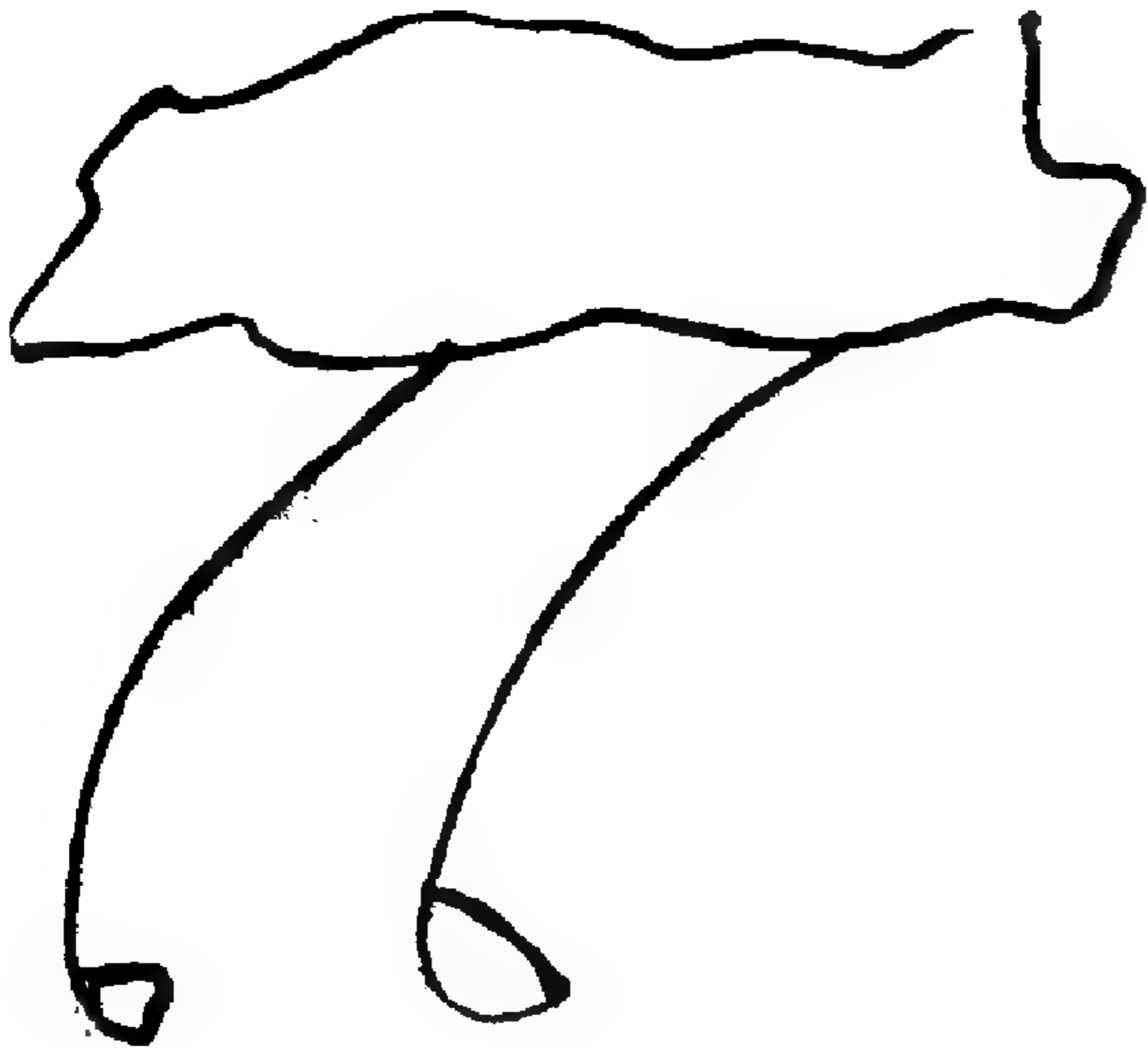


(شكل ١)

ثم طلبنا من مجموعة كبيرة من الطلبة أن يتخيروا أحد اللفظين المرتجابين (زليم ، زلوع) للشكل الأول ، وأن يتخيروا اللفظ الآخر للشكل الثاني ووجدنا أن نحو ٦٠٪ من الطلبة اختاروا لفظ « زليم » للشكل الصغير . ولا تختلف هذه الملاحظة عن الأخرى إلا أنها تشمل على (ياء المد) وحين أن الأخرى تشمل على واو المد ، مما يؤكد تلك الملاحظات التي أدها بعض العلماء من ارتباط الكسرة وياه المد بصغر الحجم وضيق الوقت وبعض النغات^(١)

ثم عرضنا شكلين آخرين مختلفان فقط في الحجم وطلبنا اختيار أحد اللفظين المرتجابين (ستين ، سليفة) للشكل الأول واللفظ الآخر للشكل الثاني ، فوجدنا أن الكثرة الغالبة قد اختارت لفظ (سليفة) للحجم الصغير . وهذا اللفظ يوحي بفكرة التثبيت . وترتبط هذه الفكرة بصغر الحجم والرقعة وضعف الأنوثة ، والشكلان هما :

(١) - ص ٢٠٢ -



(شكل ٤)



(شكل ٣)

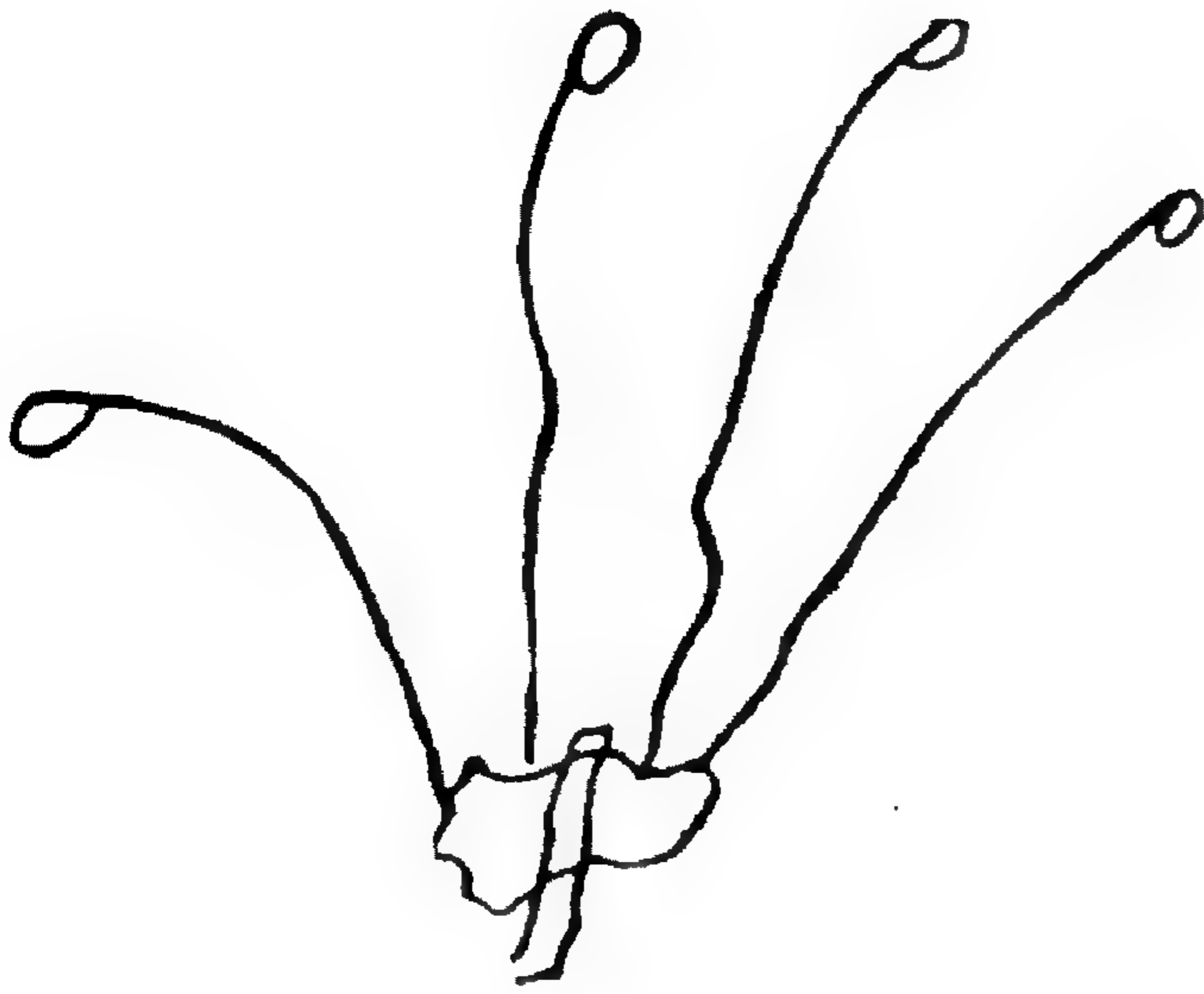
ثم عرضنا أشكالاً أخرى لا تختلف إلا في الحجم وعرضنا معها ألفاظاً مرتجلة مثل (الظاقع، السالم)، (الستيم، الطمبيخ). فوجدنا أن الكثرة الغالبة كانوا يختارون اللفظ المشتمل على حروف التفخيم كالقاف والطاء والظاء والخاء لاشكل كبير الحجم.

ويقرر بعض الباحثين في اللغات الحامية أنهم بوجه عام يميز بين الذكر والمؤنث بإضافة حرف «الكاف» في آخر المدكر، وإضافة حرف «التاء» في آخر المؤنث (١).

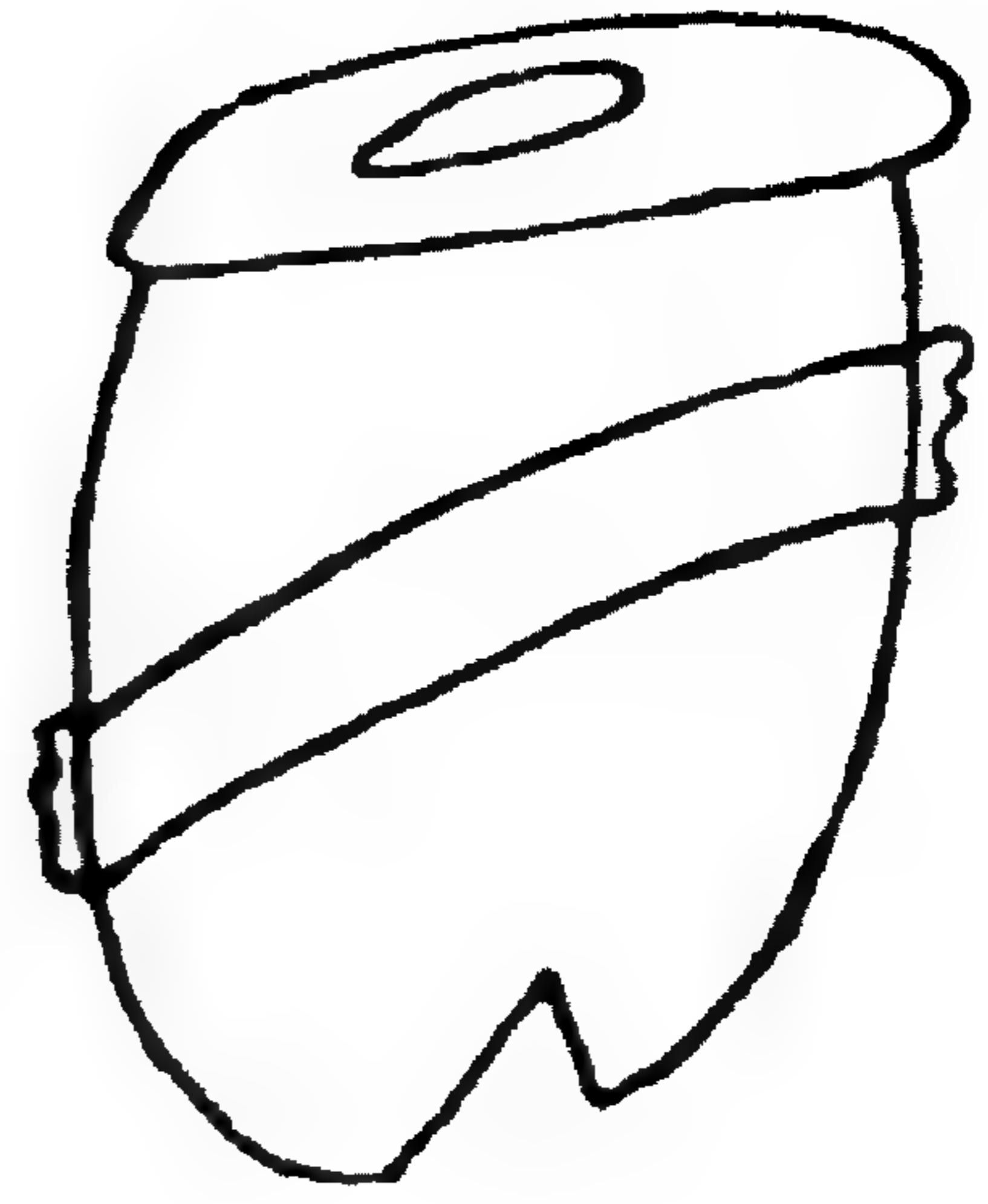
وبالمقارنة بين الحرفين نرى أن «الكاف» حرف يمكن أن يعد مفتوحاً إذا قيس بنظيره الأمامي وهو «التاء». أي أن «الكاف» ارتبطت بحروف التفخيم بالرجولة والقوة والضعف، وارتبطت بحروف الترفيق بالأنوثة والضعف وصغر الحجم أمر غير مقصور على الألفاظ العربية.

وعرضنا أشكالاً أخرى مثل :

(1) The Language families of Africa P. 91 by Weroer .



(شكل ٦)



(شكل ٥)

ومعها ألفاظ مرتجلة مثل (السفآن ، الأفناس) ، (والشواجن ، الشفاف) ،
ووجدنا أن السكرة الغالبة كانوا يستوحون من الشكل الثاني فكرة الجمع أو
السكرة ، ويربطونه بما يوحى بتلك الفكرة من الألفاظ السابقة مثل (أفناس ،
شواجن) ، فصيغة كل منهما تمثل صيغة مشهورة من صيغ جمع التسكر .

ومع اعترافنا بأن التجارب السابقة قد تمت في نطاق ضيق استطاع أن نقبأ
ونحن مطمئنون إلى أن إجرائها في نطاق أوسع سيؤدي إلى نفس النتيجة أو
ما أشبهها شبيهاً كبيراً .

ونختتم هذا الفصل بأن تشير إلى أن استيعاب الدلالة غير مقصور على حروف

اللفظ وأصواته ، بل قد تدخل الصيغة أو بنية اللفظ في هذا الاستيعاب بمجرد

النطق بالفاظ مرتجلة مثل ، (سقيم ، مطافع ، عقول) يوحى إلى الذهن أنها

أوصاف أو أسماء ، وحين أن صيغاً أخرى مثل : (ملع ، يهبط ، يساه ، اشكع)

توحى إلى الذهن أنها أفعال .

الفصل الخامس

اكتساب الدلالة ونموها

- ١ -

لدى الأطفال

نشأ الدلالة لدى الطفل ، ولكنها ليست كمشائتها الأولى لدى الإنسان الأول ، فبست خلة حديداً حين يدركم أطفالنا ، بل هي أمر شائع مألوف عند الكبار حولهم . وكذلك الألفاظ التي ترمز لهذه الدلالة ليس فيها من جديد ، بل هي أيضاً معروفة ، ألوفة عند جميع أفراد البيئة اللغوية .

ولا يكاد يمر الطفل بمرحلة الناغاة حتى يدرك من طريق سمعه أن هناك مجموعة صوتية ينطق بها الكبار حوله وهي التي تسمى بالألفاظ ، وأن هذه الألفاظ تحقق لطفل رغبانه كما حاول النطق بها .

ويبدأ الطفل بعد السنة الأولى من عمره يربط بين ما يسمع وما يترن علي هذا الذي يسمعه من أحداث ، ونقول حينئذ إن مرحلة الفهم قد بدأت لدى هذا الطفل . وقدرة الطفل علي الفهم أكبر من قدرته علي النطق في السنة الثانية من حياته ، لذا يقال دائماً إن فهم الأطفال مدلولات الألفاظ يسبق القدرة علي تقليد تلك الألفاظ . فهو يفهم مدلول كلمة « العين واليد والرجل والرأس » وغيرها من الألفاظ كثيرة الشروع في محيطه قبل أن يفهم فينطق بمثل هذه الألفاظ .

ثم لا يلبث الطفل أن يتطرق من عقائه ويقاد الكبار في نطق الألفاظ ، ويوجه كل عنايته لإحادة النطق بها ؛ لأنها الوسيلة لإدراك رعايته والحصول

على ما يشتهى . وليس بقاد تلك الألفاظ حبا فيها لذاتها ، وإنما لما يترتب على
النطق بها من أحداث وأعمال .

ويخطئ بعض الآباء والأمهات حين يتصورون أحيانا أن أطفالهم الصغار
لا يكادون يفهمون شيئا مما يدور حولهم ، ثم قد يندمون فيما بعد حين يتبين لهم
أن هؤلاء الأطفال يفهمون أكثر مما يتصور أهلهم !!

وكذلك قد يقال لبعض الأمهات والآباء فينسبون لأطفالهم فدرا من الفهم
هو في الحقيقة فوق مداركهم ، ولم يخطر في أذهان هؤلاء الأطفال .

لهذا يجب الحيلة في الحكم إلا بعد أن يالف الطفل النطق بالألفاظ
في سياق الحوادث ، ويمرن على تكوين العبارات والجمل التي تبين بوضوح مقدار
هذا الفهم ، ونصيبه من الصحة والصواب .

وتتكرر الحوادث أمام الطفل مسجوبة بتلك الحركات الصوتية التي
تسمى بالألفاظ ، فيوثق الضرب الربط بين هذه الحوادث وتلك الألفاظ .
ثم تتكرر تجاربه وتتنوع ، ويشعر بمتعة كبيرة حين يجرب النطق بلفظ من
الألفاظ فيتحقق له نتيجة هذا النطق ما كان يرغب ويشتهى .

ويبدأ الطفل إدراكه للدلالات في صورة نافذة قاصرة تسمى أحيانا بمرحلة

الدلالات الخاصة أو مرحلة العلمية . كل لفظ يسمع للمرة الأولى يتلقاه الطفل

وكأنه علم من الأعلام لا يطلق إلا على ذلك الشيء الأمين الذي ارتبط به في تلك
التجربة المبينة . فالطفل في أواخر السنة الأولى وأوائل الثانية حين يسمع كلمة
(السرير) ويربط بينها وبين سرير العفريت ، يأخذها على أنها علم لذلك
الشيء الذي ينام فيه والذي يحمل مكانا مميذا في حجرته والذي غطى بنطاق ذي لون
مميز أحمر أو أخضر .

ثم تتكرر التجارب ويسمع الطفل لفظ « السرير » يطلق على سرير

أخيه الكبير وسرير أبويه، وهما يشتركان مع سريره في صفات ويختلفان في صفات أخرى. وهنا يبدأ عملية التعميم لعله يصل إلى المعنى الكلي للأشياء، فيتلمس وجوه الاختلاف بين تلك الأشياء التي يطلق عليها لفظ « كرسى » مثلاً، ويحاول تمييز الصفات الأساسية من الصفات العرضية، ولكنه في هذه المحاولة قدما يصيب الهدف؛ بل يتعثر ويخلط بين تلك الصفات، وقد يجعل من الصفات العرضية صفات أساسية. فإذا رأى شخصاً يجلس على صندوق مثلاً خيل إليه أن الصفة الأساسية لما يسمى بالكرسى هي إمكان الجلوس عليه، وهذا قد يطلق على الصندوق كلمة « كرسى ».

وليس منا من لم يمر بمثل هذه التجربة مع الأطفال، « فالكتبة » عند بعضهم « سرير »، و « الكتبة » عند آخرين « دولاب » و « المكتب » « ترابزه » وهكذا. (ويشغف الطفل بعالم الحيوان شغفاً كبيراً)، ولا يلبث أن يذوق ألفاظاً مثل الحمار، الحصان، الجمل، البقرة على حسب ما تسمع به بيئته. فالطفل في المدن قد يسمع لفظ « الحمار » قبل أن يسمع لفظ « البقرة ». فإذا تكررت أمامه رؤية « الحمار »، وتكرر سماعه لهذا اللفظ، ثم تصادف أن رأى للمرة الأولى « حصاناً » فقط يطلق عليه لفظ الحمار، بل قد يطلقه على الجمل أو البقرة؛ لأن الصفة الأساسية في كل هذه الحيوانات أنها تمشي على أربع.

ويخلط الطفل كذلك بين أنواع الطيور، فقد يسمى « البيضاء » « فرخة »، و « الحمامة » « عصفورة »، والحدأة غراباً، على حسب ما تسمع به تجاربه، وما تسمع به البيئة التي ينشأ فيها.

ولعل كلمة الأب والأم من أسبق الألفاظ إلى ذهن الطفل، ولا يلبث هذا الصغير أن يتخذ لدلول لفظ الأب صفات غير أساسية يلقمها من صفات أبيه، ثم يجمع لفظ الأب على كل من يتصف بهذه الصفات العرضية. فإذا كان أبوه

مطرب بشأ وله شوارب طويلة ويمسك عصا في يده ، ثم تصادف أن رأى رجلاً يتصرف يمثل هذه الصفات العرضية أطلق عليه في براءة الأطفال كلمة الأب .

والطفل في الوقت الذي يحاول فيه تعميم الدلالة ، زاه أحياناً بتخصيص من العام ، ويتصور ما هو عام الدلالة على شيء معين مر به في تجاربه مرتبطاً بذلك اللفظ ذي الدلالة العامة . فقد يتصادف أن يسمع الطفل ممن حوله وفي أثناء لعبه عبارات مثل : خذ لعبتك ، هات لعبتك ، لعبتك حلوة ، وكانت لعبته حينئذ على صورة حيوان أو طيارة أو قطار ، يرى الطفل بربط بين لفظ « لعبة » ذي الدلالة العامة ، وبين لعبته الميمنة . ويصر على عدم استعمال هذا اللفظ إلا حين تكون اللعبة على ذلك الشكل الميمن .

نرى من كل هذا أن الطفل يقضي زمناً غير قصير يحاول فيه تعميم الخاص من الدلالات وتخصيص العام ، ويلاقي في هذه المحاولة عنتاً ومشقة قبل أن يهتدى إلى الدلالة الصحيحة على النحو الذي يدركه الكبار حوله .

ويتسبب بعض الآباء دون عمد أو قصد في تضليل أطفالهم إزاء لفظ من الألفاظ يستعمله الكبار استعمالاً عاماً ، فيرتبط في ذهن الطفل بمدلول غامض لا يتخلص منه إلا بعد تجارب كثيرة .

فقد يقف بعض الكبار حول الطفل ينظرون وهو يجرب لعبة جديدة للمرة الأولى ويحسن تجربتها ، فيصبح أحدهم دهشاً متعجباً « هايل » أياً أخذ الطفل هذه اللفظة ويطلقها على كل لعبة من هذا النوع ، وقد يطلب إلى طفل من جيرانه أن يحضر ليلعب معه « بالهايل » .

كذلك قد تكرر الأم أمام الطفل عبارة مثل « تعالى نام جنبي » فلا يلتقط منها الطفل سوى كلمة « جنبي » التي يفهمها على أنها تعنى عملية محببة لكل الأطفال وهو النوم في أحضان أمهاتهم ، ولا تلبث أن نسمع حينئذ ذلك الطفل يصبح متوسلاً إلى أمه وناطقاً بكلمة « جنبي » بمعنى « النوم » .

ويستمتع بعض الكبار بمثل هذا الانحراف في الدلالة لدى الأطفال ،
فيضحكون ، وقد يستعملون اللفظ على عرار ما فعل الطفل ، ويشتمون الخطأ في ذهنه
وتظل تلك الأخطاء الدلالية موضع السمر والفكاهة في الأسرة زمناً طويلاً

ويميز الطفل بعد زمن قليل بين المفرد والجمع أو بين القليل والكثير من
الأشياء ، ولكنه يظل يتعثر في الأعداد زمناً طويلاً وقد يعلمه والداه النطق
بالأعداد من واحد إلى عشرة فيردد ما تعلم وما اتقن دون فهم حقيقي لمعناها ، حتى
إذا جثته به رد من التفاح أو البرتقال وطالبته بمدها شاهدت تعثره وخطاه بين
الأرقام .

ويصادف الطفل إزاء طائفة معينة من الألفاظ سموات حمة تعقد الأمر عايه
وتزيد في عثراته ، وتلك هي :

(أ) الألفاظ ذات الدلالات المتقابلة أو المصاداة مثل « فوق ، تحت »
و « سخن ، بارد » و « عالي ، واطي » و « يمين ، شمال » . فيخلط بينها
ويستعمل إحداها مكان الأخرى زمناً غير قصير .

(ب) المشترك اللفظي ، وذلك كأن يدل اللفظ الواحد على أكثر من دلالة ،
« قال سيجارة » في بدايه غير « السيجارة » في بد أمه أثناء الرمي أو الخياطة ،
و « الملاف » قد يسمعه من أبيه الموظف ويسمع « ملافاً » آخر من الحودي أمام
بيته ، و « الكتاب » في يد أخيه التلميذ « والكتاب » في ليلة عرس لعمته
أو خالته . ويتضاحك الناس في أمثالهم على مثل هذا الخلط بين الدلالات
ونسلم منهم ذلك المثل المصري :

[قال أبوي من خيار الناس ، قال باباهات لي خيار]

(ح) كلمات متشابهة الأصوات مثل :

[النعناع والمقلع ، الحنطور والطارطور ، العياقة واللياقة . والافتراح
والاختراع ، الصورة والسورة]

فإذا تصادف أن سمع الطفل للمرة الأولى كلمتين من هذا النوع في ظرفين
مختلفين سبب له هذا بعض الحيرة والدهشة ، فيقابلهما أحياناً بالصمت ، وأحياناً
بالتساؤل والاستفسار . ويظل بمد هذا يخلط بينهما زمناً ما إلى أن تتضح له معالم
كل من الكلمتين . بل إن الخلط بين هذه الكلمات غير مقصور على صفار
الأطفال ، فكثيراً ما يقع فيه الكبار ، وهو ما يفسر لنا الخلط بين شبابتنا المتعلم
في كالمتي « العتيق والعتيد » وجعلهما بمعنى واحد . ومن التلاميذ من لا يفرقون
بين « الظرافة » من الظرف ، « الزرامة » للحيوان المعروف ، بين الزكاه للنهأ
والذكاه ضد النباوة ، وبين ذل ، زل .

(د) كلمات تختلف دلالاتها باختلاف السياق ككلمة « صاحب » التي

يسمى بها الطفل في عبارة مثل « صاحب البيت » أي المالك ، ويسمى مرة أخرى
تشير إلى صديقه في مثل « صاحبك » . وأسبق هذا النوع من الكلمات إلى
محيط الطفل تلك التي يسميها بالضمائر . فالطفل يسمع أباه يقول « أنا » ويسمع
أمه تقول « أنا » ويسمع الخادم يقول « أنا » ، فلا يدري أي هؤلاء هو « أنا »
الحقيقي ؟ ولا ندهش من أجل هذا أن نسمع طفلاً يقول لأبيه [أنا روح]
يريد [أنت اذهب] ، أو حين يشير إلى نفسه بالضمير « أنت » ويقول [أنت
نزيه] أي أريد أن أنام . ويزيد بعض الكبار صعوبة هذه الضمائر حين
يستعملون في خطاب الأطفال الأسماء بدلاً منها فيقولون مثلاً (توتو دحة)
و « توتو » هنا طبعاً اسم الطفل ، فيعوقون سيطرة الطفل على الضمائر والفرقة
بينها . وقد كان بعض فلاسفة الألمان يحتفل باليوم الذي يستطيع فيه طفله
استعمال الضمير « أنا » ، متخذاً من هذا دليلاً على بدء شعور الطفل بكيانه
وسقلاله .

ومما يعقد الأمر على أطفالنا في تلك الضمائر ، المتصلة منها والمنفصلة ، فيطال الضل بتمر فيها إلى سن الثالثة أو الرابعة أحياناً . ويقول الطفل مثلاً « توتوخد اللعبة من انت » بدلا من « ملك » ، أو يقول « من أنا » بدلا من « منى » ، و « جزمة انت » بدلا من « جزمتك » ، و « من هو » بدلا من « منه » وهكذا ...

فليس الأمر كما يتصور بعض الدارسين من أن الطفل يسيطر على دلالة الألفاظ في غير عنت أو مشقة ، بل الصحيح أنه يصادف في هذا صعوبات كثيرة تظل تلازمه زمنا طويلا . فقد يسيطر على الأصوات وتراكيب الجمل وطرق النفي والإثبات والتوكيد وغير ذلك من المظاهر الصوتية أو النحوية قبل التحاقه ببعض المدارس . فلا يكاد الطفل الأوربي يمر بمرحلة التعليم الثانوي حتى يصبح الخطأ في مثل هذه الظواهر أمراً عبر مألوف ولكن الطفل فيما يتماق بالدلالات يظل يتمر فيها طول حياته ، ويختلف فهمه لها مرحلة بعد أخرى ، وهي تصيق حيناً ، وتوسع حيناً آخر ، وتتحدد وتنوع وتتمو مع الزمن ، فلا يكاد يسيطر على بعضها بعد سن معينة حتى يصادفه سيل جارف منها يتألف الصراع معها . فنحن نقضى كل حياتنا في صراع مع تلك الدلالات ، ويندر أن يسيطر أحدنا على دلالات كل الألفاظ الالفة ، بل يكاد يكون هذا مستحيلاً .

وتعد أجزاء الجسم من أسبق الألفاظ إلى سماع الطفل ولسانه ، فهو يعرف كل أو جل أجزاء جسمه في سن الثانية : كالعين والأنف والأذن والإصبع والظفر والرجل واليد والبطن والرأس والشعر .

وهي لذلك تعد من أقدم الألفاظ في اللغات البشرية . ويكفي أن نقارن بين ألفاظ عدة لغات من فصيلة واحدة ليتضح لنا أنها تشترك في مثل هذه الألفاظ ، لأنها استمدت من الأم الأصلية لهذه اللغات ، فأنحدرت إليها جميعاً

على صورة واحدة ودلالة متحدة . فحين نقارن بين العربية والعبرية ونستعرض
منهما تلك الألفاظ التي تدل على أجزاء الجسم تراها في اللفتين متحدة
الصورة والدلالة:

أذن = אָזן	شعر = שֵׁעָר	رأس = ראש
فؤة = פֶּה	عين = עֵינַיִם	أنف = אֵיף
يد = יָד	شفة = שֵׁפָתַיִם	دقن = דִּקְנָן
جسم = גִּישָׁם	بطن = בֶּטֶן	رجل = רֶגֶל
	كف = כַּף	كبد = כִּבְדָא

وتنتقل دلالات هذه الألفاظ القديمة إلى الجسد فتتصور للكرومي رجلا
وبدأ ، ونقول مثلاً : أسنان المشط والمذشار ، يد السكين ، عين الإبرة ، آذن
الإبريق ، فم النهر ، عنق الزجاج ، لسان الحزمة . ونحو ذلك من مجازات
واضحة الملافة سهلة التفسير يتقبلها الطفل الصغير دون عراية أو دهشة ، لأن
الاستعمال الجديد يشترك في الظهر الخارجي مع القديم . ويساعد على تقبل الطفل
لهذا النوع من المجاز أنه يعيش زمناً غير قصير في عالم الخرافات والخيال ، وبشخص
الأشياء فيجعل منها مخلوقات حية أو شبه حية .

وبعد هذا الانتقال في الدلالة من المجازات العامة ، التي تنشأ بين أفراد
البيئة اللغوية ، رغبة في توضيح الحديث وإبراز صورته . ولا تتطاب تلك
المجازات من جمهور الناس مهارة خاصة ، أو حدقا خارقا للعادة للاهتمام إليها ،
فليست كذلك المجازات التي يتكبرها الشعراء والكتاب ، ويجهدون قرائحهم
في الفوص عنها . ولذلك تعد تلك المجازات من أقدم أنواع المجاز ، فلم تعد تثير
في الأذهان عراية أو طرافة ، وأصبحت بعد شيوعها من الحقيقة .

وكما يستعير الناس أجزاء الجسم ويخلعونها على الأشياء ، قد يستمرون أيضاً
أجزاء الحيوان والنبات ويلصقونها لأجساد فيقولون مثلاً :

جناح الطائرة ، ذيل الفستان ، جذور الأسنان .

وهكذا يمرن الطفل منذ صغره على نقل الدلالة من مجالها إلى مجال آخر ،
ويدرك أن الدلالة لا تكاد تستقر على حال واحدة ، وأنها قابلة للتغير والتطور .

وكثيراً ما يعتمد الطفل في فهم الدلالة على الاستنباط من سياق الحديث
والحوادث ، فيحدد قيمتها على حسب فهمه واستنباطه ، وترتبط في ذهنه بتلك
التجارب السابقة التي تعلم منها اللفظ .

وقد يسأل الطفل عن دلالة لفظ من الألفاظ فيجيبه أبوه أو أمه إجابة دقيقة
أحياناً وغامضة أحياناً ، فتأخذ الدلالة في ذهنه حدوداً خاصة تختلف في كثير
من الأحيان عما في أذهان الكبار حوله .

فدلالات الأشياء ترتبط في أذهان الأطفال بتجاربهم السابقة ارتباطاً وثيقاً ،
وعلى قدر اختلاف تلك التجارب تختلف الدلالات في أذهانهم . فالطفل الذي
تعود منذ صغره أن يكون له كلب صغير يذله ويؤاكله ويلعبه ، وقد بنام معه
في سريره ، يدرك من دلالة لفظ « الكلب » غير ما يدرك طفل آخر كل تجاربه
مع الكلاب تغلخص في أن أحدها قد عضه في رجله في يوم من الأيام .

والطفل في القرية الذي تعود منذ صغره أن يقود البقرة أو الجاموسة إلى الحقل ،
ويدار لها طعامها ، ويداعب قرونها وقد يركب عليها ، يدرك من مدلول هذين
اللفظين حدوداً من الدلالة واضحة التفاصيل والعالم ، في حين أن الطفل بالمدن يظل
زمناً طويلاً غير مستطيع التمييز بين البقرة والجاموسة ، وتبقى دلالتهما في ذهنه
غامضة ولتأ غير قصير .

وموقف الأمم البدائية من دلالة الألفاظ يشبه إلى حد كبير تلك المرحلة التي

فيما نرى الأطفال لا يكادون يميزون بين الدلالات السلبية والدلالات الخاصة ،
والتي لا يتصورون عندها أنه من الممكن أن يوجد في الدنيا أب غير أبيهم أو أم
غير أمهم أو سرير غير سريرهم ، فالكلمات عندهم أعلام أو ما يشبه الأعلام ،
لا تطلق إحداها إلا على شيء معين .

فيحدثنا بعض الباحثين ممن درسوا لغات الأمم البدائية أن الهنود الحمر ليس
لديهم كلمة يمكن أن تطلق على شجر البلوط بأنواعه المختلفة وألوانه المتباينة
واسكنهم يختصون « البلوط الأسود » بكلمة معينة ، والبلوط الأحمر بكلمة أخرى
لأنه الأولى بأي صلة ، فهم لا يكادون يدركون الدلالة السلبية للأشياء ، بل
يتخذون لكل نوع كلمة خاصة تدل عليه . وما تدل عليه كلمة مثل « شجرة »
لا مفهوم له في أذهانهم ، وإنما الذي يدركونه هو نوع معين من الشجر ، كشجرة
الكاهور أو شجرة الموز أو شجرة التوت ، فكل من هذه الأنواع كلمة خاصة
في لغتهم .

كذلك يحدثونا أن الهورونيين (سكان أمريكا الشمالية) ليس في لغتهم
ما يعبر عن عملية الأكل بمعناها العام واسكنهم يتخذون لأكل اللحم كلمة خاصة ،
ولأكل الخبز كلمة أخرى ، ولأكل الموز كلمة ثالثة وهكذا .

وما حدثونا به أن سكان جزيرة تسانيا (قرب استراليا) لا يكادون
يستعملون اللغات بمعناها العام ، فصفة الطول لا وجود لها بين الناظرين ، وهم من
أجل هذا يلجأون إلى التشبيه للتعبير عن هذه الصفة ويقولون ، مثلاً هو « كالشجرة
أو النخلة » أي أنه طويل أو مفرط في الطول

وفي بعض لغات وسط أفريقيا اختلط الأمر على أصحابها ، ولم يربطوا بين
الأشياء التي من نوع واحد فلم تتكون لها في أذهانهم دلالة كلية ، فليس لديهم

كلمة للتعبير عن « السمك » بأنواعه ، ولكنهم يعطونهون كلمة خاصة لكل نوع من أنواع السمك المعروفة لهم . وقد أدى هذا إلى أن لتهم قد خات أو كادت من الفكرة المجردة للجمع ، فلا يجمعون الاسم المفرد ، أو يتخذون للجمع صيغة مخالفة لصيغة المفرد ، فإذا اضطروا في النادر من الأحيان للتعبير عن الجمع أو الكثرة لجأوا إلى وسائل أخرى غير مألوفة في اللغات المشهورة^(١) .

كذلك مما حدثنا به هؤلاء الدارسون أن بعض القبائل في وسط البرازيل يتخذون كلمة خاصة لكل نوع من أنواع البيضاوات ولكل نوع من أنواع النخيل ؛ وأن الموهابيين *mohicans* لا يعرفون كلمة للتعبير عن القطع بمعناه العام ، بل تختلف الكلمة عندهم باختلاف القطوع ، وأن قبيلة « الزولو » تصطنع كلمة خاصة للبقرة البيضاء ، وأخرى للبقرة الحمراء ؛ وأن « شيروكي » يختلف الفسيل باختلاف الفسول فلابهم كلمة لفصل البد وأخرى لفصل الثوب وثالثة لفصل الأطباق !! .

وليس في كثير من اللغات البدائية كلمة للاخ ، بل هناك كلمة للاخ الكبير وأخرى للاخ الصغير .

كذلك يقال لنا إن كلمات الألوان في « ليتوانيا » تختلف باختلاف الشيء الملون ، فكلمة « الأرق » حين يوصف بها العصف تتخلف عنها حين يوصف بها البحر . ويشبه هذا ما نعرفه عن كلمة « أدهم » العربية التي يوصف بها الفرس الأسود ، ولكن لا يقال عن الثوب الأسود إنه ثوب « أدهم » مثلاً !

ومما يروى لنا من لغات « أميرندا » أن الفاظ الأعداد فيها تختلف باختلاف المدود . ويشبه هذا ما يزال شائعاً حتى الآن في بعض اللغات من حيث المقاييس والموازن .

وأحيراً وليس آخراً فقد ظهر لهؤلاء الدارسين أن الشمر الفوطى Gothonic
يشتمل على كلمات مترادفة كثيرة للتعبير عن [السيف والبحر والمركبة والأبطال]
ونحوه - إذ مما نصمته ملاحظهم . وكانت كل كلمة من تلك المترادفات تتميز
بصفات معينة ، ثم تدوسيت تلك الصفات فتولد الترادف بين كلمتين أو أكثر ،
أي أن ما حدث في بعض المترادفات العربية حدث مثله في لغة الشمر « الفوطى » ،
في العربية مثلاً ألفاظ كثيرة لاسيف رويت لنا على أنها ألفاظ مترادفة ، ولكن
كلامها كان في وقت من الأوقات يتميز بشيء ليس في الألفاظ الأخرى .
فلما أهلت الفروق أو نسبت نشأ الترادف بين ألفاظ السيف .

وفي رأى هؤلاء الدارسين أن أوضح ما نتصف به اللغات البدائية هو ذلك
العدد الوفير من الألفاظ يمكن الاستغناء عنها لو أن الفكرة السكائية و الدلالة
قد انضجت في ذهن أصحاب هذه اللغات . ومع ما بها من ألفاظ لا حاجة إليها
تمورها الألفاظ كثيرة جداً للتعبير عن الدلالات المجردة والمعاني العقابية السامية .
واعلم ما يسيطر على هؤلاء القوم من التطير والتفاؤل والتشاؤم كان من أهم
الأسباب في كثرة كلماتهم ذات المعاني المتقاربة . فكثيراً ما يهجرون الألفاظ
ويبتغون أخرى مكانها للتعبير عن نفس المعنى .

الدلالة لدى الكبار

حدود الدلالة :

هناك أمور ثلاثة يجب التمييز بينها وهي : اللفظ ، الشيء ، الصورة الذهنية .
كلمة « التفاح » لفظة تتكون من عدة أصوات يعرف دارس الأصوات
كيف تصدر من الفم ، وصفات كل صوت منها ، وما تحدثه من اهتزازات

وذبذبات حين النطق بها . ولا الشئ ٤٠ بالنسبة لكلمة التفاح هو تلك الفا كلمة اللذيذة المعروفة ، أما الصورة الذهنية فهي ما يتصوره كل منا حين نسمع تلك الكلمة . والربط الحقيقي لا يكون إلا بين الشئ وصورته الذهنية ، أى أن اللفظ شئ أجنبي عنهما اتخذ دليلاً عليهما أو رمزاً لهما ، ولكنه اكتسب مع الزمن صفة سميت به فوق اعتباره مجرد رمز من الرموز .

ونحن في تجاربنا العادية نعرف على التفاح للمرة الأولى برؤيته والاستمتاع بأكله ، ونحدد له في أذهاننا صورة ندعوها كما سمينا هذا اللفظ ، وتكرر تجاربنا مع التفاح فتزداد تلك الصورة الذهنية وضوحاً ، ونصاف أنفسنا حينئذ بأننا ندرك دلالة هذا اللفظ .

وتعمود منذ العصور على التمييز بين الصفات الأساسية والصفات المرضية لهذا الشئ ، فلا نتخذ من الحجم أو اللون صفة مميزة للتفاح ، ولا نخطئ بين التفاح والكمثرى والبرتقال ، بل نستطيع الطفل الصغير أن يميز بينها بسهولة بمجرد رؤيتها . فالصورة الذهنية لكل منها واضحة جلية ، غير أنه حين نسأل أنفسنا عن تلك الصفات الأساسية التي نجمعها لاسمى التفاح تفاحاً ، والتي نعيه من البرتقال مثلاً ، نجد أنفسنا في حيرة وبصم علينا وصفها أو تحديدها ، بل إنها تطاب عالماً إحصائياً ليحدد تلك الصفات تحديداً دقيقاً^(١) . ونسكتفي في غالب الأحيان حين نسألنا أحد الناس عن معنى التفاح ، بأن نعرض عليه تفاحة ، أو أن نصفها وصفاً تقريبياً بعيداً عن الدقة ومشتملاً على بعض الصفات المرضية . ويتقبل السامع هذا الوصف التقريبي ويقنع به ، بل قد يستعمله حين يسأل عن معنى التفاح دون محاولة الفحص عن دقائقه وحدوده المميزة .

ولا يجد المرء متسماً من الزمن أو فرصاً من المعرفة ليتعرف على كل ما حوله في صورة دقيقة العالم والحدود ، وهو مع ذلك في حاجة إلى التعبير عما حوله

في حديثه اليبوي مع أمداد بيثته . ولذا يقنع بما يشيع بين الناس من فهم قاصر للدلالات ، وبظل يتعامل بها معهم حتى تتاح له فرص من العلم يدرك بعدها أن فهمه لتلك الدلالات، كان غير دقيق ، فكأننا نعرف معنى السكر وإن صعب علينا وصفه ، وإن دارس الكيمياء يعرف كيف يتكون ، وهم يتكلمون ، ويؤلف لنا معادلة كيميائية تعد في الحقيقة التعريف الصحيح الدقيق لهذا الشيء المؤلف لنا جميعا .

على أنه إذا أمكن لدارس الكيمياء أن يحدد لنا معنى «النح» أو «السكر» فسنظل في حيرة أمام تلك الدلالات الجردة كالحب والسكر والسمادة ، وغير ذلك من ألفاظ تكون الأكثر الغالبة في معظم اللغات . فالدلالات تنمو معنا ، وتتحدد معالمها على قدر ما نصل إليه من معرفة . فدلالات الأطفال هي أطفال الدلالات ، نديناها منذ صغرها ، ونفذيها بما يتاح لنا من علم وتجارب ، فتتغير وتتطور مع الزمن حتى تستقر على حال معينة في ذهن كل منا .

ونكتسب القلة من الدلالات هذا الاستقرار منذ التجارب الأولى ، وإن كان الكثير منها يتطور مع الزمن ومع التجارب المتعددة . فالحوت يظل في أذهاننا في صورة السمكة الكبيرة حتى نتعلم شيئا عنه فنذكر أنه حيوان ندي يتنفس الهواء مباشرة .

وتقنع كبل لغة بذلك الفهم التقريبي ، ويقنع معها اللغوي عادة بما يشيع بين الناس من دلالات قاصرة ، فيضغ معجمه ويفسر ألفاظه على قدر فهم جمهور الناس لها ، لا على قدر فهم العلماء المتخصصين تاركا تلك الدلالات الدقيقة المعاجم العلمية وكتب المصطلحات .

وتتأثر الدلالة في نموها وتطورها بعوامل أوضاعها أنها تختلف لدى كل منا باختلاف التجارب التي نمر بها ، والظروف المحيطة بهذه التجارب . فالطفل يرى التفاح للمرة الأولى في صورة معينة وفي حجم معين ولوز معين ثم تتكرر

تجاربه ويراها في صورة أخرى، وظروف أخرى، مرة وهو سليم معافي وأخرى وهو مريض لا يشتمى، فلا تكاد تتفق التجارب في حياتنا إزاء شيء معين. ويتكون في آخر الأمر من كل تلك التجارب المختلفة لدى كل منا صورة ذهنية معينة، نستحضرها كلما سمعنا لفظ التفاح. فمنا من يستحضر صورة التفاح لدى سماع لفظه، كبير الحجم أحمر وقد وضع في إناء بلورى كبير، ومنا من تكون صورته الذهنية عن التفاح أن نصفه أحمر ونصفه أصفر، وفريق ثالث يستحضرون صورة ذهبية عن التفاح الأصفر الذهبى اللون.

ومتى سلمنا باختلاف تجارب المرء نفسه في الظروف المختلفة، فأجدر بنا أن نسلم باختلاف التجارب باختلاف الأشخاص. فالصورة الذهنية عن المهرات في ذهن الفلاح غيرها في ذهن أهل المدن. فليس منا من لم ير المطر أو يجرب سقوطه تجارب لا حصر لها وفي ظروف لا حصر لها أيضاً، فإذا سمع لفظ المطر أدرك مدلولها، ولكلنا وقد اختلفنا في التجارب المرتبطة بهذه اللفظة يتكون في ذهن كل منا دلالات مختلفة في نواح ومنتجة في نواح أخرى، ولا يقال حينئذ إن دلالة المطر في أذهاننا متحدة، بل تصطبغ في ذهن كل منا بصبغة خاصة.

هذا إلى أننا نختلف في أجسامنا بين صحة ومرض أو ضعف وقوة، ونختلف في تركيب أعصابنا وأمزجتنا، وفيما يرثه كل منا من أبويه وأجداده، ويترك كل ذلك أثراً كبيراً في فهمنا للأمور، ونحددنا للدلالات. وهكذا نرى أن الدلالة أمر فردى لا تكاد تتحد فيه الأذهان؛ بل تقابن تبايناً كبيراً.

ورغم كل ذلك لا يقف اللغوى أمام تلك الدلالات المتباينة مكتوف اليدين، بل يحاول تحديدها في معجمه على أساس مشترك بين جمهور الناس، أو بين طبقة متميزة منهم، وقد يلجأ في تحديد الدلالة إلى خبرة الخبراء وأهل العلم فيستعين بمعلوماتهم في تحديدها، ويكون وصفه لها أقرب إلى المصطلحات العلمية.

ولكن الناس في حياتهم العامة يعمدون إلى التعاون والتفاهم ، ولا يمكن أن يتم هذا إلا بعد أن يتنازل كل منهم عن تلك الفروق التي تميز شخصاً من شخص ، أو فهماً من فهم ، حتى يمكن أن يتحقق التعاون بين أفراد المجتمع . ومع ذلك فكثيراً ما يحدث الشقاق بين الناس ، ويشتد النقاش والجدل نتيجة تلك الفروق التي في ذهن كل منهم عن دلالات الألفاظ .

ومع قدر من هذا التسامح والتنازل يستطيع اللغوي أن يحدد الدلالات في معجمه ، وأن يقول إن لفظ كذا مدلوله في اللغة العربية مثلاً هو كذا ، دون التمرض لقوة هذه الدلالة ، أو ضعفها ، ودون الإشارة إلى وضوحها أو إبهامها ، لأن مرجع كل هذا إلى الأفراد وتجاربهم المختلفة .

وأذكر بهذه المناسبة أن صحفياً طاب إلى في يوم من الأيام أن أخبره عن « أحزن » كلمة و « أمر » كلمة في اللغة العربية ! لحدثته عن أن هذا يختلف باختلاف تجارب الأفراد ، وأنه ليس هناك شيء يسمى « أحزن » كلمة أو « أمر » كلمة في اللغة العربية ، وإنما الواجب أن يسأل فرد عن « أحزن » كلمة في قاموسه « وأمر » كلمة في هذا القاموس الخاص

ومن هنا جاءت فكرة المركز والهامش في الدلالة ، وهو ما سنحاول علاجه في الفصل التالي .

الفصل السادس

المركز والهامش في الدلالة

يعيش الناس في مدينة القاهرة حياة اجتماعية تتضمن قدرًا كبيراً من التعاون وتبادل المصالح ، فيتصل بعضهم ببعض ، وينتفع بعضهم ببعض ، ولا يقتصر هذا الاتصال أو تلك المنفعة على حدود ضيقة كالأسرة أو الأقارب ، بل يسمي الفرد منهم وراء رزقه ومصالحه يوماً في شمالها وآخر في جنوبها ، وساعة مع بائعها ، وأخرى مع موظفيها ، ويتخذون في هذا الاتصال وسيلة واحدة هي اللغة التي تفقظهم جميعاً ، وتيسر عليهم ذلك التعاون الاجتماعي المنشود ، وهم مع هذا ربما نشأوا في بيئات مختلفة ، وتأثروا بتجارب متباينة في حياتهم السابقة ، مما قد يترك أثرًا قويًا في فهمهم للألفاظ ، واسكنهم رغم ذلك يتعاملون بتلك الألفاظ ، ويتنازل كل منهم عن تلك الفروق التي تلون الدلالات بلون خاص في ذهن كل منهم ، ويقنعون في تلك الحياة الاجتماعية بقدر مشترك من الدلالة يصل بهم إلى نوع من الفهم التقريبي الذي يكفي به الناس في حياتهم العامة .

وهذا القدر المشترك من الدلالة هو الذي يسجله الانوى في معجمه ، ويسميه بالدلالة المركزية ، وقد تكون تلك الدلالة المركزية واضحة في أذهان كل الناس كما قد تكون مبهمة في أذهان بعضهم . ويمكن أن تشبه الدلالة بتلك الدوائر التي تحدث عقب إلقاء حجر في الماء ، فما يتكون منها أولاً يمد بمثابة الدلالة المركزية للألفاظ ، يقع فهم بعض الناس منها في نقطة المركز ، وبعضهم في جوانب الدائرة أو على حدود محيطها . ثم تتسع تلك الدوائر وتصبح في أذهان القلة من الناس وقد تضمنت ظلالاً من الماني لا يشركهم فيها غيرهم .

وأقصى ما بطمع فيه العاوي هو أن يجعل تلك الدلالة المركزية واضحة في أذهان الناس ، ولذا يعمد إلى ذلك القدر المشترك فيجده ويشرحه في مجمله ، مستمينا في هذا بطبقة المثقفين من جمهور الناس ، ومتخذاً منهم نماذج الدلالة في ذلك المعجم .

فالدلالة المركزية لكلمة مثل « الشجرة » تتضح في ذهن الطفل منذ السنين الأولى من حياته ، وتظل واضحة و ذهنه طول حياته دون زيادة كبيرة في دلالتها المركزية ، في حين أن كلمة أخرى مثل « الحزن أو الغضب » تتطور دلالتها المركزية معنا ، وتأخذ وضعاً في طفولتنا غير الذي تأخذه في شبابتنا ، ثم تستقر على حال معينة في شيخوختنا .

ومع اختلاف كثير من الناس في تلك الدلالة المركزية ، لا يعرفهم هذا الاختلاف عن التفاهم وتبادل وجهات النظر ، لأنه خلاف في نسبة الوضوح لتلك الدلالة ، فهي عند بعضهم أوضح منها عند آخرين ، ولكنهم على كل حال واضحة ووضوحاً كافيّاً عندهم جميعاً .

أما الدلالة الهامشية فهي تلك الظلال التي تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم وتركيب أجسامهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم | فالتكلم ينطق باللفظة أمام السامع محاولاً بهذا أن يوصل إلى ذهن السامع دلالتها ، فتثبت تلك اللفظة في ذهن السامع دلالة معينة اكنسبها هذا السامع من تجاربه السابقة ، ويفترض بعد سماعها أن مادار في خلد هذا المتكلم بطابق تمام المطابقة ما يدور بخلده . فهو لم يتعامل في عقل ذلك المتكلم ، ولم يكشف عن حقيقة ما يجول في ذهنه ، ولم يقف على حدود دلالاته وما حوّلها من ظلال أو هالة ، وإعنا بني فهمه وأسسها على تجاربه هو وفهمه الخاص لتلك اللفظة .

فهناك شاب يسمع لفظ « السدس » ويدرك من توه دلالاته المركزية ، ولكن هذا اللفظ لا يشاركه بغير مع دلالاته المركزية ، شيئاً من ظلال المعاني ،

أوربا يذكره بطفولته وملاعب صباه حين كانت له لعبة صغيرة في صورة « السدس » يطلقها في الهواء فتبعث شرراً أو تقذف قطرات من الماء أمام لدائه من الأطفال ، والجميع يضحكون ويمرحون ، وهو بلاعبته نحور مسرور .

وهناك شاب آخر مر به في حياته حدث اليم رأى فيه مجرمًا أنها يصوب مسدسًا نحو أبيه أو أحد أقاربه ، ثم يطلقه فينبعث منه طلق يدوى في أنحاء المكان ، ويخر الأب بعده صريعاً تتدفق الدماء من صدره . فلفظ السدس أمام هذا الشاب لا يصور تلك الدلالة المركزية وحدها ، بل يبعث في ذهنه صورة بنيضة مؤلمة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي تجول في ذهن زميله الآخر .

وامظ « البنسايين » أمام قروي صحيح البدن إن دل على شيء فإنما تقتصر دلالاته على نوع من الدواء سمع عنه أو رآه ، ولكن نفس اللفظ يقع من أذن المريض وقمًا آخر بعد أن جرب آلام الحقن عدة مرات ، وقامى عذاب المرض زهناً ما ، فأحيط لفظ البنسايين في ذهنه بظلال من المعاني لا أثر لها في ذهن القروي .

وأصحاب الأمزجة المرحة يسمون لفظ « الموت » فلا يفزعهم ، في حين أن المشائم يجفل لدى سماعه ، وترنم فرائضه ، وقد يتصور ملاك الموت مقبلاً عليه في صورة بشعة مخيفة .

من أجل هذا اختلفت الدلالة الهامشية باختلاف تجارب الناس وأمزجتهم وما ورثوه من أسلافهم .

فبينما تجمع الدلالة المركزية بين الناس ، تفرق بينهم الدلالة الهامشية ، وبينما تساعد الأولى على تكوين المجتمع وتعاونته وقضاء مصالحه ، قد تعمل الثانية على خلق الشقاق والنزاع بين أفرادها . ولكن الناس في حياتهم العامة يعتمدون على الدلالات المركزية ويكتفون بها عادة ، وهو من يمن الطالع أو رحة الخالق

عباده، وإلا كانت الحياة جعباً لا يطاق، كلها شقاق وتزاع وسوء فهم بعضهم لبعض.

وتعود الدلالة الهامشية في بعض مجالات الحياة، وتصبح حينئذ شراً مستطيراً لبني الإنسان. وأوضح مجال للدلالة الهامشية المجال السياسي.

المجال السياسي :

هنا تفرق الدلالة الهامشية بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتفقر الشعوب بعضها من بعض، وتقيم بينهم أسواراً وحواجز، بل قد تدفعهم إلى الحروب وويلاتها. فالدعواتية كدظام سياسي يفهمها الروسي فهماً مبادئياً لفهم الأمريكي لها، والاشتراكية عند الإنجليز غيرها عند الألمان أيام هتلر، والحرية لدى هؤلاء وهؤلاء تتخذ مظاهر متباينة

ويعمد السياسيون أحياناً إلى شحن تلك الألفاظ السياسية بقدر كبير من الدلالات الهامشية، ويستغلونها أسوأ استغلال في دعاتهم، وفرض آرائهم وعقائدهم على جمهور الناس. فالعدائي يجهلون إرهابياً، والوطني قد يصفونه بالتهور المتعصب، والمهزئة بصورتها في صورة الفعير المبين.

فألفاظ السياسة فوق أنها ألفاظ كاذبة الدلالة في غالب الأحيان تحاط عادة بهالة من الدلالات الهامشية التي تؤثر في عقول الناس ونفوسهم، وتوجههم توجيهاً معيناً نحو الخير حيناً ونحو الشر أحياناً.

وإذا صح ما يقوله بعض علماء الفرنسيين من أن الإنسان إنما يتكلم ليخفي ما يدور في ذهنه، فليس ينطبق هذا القول على شيء مثل انطباقه على لغة السياسة ومؤتمرات السياسيين. فإيها يحتدم النقاش، ويشتد الجدل حول مدلولات الألفاظ لأنها شحنت في أذهان التزعمرين بظلال من المعاني تفرق بين وجهات النظر وقد تؤدي إلى فشلهم في الوصول إلى حل من الحلول.

وفي مثل هذه المجالات السياسية لا تحقق اللغة الهدف الأساسي لها ، بل تصبح
نقمة على بني الإنسان ، وهي التي أريد بها أن تكون نعمة لهم .

ولا تفشل المؤتمرات الحماسية لتبائن العقائد والمبادئ وحدها ، بل كثيراً
ما تفشل لتبائن دلالات الألفاظ ، وما تتضمن في الأذهان من دلالات
هامشية مختلفة

أمام القضاء والمحاكم :

تهدف الشرائع السماوية والقوانين الوضعية إلى الوثام والتعاون وتبادل المصالح
بين الناس ، ولكن الناس لا يزالون يختمصمون ، لا فطر عليه بعضهم من شر
أو أنانية . ولكن ذلك الخمصام يزداد اشتعالاً ، ويمتد لهبه نتيجة تلك الدلالات
الهامشية التي تختلف في أذهانهم وتباعد بينهم . ويشهد القضاء كل يوم صراعاً
قريباً نشأ عن تلك الدلالات الهامشية ، فيحاول المشرع سد الثغرات ، وتحدد
الدلالات ولكن هيئات .

حتى الألفاظ القرآنية تراها أحياناً مثار النزاع في تفسيرها بين الأئمة وعلما
الشريعة ، فهم جميعاً يقرأون : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ،
ويختلفون في مداول « القراء » ، ويرتبون على هذا الخلاف أحكاماً شرعية .

ولعل رجال القانون يدركون أكثر من غيرهم أثر تلك الدلالات الهامشية
في النزاع بين الناس . فيسمع القاضي للمتخاصمين وقد احتدم بينهما الجدل
لا شيء سوى أن أحدهما قد دلون دلالاته للفظ من الألفاظ بلون خاص ،
واصطبغ هذا اللفظ في ذهن الآخر بصبغة أخرى ، ثم يحكم القاضي متأثراً في
حكمه بدلالاته الخاصة ، وفهمه الذي اكتسبه من تجاربه السابقة ، لا تجارب
المتخاصمين أو فهمهم .

وقليل من الألفاظ القانونية تلك التي تكلمت صيغة الاصطلاح ، فتصبح كالمصطلحات العلمية في الهندسة أو الكيمياء أو الطب ، وذلك لأن الكثرة الزائدة من الألفاظ القانونية تتمثل اتصالاً وثيقاً بحياة الجمهور ومعاشهم ، وتصف مشاكلهم ، وتدبر شئونهم ، وترعى مصالحهم . فالألفاظ الخطابية هي الألفاظ القانونية في غالب الأحيان . والقانوني يحاول في تشريعه أن يحدد معالم تلك الألفاظ ، ويبقى في هذا من العنت والمشقة الشيء الكثير ، ولكن الناس مع هذا لا يزالون يختصمون .

فالمشرع ينص على وجوب « إعلان المدعى عليه في موطنه » ، قائماً بمثل هذا النص ، معتقداً أن كلمة « الوطن » ذات دلالة محددة في أذهان الناس ، ثم لا يثبت أن يخيب ظنه حين يفد المتقاضون يتنازعون حول هذه الكلمة التي لها في أذهانهم ظلال من المعاني متباينة .

وليس من الضروري أن تفرض الغالطة في كل نزاع من هذا النوع فقد يكون النزاع حول مدلول اللفظ عن عقيدة وإيمان بين كل من المتخاصمين .

فالقضاة والمحامون يتضون نصف حياتهم أو حياتهم كلها في صراع مع تلك الألفاظ ومدلولاتها ، وحُدود تلك الدلالات ، فيوفقون حيناً ويفشلون حيناً آخر .

يقف الدائن ويمتن أن مدينه أملس ، فيصر الخصم على أن هذا لا يسمى إفلاساً ، وهنا يشتد الجدل حول معنى « الإفلاس » !!

يقف المتقاضون فيدعى بعضهم أن المبلغ كان بمثابة تأمين ، فيصبح الخصم بل وديمة ، أو أنه بمثابة « عربون » فيقول الخصم بل هو « خلو رجل » ! ! ولذا لا ندهش حين نقرأ تلك الذكريات المسهبة التي يحاول فيها القانوني شرح لفظ من الألفاظ وتحديد دلالاته .

فمما يه « النصب » قد يفسرها المحامي أحياناً بأنها لا تعدو أن تكون « كذبا » جاز على عقل أحد الغفابين ، ولا يحمي القانون أمثال هؤلاء الغفلين !

بل قد تكون الدلالة للفظ من الألفاظ مسألة حياة أو موت ، فكلمة « العمد » تكون ركناً أساسياً في الجنايات الخطيرة . فإذا اقتنع القاضي بنية « العمد » في سلوك الجاني فقد يدفع به إلى حبل المشنقة ، وإلا تحوات الجناية إلى جنحة ، وعدت الجريمة من قبيل الخطأ . ولكن هل من اليسير تحديد معالم تلك الدلالة الهجدة في كلمة « العمد » ؟ أليس مرجعها أولاً وقبل كل شيء إلى النية وإلى الضمير ؟ ولا غرابة إذن حين يثبت ركن العمد عند قاضٍ ويفتق عند آخر في نفس الجريمة ، لأن دلالة « العمد » في ذهن كل منهما متأثرة بتجاربهما الخاصة ، وبتلك الظلال الهامشية التي تختلف باختلاف الناس .

ففي كل يوم نقرأ على صفحات الجرائد عن جدل ثار أمام القضاء حول تفسير لفظ أو مدلول كلمة . والاصد قانون التشرد حار رحال القانون في تحديده وتكييفه حتى استقرت دلالاته أو كادت بعد حين من الزمن . ومنذ صدور قانون القمار والمحاكم في صراع حول حدوده ، ولا يزالون حتى الآن يختلفون في مدلول « القمار » الذي عناه الشرع وأوجب تحريمه .

وعلى قدر ما يتاح للمرء من تجارب تصطبغ دلالاته بصيغة خاصة وتتلون بلون خاص ، ونحاط بظلال من العاني لا يشركه فيها غيره من الناس . وتصبح وقد شحنتها تلك التجارب بما نحيه بالدلالة الهامشية .

وليس تقتصر تلك التجارب على الأحداث وفرص السماع . بل إن الرقي العقلي ، وما يكنه به المرء من علم ومعرفة ، وما يتاح له من فرص ثقافية ، كل هذا يترك أثراً قوياً في دلالاته ، وبصيغها بصيغة متميزة ، فليست كلمة « البيع »

في دهن البائع المتجول تؤدى ما تؤديه في دهن امتداد كنجيب الهلالى الذى أخرج
لدى كتاباً ضخماً جعل عنوانه « الببيع » ، وعالج فيه تلك العملية الشرائية التى تنم
بين الناس صغيرهم وكبيرهم في كل لحظة من لحظات النهار وطرفاً من الليل .

وهل « الملكبة » في دهن رجل أى من أصحاب الأملاك أو الضياع ،
هى « الملكبة » التى كانت في دهن الدكتور كامل مرمى حين ألف كتابه المشهور
وجعل عنوانه « الملكبة » ؟ .

ولعل من تمة الفائدة أن تشير هنا إلى وقائع معينة ، أو قضايا مشهورة كانت
فيها الدلالة محل نزاع وجدل في تاريخنا الحديث .

فلنقد كر مثلاً محاكمة الشيخ عبدالعزيز جاويش بسبب مقاله المشهور في ذكرى
دشواى ، وما به من العماظ فهمتها النيابة على أنها « إهانة » ، وفسرها الدفاع
على أنها من القذف البياح . وبين ما نثار في تلك المحاكمة من جدل وتقاش بين النيابة
والدفاع حول مدلول الألفاظ بها بشر الدهشة والعجب . ولنقد كر أيضاً كتاب
« وطنيتي » للشيخ الغاماني ومحاكمة محمد فريد والشيخ جاويش لكتابتهما مقدمة
لهذا الكتاب ، وما نثار في هذا الشأن من نقاش وتناوبل ونخريج مرة على لسان
النيابة وأخرى على لسان الدفاع . ولنبتسم مع تلك العبارة التى جاءت صرّين
على لسان النيابة ، ولنسأل ماذا كان النائب يعنى بقوله^(١) . [وهل من أسئلة
الرأى إنهاض المهمم] ١٩ أهلا يدل هذا على أن الجماعة إنما قصدوا إنراض
المهمم . ١٢

ولعل الإمام أباحنيفة حين اشترط لبقاء عقد الزواج أن يكون الزوج كفتاً ،
لم يحظر في ذهنه أن الناس سيختلفون من بعده في مدلول « الكفاة » وحدودها .
ولم يخالف لنا ذلك الإمام المشهور من معالم تلك الصفة التى يجب أن تتوفر

(١) المرافعات و أشهر القضايا حدود عاصم ص ٨٠ ١٠٨ المجموعة الثانية .

في الزوج سوى لفظ « الكفاءة »، وترك الناس بعده يذهبون فيها كل مذهب، إلى أن كانت تلك القضية المشهورة في تاريخنا الحديث حين زوج الشيخ علي يوسف صافية السادات، واعترض ولي أمرها على هذا الزواج. وقد شغلت هذه القضية الرأي العام شهوراً فيها كان الناس يتساؤلون عن معنى الكفاءة وحدودها ووما إذا كان من المقبول المقبول أن يوصف كاتب مشهور من كتاب مصر، وصاحب جريدة المؤيد بأنه غير كفء؟ ولم يشفع له أنه استحق التكريم من حاكم البلاد فتجده الباشوية، ولم تشفع له شهرته السياسية ولا ثقافته ولا ماله.

ومثل هذه القضية تربنا إلى أي حد يمكن أن يختلف الناس في دلالات الألفاظ، عن هوى حيناً، وعن إيمان وعمقيدة حيناً آخر، والدلالة في كتابنا الحاليين قد شجنت بظلال من المعاني، وأحيطت بعصمات هامشية يستمسك بها كل فريق، ويفاضل عنها نضال المستميت.

أمام القضاء الإنجليزي .

كنا في لندن سنة ١٩٣٦ حين أبرمت الماهدة المشهورة، ودعى أحد الصحفيين المصريين لإلقاء محاضرة في النادي المصري، ولا أدري ما إذا كان هو الذي اختار عنوانها، أو اختارته له اللجنة التنفيذية للنادي. وكان عنوان المحاضرة على كل حال [واجبنا بعد المعاهدة]. فتصدى له الأستاذ (ق) وحاول أن يوجه المناقشة نحو البحث في نصوص المعاهدة، معلناً أنه من المستحيل أن نعرف واجبنا بعد المعاهدة ما لم ندرس المعاهدة ذاتها، وتعرف على مزاياها ونقائصها. وكان من المعروف حينئذ عن هذا الأستاذ أنه من المعارضين للمعاهدة، فتكهرب جو المحاضرة. وخشى رئيس النادي والمشرف على المحاضرة الدكتور (م) أن يتورط الأعضاء في نقاش سياسي معارض قد تكون عاقبته وخيمة. فحال بين الأستاذ (ق) ومنعه من الاسترسال في الكلام، فكان بينهما نقاش

حاد تبودلت فيه بعض العبارات القاسية ، وانصرف الأستاذ (ق) مهرداً
مقوعداً .

ثم انعقدت اللجنة التنفيذية لتنظر في أمر الأستاذ (ق) بوصفه عضواً من
الأعضاء ، ورات أن قانون النادي يسمح لها بإحاطته إلى مجلس تأديب ما لم يعتذر
هما صدر منه

وأصر كل على موقفه ، واستحال التوافق ، وتطور الأمر ولم يعتذر الأستاذ
(ق) ، وقررت اللجنة تنفيذ نصوص القانون . وكان لهذا القانون صورتان
إحداها بالمرية ، وأخرى بالإنجليزية فيها ترجمت عبارة « مجلس تأديب »
بالعبارة الإنجليزية Disciplinary Council .

وأحيل الأستاذ (ق) إلى مجلس تأديب ، ووضع القرار في لوحة الإعلانات
بالنادي كما هي العادة في كل قرارات اللجنة التنفيذية .

وهذا رفع الأستاذ (ق) أمره إلى القضاء الإنجليزي مدعياً أن في إعلان
هذا القرار تشهيراً به ، وقذفاً في حقه ترتب عليه خسارة مادية وأدبية . فهو
بوصفه من أصحاب الأعمال في لندن ، وأصحاب السمعة الطيبة بين المتعاملين قد
لحقه من هذا الإعلان ضرر بليغ في سمته وى ماله . وكاف « السير ستانفرد
كربيس » بإقامة الدعوى على أعضاء اللجنة التنفيذية الخمسة ، وكلهم الآن في
مراكز كبيرة ، متضامنين مع مدير البعثات حيثذ والسنشار السياسي للسفارة
المصرية (مع ح .

وكان أهم ما استند إليه الأستاذ (ق) في دعواه أن كلمة « تأديبي »
تعاظر الكلمة الإنجليزية Punitive ، فهي في رابه كلمة مهينة فيها قذف
وتشهير .

وظلت القضية ثلاث سنين حار فيها القضاء الإنجليزي بصدد ترجمة كلمة

« نأديبي » الواردة في الإعلان ، هل هي Disciplinary أو Positive وانتدب
لإشهادة بعض المصريين من المتخصصين في اللغتين العربية والإنجليزية ، فله
يجمعوا على رأي ، واختلفت وجهات النظر ، أو بعبارة أخرى ظهر ما لدى كل
فريق من دلالة هامشية إزاء هذه الكلمة . وتحملت الحكومة المصرية آلافة
من الجذبهات في هذه القضية المعجبية ، كما تحمل الأستاذ الدعوى آلافاً أخرى ،
وانتهت القضية بأن تدخل بعض أعضاء البرلمان الإنجليزي من أصدقاء الطرفين
لتوفيق بين مرتبطين من المصريين في لندن . وكانت اجتماعات ومداولات
شبهتها حجرة خاصة في البرلمان الإنجليزي ، ثم تصافى الفريقان ، وتنازل الأستاذ
عن قضيته ، دون الاهتداء إلى رأي حاسم قاطع في دلالة كلمة « نأديبي » !!

من كل ما تقدم رى كيف تسيطر الدلالة الهامشية على أذهان بعض الناس ،
وكيف تثير بينهم النزاع والشقاق ، وكيف فشلت اللغة في أداء مهمتها حين
استعملت في المجال السياسي أو في فض المنازعات القضائية ، وكيف يمكن أن
تسمى الأشياء بغير اسمائها ، أو يزداد أو ينقص من دلالاتها . وسواء كانت تلك
الدلالة الهامشية سببها الهوى والفرس ، أو عن عقيدة وإيمان ، فهي تتصل
اتصالاً وثيقاً بما يسميه علماء النفس بالمطابقة .

وقد أحس الفلاسفة قديماً وحديثاً بنموض الدلالات ، وأن الألفاظ مرغان
ما تتحكم في تصور الناس للأشياء ، مما ساعد السفسطائيين القدماء على استغلال
ذلك النموض في دلالة الألفاظ ، فتمكفوا عن طريقه من هدم حقائق العلم
ومبادئ الأخلاق ، بل استقطعوا قاييد موضوع ما ومعارضته في وقت واحد .

ولقد دعا « أرسطو » إلى تحديد معاني الألفاظ ، وتعرف مدلولاتها على وجه
دقيق ، حين يناقش موقف السفسطائيين .

لا وايت تلك الدلالة الهامشية كلاماً شراً ، فقد تكون سبباً من أسباب المتعة

لبنى الإنسان حين يستغلها الأدباء والشعراء الذين لا يقنعون في غالب الأحوال بتلك الدلالات المركزية ، ويمدون ما يقتصر عليها من الأساليب ، أسلوباً عاماً لا يهدف إلا إلى إيصال الحقائق دون زيادة أو مفالة .

فكلمة « الربيع » حين يقتصر في شأنها على الدلالات المركزية تصبح كما يصفها علماء الطبيعة بقولهم مثلاً « الربيع أحد فصول السنة يحل لأسباب طبيعية خاصة وفي شهور معينة وتصحبه خضرة في الأشجار واعتدال في الطقس » ، ولكن الربيع في رأي الأديب حين يستغل عاطفته ، ويشحن دلالاته بصفات هامشية يصبح شيئاً آخر^(١)

فالدلالة الهامشية هي المستولة عن روائع الآداب ، وهي التي خلفت علماً يسمى بالنقد الأدبي ، ألفت فيه الكتب ووضعت له الأسس والمقاييس . ويعرض أصحاب النقد العربي إلى ما يسمونه بالذوق العام والذوق الخاص ، ولا شك أن ذلك الذوق الخاص يتأثر إلى حد كبير بما نسميه بالدلالة الهامشية التي تختلف باختلاف الناس ، وتجاربهم وأمزجتهم ، وعواطفهم ، وبيئاتهم

ويتضح أثر الدلالة الهامشية في تلك الأمثلة الكثيرة التي يسوقها نقاد الأدب في كتبهم ، ولا سيما حين ينصب تقدم على دلالة لفظ من الألفاظ . وفي كتاب الموشح للمرزباني ، والموازنة بين الطائيين للآمدي ، والعمدة لابن رشيق والصناعتين لأبي هلال العسكري ، وأسرار البلاغة للجرجاني ، والمثل السائر لابن الأثير وغيرها ، أمثلة كثيرة يمكن هنا بعرض طرف منها لتوضيح أثر الدلالة الهامشية في الحكم على دلالة الألفاظ العربية .

واسناني اقتباس هذه الأمثلة القليلة من كتب النقد الأدبي نحاول اقتحام هذا الميدان أو الرج بأنفسنا في مجال الأدب وتقده .

(١) أصول النقد الأدبي كتاب صفحة ٦٢ .

١ - روى أن الأصمى كان يعيب على ذى الرمة الشاعر قوله :

نقار إذا ما الروح أبدى عن الورى وتقرى عبيط الشحم والماء جامس
فيقول : إنما يقال للجامد من السمن وما أشبهه جامس !! فدلول كلمة (جامس)
في ذهن الأصمى مقصور على الدهن وما شاكلة، والماء المتجمد لا يقال له «جامس» .
فكيف تمت هذه الصورة في ذهن الأصمى إلا عن طريق تجاربه مع نصوص
أخرى تصادف أن سمها وتأثر بها ، وتصادف أن استعمات فيما هذه الكلمة
مع السمن والدهن ونحوها من السوائل ولكن ذا الرمة الشاعر العربي قد
تعود مع نفس الكلمة عبر ما تعود الأصمى ، وأعله عرفها في نصوص أخرى
وقد استعمات مع الماء ، أو لعله خلع عليها من الدلالة الهامشية ما صح له بمثل
هذا الاستعمال . فلكل من الرجلين تجاربه الخاصة ، ومزاجه الخاص ، ولا يشتركان
إلا في الدلالة المركزية وهي تجرد السائل ، متخذاً هذا التجمد في ذهن كل منهما
صورة مميّنة ، ولا يقال حينئذ إن أحدهما أصاب وإن الآخر أخطأ ، ولا يصح أن
نحمل أحدهما أو غيرها حكماً في مثل هذا الأمر لأن الدلالات الهامشية في أي
لغة من اللغات مسألة فردية شخصية لا تكاد تعرض لها المعاجم أو تعنى بها .
فالشاعر يصف قومه بحب الغارات وشنها كما ثارت حرب بين الناس ،
وأنهم في نفس الوقت كرماء يقدمون لضيوفهم أشهى الطعام في أيام الشتاء
حين يقل الخير ، ولا يجد الناس ما يبدد الرمي .

٢ - وكان الأصمى أيضاً يعيب قول عدى بن الرقاع :

لهم راية تهدي الجموع كأنها إذا خطرت و نملب الرميح طار

فيقول : الراية لا تخطر إنما الخطران للرمح !!

٣ - وعاب المقاد على أبي تمام قوله :

رقيق حوائى الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه ثوب
فيقول أحدهم : ما علمت أحدا من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرة
وإنما يوصف الحلم بالمعظم والرجحان والثقل والرزانة !!
٤ - وعجب أحد النقاد لأن أبا العتاهية مقدم بين الشعراء مع قوله :

رويدك يا إنسان لا أنت تقفز

ورأى هذا الناقد أن كلمة « تقفز » لم تخرج من فم شاعر محسن فقط !!
فأى ثار بين هذا الناقد وهذه الكلمة ، إلا أن تكون قد ارتبطت في ذهنه
بدلالة هامشية خاصة نتيجة تجاربه السابقة ، مما يقضه فيها ، وسور دلالتها في ذهنه
على سورة بفيضة كريمة لا تليق بالشعر والشعراء .

هذا قال : أبو العتاهية في سيبه أو تشبيهه بإحدى الحسان قوله :

إني أعوذ من التي شفت مني العوذ يا آية الكرمي

قال الناقد : آية الكرمي يهرب منها الشياطين ، ويحترس بها من الفيلان !!
ولا يخطأ في أذهانهم أن آية الكرمي دلالة هامشية خاصة في ذهن الشاعر
تختلف عما في أذهانهم ، أو بعبارة أخرى لم يسمعوا للشاعر أن يستمد من تجاربه
الخاصة ومزاجه الخاص دلالة هامشية لهذه الكلمة تباين ما عندهم .

٥ - ولما حلت قطار الندى بنت سخاربه إلى الخليفة المعتضد وكتب معها
أبوها بذكره بخدمة سلفها ، أمر الخليفة وزيره بالجواب عن الكتاب ، وكلف
الوزير أحد كتابه بالرد ، فتاب أياما وأنى بدخة يقول فيها « وأما عن الوديعه
فمنى بمنزلة نبي » انتقل من يمينك إلى شمالك ، عناية بها وحياسة عليهما »

ثم أقبل على الوزير معجبا بحسن ما وقع له من هذا وقال : سميت لها بالوديعه
وصف البلاغة !! فقال الوزير ما أفبح هذا ! فتأملت لامرأة زفت إلى صاحبها
بالوديعه ، والوديعه مستردة !!

فالحكمة الوديمة في ذهن كل من الرجلين دلالة هامشية خاصة تتمثل بتجارب كل منهما ، ولذا حسنت في عين أحدهما ، وقبحت في عين الآخر .

ومما تقدم زى أن قدراً غير قليل من أحكام النقد الأدبي مرجعها إلى تلك الدلالة الهامشية التي تختلف باختلاف الأفراد في البيئة الواحدة ، وبمعظم اختلافها باختلاف الناس في البيئات المتباينة . فليست ريح الشمال لدى سكان جزيرة العرب كريح الشمال لدى المصريين ، فهي في شبه الجزيرة ترتبط بالبرد والجذب والمصر ، فهي بغيضة وكريهة لدى سكانها ، ولكنها محببة في مصر تعدّ النوافذ والشبابيك وواجهات البيوت لاستقبالها والتمتع بنسيمها .

في الأدب الحديث :

ولعل من تمة الفائدة بصددهذه الدلالة الهامشية أن نسوق هنا مثلاً من الأدب الحديث لكاتب كبير هو الأستاذ عباس العقاد ، حين يتحدثنا في مقال ممتع نشر في إحدى الصحف الأسبوعية عن كلمتي السعادة والخير فيقول : أيهما نتمناه لو أعطينا مغاناً ؟ نتمنى الخير أو نتمنى السعادة ؟ ونرجو أن نوصف بالأخير أو نرجو أن نوصف بالسعادة ؟ بغير حاجة إلى استفتاء خاص أو عام يمكننا أن نجزم بأن السعادة تظفر بأكثر الأصوات في انتخابات الأمنية المشتهة . وبغير حاجة إلى استفتاء على الإطلاق يمكننا أن نقول إننا في الواقع نختار اسماً جذاباً حين نختار السعادة ، وقها نترث أو نتدبر في حقيقة معناه . « إلى أن يقول « وإذا تصورنا السعادة فصورتها أمامنا صورة فتاة حسناء تتمتع الحس والنفس وتشجع اللذة والأمل . ولكننا لا نتصور الخير في صورة أنثوية ، وينقلب على الخيال أنه يرسمه لنا في صورة شيخ جليل مهيب الطامة طويل اللحية ، واملنا نتصوره في الصورة الأنثوية ، ونخلع عليه سمات الأمومة التي تتفاضلنا الجد والأدب ، ولا ترتضى منا أن تناقها باللعب والمزاح . وشتان بين الصورتين » .

« أما بعد الروية فالأمر يختلف . بعد الروية ترجح أصوات الخير على أصوات السعادة في معركة الانتخابات . فالسعادة في زبير الأكثرين نوبة فرح طافية . وليس من طبيعة النوبات أن تدوم . ونكاد أن نقول إنها كالطعام الحسن الشهى الذى نستحب مذاقه ، ولكننا نسأمه ونعافه إذا تكرر علينا ولم ندق معه شيئاً يخالفه ، ولو لم يكن مقبول المذاق كما نتمناه . والخير لا سأمه فيه . لأنه حالة تحتوينها ولا تحكم عليها بإحساسنا ، وإنما نعتبرنا السامة من جانب الإحساس ... » إلى أن ينتهى من مقاله بقوله : « والشرق إذن أدرى بما يقوله في أعياده وتهنئاته لأنه يتمنى لأبدائه الخير كل عام ، ولا يرتضيه أن تكون التهنئة بالعام السعيد . »

تلك هي دلالة السعادة ودلالة الخير عند كاتب كبير جرب من شؤون الحياة تجارب كثيرة متنوعة فلما بشركة فيما غيره ، وثقف بثقافات متباينة منها ما طبع بالطابع العربى الشرفى ، ومنها ما اصطغ بصبغة أوربية حديثة ، فكان له من مزيج الثقافات وافر العلم والتجربة شخصيته المتميزة التى لونت مدلول كلمتى السعادة والخير على النحو الآنف الذكر . ولكننا نرغم تلك الصورة المتممة التى صورها لنا الكاتب منظر مختلف فى دلالة السعادة ودلالة الخير .

وأمراد البيئة اللغوية رغم اختلافهم فى تلك الدلالات الهامشية ، يشتركون فى إحساس لطيف عامض يصعب تحديد مداه ، ولم يفتن له معظم اللغويين ، وهو ما نكاد نلحظه من كثرة تجاربنا مع ألفاظنا ودلالاتها من إمكان التنبؤ بالدلالة أو جزء منها لدى سماع الفاظ لم نسمعها من قبل ولم نتعلم شيئاً عنها ، وذلك هو ما سميناه بوحى الأصوات .

الفصل السابع

تطور اللفظة

- ١ -

ظاهرة التطور

يدرك دارس اللغة الإنجليزية في مراحلها التاريخية أن كثيراً من الألفاظ قد أصابها مع الزمن تطور وتغير في صورتها حيناً ، وفي دلالتها حيناً آخر . فم يكذب بعد عهد « تشوسر » في القرن الرابع عشر الميلادي نحو قرنين ونصف من الزمان حتى ظهر « شكسبير » ، وشهدنا أدبه يتضمن من دلالات الألفاظ ما لم يخطر في ذهن من سبقوه . فكثير من تلك الألفاظ التي ألفها الناس في زمن تشوسر - أبو الشعر الإنجليزي كما يسمونه - قد أصبحت تحتاج في عهد شكسبير إلى مترجم أو مفسر لدلالاتها ، رغم أن ما مر بينهما من الزمن يعد قصيراً في تاريخ الأمم . ذلك لأن اللغة الإنجليزية في تلك الفترة قد تركت نهجها للتطور والتغير ، ولم تقيد بقيود تحول بينهما وبين ذلك التطور السريع ، بل تركت وشأنها حرة طليقة تصيب حظها الأوفر من الحياة والنمو . وقد كان من الممكن أن يتم لألفاظ هذه اللغة بعد عهد شكسبير من التطور في دلالاتها مثل الذي حدث بعد تشوسر لو لم يستقر الأدب الإنجليزي بعض الاستقرار خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . فقد عني علماء اللغة حينئذ بتسجيل آثار شكسبير وروايتها ، هو ومن عاصره أو جاء بعده من الأدباء والشعراء . وبدأوا يثبتون ظواهر اللغة الإنجليزية ، ويحددون من دلالات ألفاظها بعد أن استقر لهده

الأمة من الوضع السياسي ما جعلها أشهر الأمم في القرن الثامن عشر أو أواخرها، وما جعل أهاها يعتزون بتراتهم الأدبي وتاريخهم الثقافي .

ومع هذا ورغم هذا تطورت دلالات كثير من الألفاظ ، وأصبح الناس الآن لا يكادون يفهمون ما في أدب شكسبير من دلالات بعض الألفاظ ، وبحاجة جون إلى معاجم تاريخية للكشف عنها . وكان لهذا أستاذ الأدب الإنجليزي يحذرنا من تلك الألفاظ التي نظن أننا نعلم معناها ، ويقول لطلابه إنني لا أخشى عليكم في أدب شكسبير من تلك الألفاظ القريبة التي لم تصادفوها في موضوع أخرى ، أولم تسمعوا بها من قبل ، ولكنني أخشى عليكم من تلك الألفاظ التي لا تزال تشيع بصورتها القديمة في الأدب الإنجليزي الحديث ، والتي يخطر في أذهانكم لأول وهلة أن دلالتها واضحة مأثوفة لكم جميعاً فهي محط الزلل والخطأ لأن كثيراً منها قد تطورت دلالاته وتغيرت مع الزمن . أما الأولى فأمرها حين لا تكلفكم سوى البحث عنها في مظانها والوقوف على معناها .

كذلك يدرك دارس اللغة الإنجليزية أن نحو نصف الألفاظ التي استعارتها الإنجليزية من اللغة اللاتينية قد أصبحت ذات دلالات مغايرة لما كانت عليه في لغتها الأصلية المستعار منها . أي أن تطور الدلالة لا يقتصر على الألفاظ الأصلية في لغة من اللغات ، بل قد يجاوزها إلى الألفاظ المستعارة من لغة أخرى (١) .

فتطور الدلالة ظاهرة شائعة في كل اللغات بلهنا كل دارس لمراحل نمو اللغة وأطوارها التاريخية . وقد يندهش المتشائم بمخافة الداء الذي يندرس أن تغير أو تنجو منه الألفاظ ، في حين أن من يؤمن بحياة اللغة ومسايرتها لازمن ينظر إلى هذا التطور على أنه ظاهرة طبيعية دعت إليها الضرورة الملحة .

ودارس التطور الدلالي في لغة من اللغات يستعرض أمامه « فيلما » من الأحداث التاريخية لتلك الأمة التي تتكلم بهذه اللغة ، وتلقى دراسته ضوءاً

(1) The Story of Language. p. 144.

قوباً على تطور حياتها الاجتماعية ، لأن دلالات ما نطق به من ألفاظ تتضمن كل ما لدينا من فنون وعلوم وحرف ومهن ، وكل مظاهر حياتنا العامة والخاصة . فيحدثنا بعض اللغويين المحدثين أن لقب « القيصر » في اللغة الألمانية Kaiser ، والمعروف في اللغة الروسية في صورة « السار » Tsar ، إنما يعود إلى اسم عنم اشتهر به أحد أباطرة الرومان وهو المسمى « بيوليوس قيصر » ، ثم تطورت دلالاته وأصبحت عامة تطلق على كل حاكم عظيم الشأن بحكم إمبراطورية عظيمة . وقد اشتق اسم ذلك الإمبراطور الروماني من فعل لاتيني ومعناه (يقطع أو يشق) ، ذلك لأنه ولد بعد عملية شق البطن فأطلق عليه هذا الاسم ، ولا يزال الأطباء والجراحون يسمونها بالعملية القيصرية Caesarian operation⁽¹⁾

دعنا بعد هذا نستعرض طائفة من الألفاظ الشائعة الآن في لهجات كلامنا لنترى إلى أي حد تطورت دلالاتها :

١ - كلمة « بايخ » العامية مأخوذة من المعنى في لهجات الخطاب ، وقد انحدرت من فعل عربي صحيح قصر استعماله على النار والغضب ، فيقال باخ الرجل أي سكن عصبه ، وباحت النار أي سكنت وفترت .

٢ - كلمة « مبطوح » أي مجروح في رأسه ، اتخذت هذه الدلالة من الفعل الصحيح بطح على وجهه القاء ، مما قد يترتب عليه جرح الرأس .

٣ - « البنددة » بمعنى التبدال ، والتي يكاد يقتصر استعمالها على وصف المرأة ، جاءت إلينا من استعمال قديم هو « تبغدد الرجل أي انتسب إلى بغداد وأهلها » أي أصبح متحضراً راقياً في سلوكه ، لأن نظرتهم إلى « بندا » حينئذ كانت كمنظرة بعضنا الآن إلى المدن الأوربية .

تأهت منهاها القديم أزل الناس ، الرضعات

(1) Bloomfield: Language. p. 429.

٤ - « البهدة » ذات معنى مألوف في لهجات الخطاب يخالف ما كانت عليه في العربية الصحيحة من معنى « الخفة » .

٥ - قول في خطابنا (بص) بمعنى انظر ، ومعناها القديم هو « بص » برق ولمع وتلاً .

٦ - « الأرف » نافع شيئاً فنقول في خطابنا « إبه الأرف ده » ! .

والمعنى القديم لكلمة « القرف » هو التهمة ومنه الفعل « قرفت » الرجل أى عبته ووصفته بالسب .

٧ - يقال للطفل حين يكثر بكأؤه أو كلامه « أر » وقد يستعمل للكبير فى استعمالات مألوفة معروفة ، غير أن « القر » بمناء القديم هو ترديدك الكلام فى أذن الأبىكم حتى يفهمه ! .

٨ - يقال للمرء إذا رجع عن رأيه أو تردد « أمحك » والدلالة هنا فيها من الهزء والسخرية ما هو مألوف معروف ، وحين أن الدلالة القديمة لا تكاد تتضمن شيئاً من هذا . وذلك أن « المحك » المنازعة فى الكلام والتهاوى فى اللجاجة عند المساومة ، و« أمحك البيمان والخصن تلاجياً » .

٩ - فى لهجات الخطاب فعل مشهور ينطق به « باظ » ومعناه فسد مادياً أو خلقياً ، فإذا نحن أرجمناه إلى الفعل العربى الصحيح « بازيبوز » بمعنى زال من مكانه إلى مكان آخر ، أو أرجمناه إلى فعل آخر هو « باظ ببوظ » ودلالته تقصّل بالعملية الجنسية دون أن تتضمن وصمة أو تخریماً ، شهدنا فى كلنا الحالين تطور الدلالة .

١٠ - « حرامى » لى ، هر فى الحقيقة نسبة إلى الحرام ، وتخصّصت دلالاته واستعمل بهذه الدلالة الخاصة فى القرن السابع الهجرى فى بعض النصوص للاروية (١) .

(١) راجع المحكم و أصول الكلمات العلمية ، لاعددهم صفحة ٦٢ .

١١ - « الحريم » في الاستعمال القديم هو الذي حرم مسه ، ولكنه اشهر في لهجات الخطاب بوصف المرأة .

١٢ - « حصان » التي تستعمل في لهجات الخطاب بمعنى الفرس ، هي في الاستعمال القديم وصفت لها فيقال « فرس حصان بين التحصن يمنع صاحبه من الهلاك » .

١٣ - « الخبص » في لهجاتنا بمعنى الكذب والافتراء والنميمة ، وقد يستعملها بعض الناس بمعنى التردد على المواخير ولكنها في المعنى القديم مجرد خلط الشيء بالشيء .

١٤ - « الشب » في لهجات الخطاب بمعنى الشارب ، وفي الاستعمال القديم ماء ورقة وعذوبة في الأسنان .

١٥ - « السفر » من حجرة السفر ، أصل معناها طعام المسافر .

١٦ - بل إن بعض الألفاظ المستعمارة من الفارسية قد تطورت دلالتها في لهجات خطابنا :

فكلمة « بشت » كلمة فارسية « بشت » بمعنى العجز والظهر .

وكلمة « فملوى » كلمة فارسية بمعنى شجاع رياضي مصارع محارب .

أضيف إلى ما تقدم أن « طول اليد » كان وصفاً للسخاء والجود فأصبح الآن يوصف به السارق ، وأن (الطهارة) شاعت الآن في الختان ، وأن (الكبش) عند القدماء هو سيد القوم ، وأن التربة عندهم هي فوهة الجدول من الماء ، وأن الرحمة في الترافات هي الفطير وما شاكله ، وأن الوظيفة معناها القديم أجر العمل ، وأن النقن في لهجات الخطاب تطلق أيضاً على اللحية . إلى آخر ما هناك من الألفاظ كثيرة تغيرت دلالتها في لهجات الخطاب ، أقول إذا أضيفت تلك الطائفة

من الكلمات وجدنا أنفسنا أمام قدر كبير من الألفاظ التي تبرهن بوضوح على تطور الدلالة مع الزمن ، وهنا يجدر بنا أن نعرض لتلك الظاهرة البلاغية التي سميت في بحوث القدماء « بالحقيقة والمجاز » ، لأنها لا تمدو أن تكون مظهراً من مظاهر التطور في دلالة الألفاظ .

تطور نحو العموم
خاصة ثم أصبحت عامة
صنعة

- ٢ -

الحقيقة والمجاز

النتيجة : استجبت الناحية
النتيجة : استجبت الناحية
وهي
وهي

كثير حديث القدماء عما يسمى بالحقيقة والمجاز ، فوصفوا الحقيقة بأنها الدلالة دون الزيادة مكانها الأصيلة للفظ . من الألفاظ ، وأن المستول عنها هو الواضع الأول للغة ، كما وصفوا المجاز بأنه ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة . وجعلوا كلاماً من الحقيقة والمجاز أقساماً منها اللغوي ومنها الشرعي ومنها العرفي خاصة أو عاماً (١) .

ويذكر ابن الأثير (٢) أن فريقاً من العلماء كانوا يرون أن الكلام كله حقيقة ، وأن آخرين كانوا يزعمون أن كله مجاز ولا حقيقة فيه ، ثم يبرهن في حديث مسهب على فساد هذين المذهبين ، وينتصر للرأي الذي ساد بين الدارسين من جمهور العلماء من أن الألفاظ قد يستعمل استعمالاً حقيقياً وقد يستعمل استعمالاً مجازياً .

ويأخذ السيوطي تلك المذاهب المختلفة فينسب « لابن فارس » القول بأن أكثر الكلام حقيقة ، وينسب لابن جني رأياً آخر مجمله أن الكلام أكثره مجاز ، ثم ينتهي برأي اسحاق الاسفراييني وهو من ينكر المجاز ويأباه (٣) .

تطور نحو المصروف
عامة ثم أصبحت
العموم

(١) شروح التلخيص ج ٤ ص ٢٤ .
(٢) اللئال المائر ص ٢٤ . (٣) الزهر ج ١ ص ٢٠٧ .
عبارة عزرفة بن شهر رمضان
الزكاة من النماء والزيادة
عبارة عزرفة بن شهر رمضان

و نحن في بحثنا هذا للدلالة الحقيقية أو الدلالة المجازية لا نعرض لتلك الناحية البلاغية ، فلا نساك مثلاً مساك القدماء حين كانوا لا يذكرون شيئاً من المجاز إلا قالوا أنه أبلغ من الحقيقة ، وحين كانوا يتمسكون في المجاز عناصر البلاغية أو جمالية أولى بها محال النقد الأدبي . ولـكننا ننظر إلى ما يسمى بالحقيقة والمجاز على أنه مظهر للتطور الدلالي و كل لغة من اللغات .

وأبرز نواحي الضعف في علاج القدماء للحقيقة والمجاز أنهم وجهوا كل عنايتهم إلى نقطة البدء و الدلالة ، وركزوا نظرهم نحو نشأتها ، فتصوروا ما سموه بالوضع الأول ، و تحدثوا عن الوضع الأصلي ، كما تقدم هذا الوضع في زمن متعين ، وفي عصر خاص من عصور التاريخ . ولم يدركوا أن حديثهم عن نشأة الدلالات ليس و الحقيقة إلا خوضاً في النشأة اللغوية للاسنان ، تلك التي أصححت من مباحث ما وراء الطبيعة ، والتي هجرها اللغويون المحدثون بعد أن يتسوا من إمكان الوصول في شأنها إلى رأى علمي مرجح ، وأصبحوا الآن يفتنون ببحث اللغة وتطورها في العصور التاريخية ، التي حلفت لنا آثاراً لغوية مدونة أو مدفوشة .

كذلك يبدو من بحوث القدماء من علماء العربية أنهم نظروا إلى كل عصور اللغة على أنها عصر واحد ، ومن هنا ظهرت بعض الألفاظ على أنها حقيقة بعد أن شاع أمرها و تنوعت مجازيتها فقال من قال إن الكلام كله حقيقة ، وتبين لآخرين من العلماء أن معظم الألفاظ لها تاريخ مجازي ، فخيّل إليهم أن كل الألفاظ تبدأ مجازية الدلالة وأن لا حقيقة فيها . وكان كذلك الفریق الثالث وهم جمهور العلماء الذين اعترفوا بكل من الحقيقة والمجاز على أساس الأصالة والفرعية و دلالة اللفظ .

وبحوث القدماء على استفاضتها ودقتها وحسن عرضها قد تجاهلت أمراً هاماً هو في الواقع الأساس الأول للحكم على الدلالة . ذلك هو أثرها في الفرد حين يسمع اللفظ أو يقرؤه ، فهو وحده الذي يستطيع الحكم على الحقيقة والمجاز .

ذلك لأن الحقيقة لا تعدو أن تكون استعمالاً شائعاً مألوفاً للفظ من الألفاظ ،
وليس الهجاز إلا انحرافاً عن ذلك المألوف الشائع ، وشرطه أن يثير في ذهن السامع
أو القارئ دهشة أو غرابة أو طرافة . وحدود تلك الغرابة أو الطرافة تختلف
 باختلاف تجارب المرء مع الألفاظ ، وباختلاف وسطه الاجتماعي أو الثقافي ، فقد
تضيق تلك الغرابة أو الطرافة في ذهن السامع إزاء استعمال أحد الألفاظ ، ويوشك
اللفظ حينئذ أن يكون كالحقيقة رغم انحرافه عن المألوف الشائع ، وقد تقوى
فتتحرك من السامع مشاعره وعواطفه فتقال إعجاب به أو سخرية على حد سواء ،
لأنه محاز في كلتا الحالتين ، أو خروج عن المألوف المروف في دلالة اللفظ .

فنحن مثلاً حين نقرأ ما يروى عن العظم عيسى بن المنك العادل حين قال في
صفة مشروب بهالج به داء الذنوب :

[شراب مركب نافع ، لشاربه يوم الفزع الأكبر شافع ، يؤخذ من مستحکم
مرير الصبر ، وما اجلول من لذيد الذكر ، فيفربلان بقربال التفكر السهرى ،
وبدافان بماء العين النظرى ، ثم يصفى الحموع باباب العلم التجردى ، ثم يهجن
بمسلى الهبة الإلهية] .

أقول إن المرء عادة حين يقرأ مثل هذه القطعة لا يكاد يتمالك نفسه من الابتسام
أو الضحك ، لأن ما يثيره استعمال ألفاظها قد جاوز الحدود المألوفة لها بما تجاوز
كبيرة . جمات من الهجاز فكاهة وسخرية ، ومع ذلك فقد يقف الصوفى من مثل
هذه القطعة موقفاً مبايناً ، فيتبين فيها نواحي من الجمال ، وتحمل من نفسه ومن
قلبه محل الرضا والإعجاب .

ومن خلال هذه النظرة الفردية للألفاظ يستطيع الباحث أن يتبين ما يمكن
أن يسمى بالحقيقة العامة أو الهجاز العام في بيئة معينة ، وفي جيل معين من الناس .
فرغم اختلاف الأفراد إزاء كل لفظ ترى قدراً كبيراً من الاشتراك بينهم ، وذلك
القدر المشترك في فهم الدلالات هو الذى يكون الحقيقة العامة أو الهجاز العام .

فهناك لفظ مجازي لدى فلان من الناس بلغت به المجازية حدود الإسراف ، وأوشكت أن تصبح هزواً وسخرية ، ولكنه لدى آخر من نفس البيئة معتدل المجازية لا إسراف فيه ولا مبالاة . وإذا تتبعنا هذا اللفظ لدى مجموعة كبيرة من الأفراد فقد تراهم جميعاً يشتركون إزاء اللفظ في قدر من المجازية ، ولا يختلفون إلا في نسبتها أو درجتها ، ويقال حينئذ إن مثل هذا اللفظ من المجاز العام في تلك البيئة . وهو وأمثاله من الألفاظ المستول عما يسمى بالمجاز في لغة من اللغات . ومثل هذا يمكن أن يقال عن الألفاظ الحقيقية الدلالة .

فاللفظ قد يشيع استعماله في جيل من الأجيال للدلالة على أمر معين ، وكما ذكرنا في الموضع السابق ، خطرت نفس الدلالة في الأذهان دون غرابة أو دهشة ، وهو من أجل هذا مما يسمى بالحقيقة . فإذا انحرف به الاستعمال في مجال آخر ، فأنار في ذهن غرابة أو طرافة قيل حينئذ إنه من المجاز . وتلزمه تلك الغرابة أو الطرافة في الاستعمال زمنياً ما بعده قد يفقدها ، وبصحب من الألفاظ والذووع بحيث تنسى مجازيته وبصير من الحقيقة .

وينحرف الناس عادة باللفظ من مجاله المؤلف إلى آخر غير المؤلف حين نموزم الحاجة في التعبير ، وتتراحم المعاني في أذهانهم أو التجارب في حياتهم ، ثم لا يفهم ما ادخروه من اللفظ ، وما تملوه من كلمات أفهمها قد يلجئون إلى تلك الذخيرة اللفظية المؤلف ، مستعينين بها على التعبير عن تجاربهم الجديدة لأدنى ملائمة أو مشابهة أو علاقة بين القديم والجديد .

ونظن هذه الظاهرة تلازمنا طول الحياة ، إذ يلجأ الطفل الصغير إلى ذلك المجاز الضروري ، كما يلجأ إليه الكبير . فالطفل قد يرى ثقباً في رأس الأبرة التي بيد أمه وهي تحيط له الثياب ، فلا يتردد في أن يقول « عين الأبرة صغيرة » . إن أمه عمدت إلى لفظ المؤلف له منذ كان لا يستطيع النطق بكلمة واحدة من لغة ثوبه ، وانحرف به عن ذلك المجال المؤلف حين دعت الضرورة إلى ذلك .

وكذلك الكبير قد يرى الراديو للمرة الأولى ، ثم يشهد من يجربه أمامه فلا يتردد في التساؤل عن « الزر » الخاص بملو الصوت أو انخفاضه ، وعن « الزر » الخاص بتغيير الموجات ، أى أنه ينتقل بكلمة « الزر » من مجالها المؤلف إلى آخر جديد .

وقد لا تدعو الضرورة إلى مثل ذلك الانحراف بالألفاظ ، ومع هذا أو رغم هذا يلجأ كثير من الناس في حياتهم العادية إلى الخروج بالألفاظ عن ما لوفها رغبة في التغيير ، وفراراً من الاستعمال الشائع وما قد يصاحبه من ملل أو سأم ، رغبة في زيادة التوضيح والتجلية للدلالة . ويتم كل هذا في حياة الناس العادية ، ومنه يتكون نوع من المجاز الذي لا ينتمى إلى فرد معين بقدر ما ينتمى إلى بيئة معينة أو وسط معين خاص .

وتظل الألفاظ والأسماع تعلقفه حتى يذبح وبشيع ويصبح من المؤلف أو مما يسمى بالحقيقة .

وهناك نوع آخر من المجاز يتميز بالطرافة ، ويصادف من جمهور الناس الإعجاب . وينظر إليه على أنه نوع من الابتكار والاختراع ، وذلك هو ما تنفق عنه قرائح الأدباء والشعراء والصفوة من أصحاب البلاغة واللسن ، حين يعمدون إلى الألفاظ فينحرفون بها عن عمد وقصد إلى مجال آخر ، وتلك هي الصفة التي يتنافس فيها أصحاب الشعر والأدباء ، وتقاس بها مهارتهم وقدرتهم . وبظل هذا الاستعمال الأدبي محل الإعجاب والثناء زمناً أطول ، ولكن مصيره مع هذا إلى الشيوع والألفة في زمن ما عنده يصبح من الحقيقة ، ويفقد ما لازمه من الطرافة والجدة ، ويراد قديماً بالياً في عصر من المصور .

ولا يكون الحكم صحيحاً على الحقيقة والمجاز في الألفاظ إلا إذا اقتصر على بيئة معينة وجيل خاص ، فالمجاز القديم مصيره إلى الحقيقة ، والحقيقة القديمة قد يكون مصيرها إلى الزوال والاندثار ، وتبقى الألفاظ إذا قدر لها البقاء تنتقل

من مجال إلى آخر جيلا بعد جيل ، وذلك هو التطور الدلالي . فكثير من الدلالات التي كانت سائدة شائعة في العصر الجاهلي قد أصابها البلى ، ولم نعد نراها إلا في المعاجم كرموز متحفية تشبه ما نراه في المتاحف من قطع خزفية لم تعد صالحة الاستعمال . أي أن أسمى درجات الجودة والطرافة في الاستعمال هو ما يسمى بالمجاز ، ثم تنقلص تلك الجودة مع الزمن ويؤول أمرها إلى الألفه والذبول ، وتصبح ما نسميه بالحقيقة التي قد ينتهي أمرها إلى الاندثار والزوال بتطور الحياة الاجتماعية للإنسان .

لأنك هي الظاهرة التي جهلها أو تجاهلها المخشرون حين عرض للحقيقة والمجاز في معجمه أساس البلاغة . ففي رأيه أن « الكتابة والقراءة ، والخلق والمجاء » كلها من المجاز ، ويقول إن الدلالة الحقيقية للفعل « كتب » هو في مثل « كتب السقاء أي خرزه بسيرين » أي بمعنى الضم والجمع ، أما الكتابة المألوفة فدلالتها مجازية ، وكان أيضاً يقول إن الدلالة الحقيقية للقراءة هي الجمع والضم ، وإن الدلالة الحقيقية للفعل « خلق » هي التي في مثل « خلق الخداه الأديم والخياط الثوب قدره قبل القطع » ، « ومن المجاز خلق الله الخلق » ! ! وكان يزعم أن معنى « هجا الحروف يهجوها عددها ، ومنها عن طريق المجاز [المجاء بمعنى تعدد المعاني] ! !

هو إذن يفترض أن العرب قد عرفوا من « الكتابة » خرز السقاء قبل أن يعرفوها بعدلوها الشائع الآن ، وتلك قضية ليس من اليسير البرهنة عليها حتى مع علنا بشيوع الأمية لدى العرب القدماء . ومع هذا فإذا سلمنا جدلاً بصحة تلك الأسالة والفرعية في دلالة « الكتابة » ، فن الواجب ألا يفوتنا أن الدلالة الحقيقية قد تعدد ، أي أن اللفظ ينحرف من مجاه الحقيقي إلى مجال مجازي ثم يشيع ذلك المجاز حتى يصبح مألوفاً ، ويمد حينئذ من الحقيقة ، وتغال تلك الدلالة القديمة ملازمة للفظ في حدود ضيقة ، ويكون للفظ دالتان أو استعمالان

وكلاهما من الحقيقة ، غير أن إحدى الداليتين تكون أكثر شيوعاً من الأخرى ، بل قد يصل الأمر إلى أن تصبح الدلالة القديمة من القدرة وقلة الاستعمال بحيث تسترعى الانتباه ، وتكاد تعد بمثابة المجاز حين تقارن بالدلالة الجديدة الشائعة الألفية . . ومثلها جيد كمثل الشيخ والشاب كلاهما معروف موجود في بيئته غير أن أحدهما في طريقه إلى الزوال والآخر في عنفوانه . ومن النادر أن يكون للفظ الواحد دلالتان مشهورتان بنفس النسبة في وسط من الأوساط .

الفصل الثامن

عوامل التطور في الدلالة

رأينا آنفاً كيف أن كثيراً من الألفاظ اللغات تتطور دلالتها بمرور السنين وتوالي العصور . وبينما هنا البحث عن أسباب ذلك التطور الدلالي أو عوامله ، فإنها ذات شطرين ، منها تطور لاشعوري يتم في كل لغة ، وفي كل بيئة ، ثم لا يفتن إليه إلا بعد المقارنة بين عصور اللغة . ومنها ذلك المقصود المتعمد الذي يقوم به المهرة في صناعة الكلام ، أو تقوم به المجامع اللغوية ، لهدف ما أو لآخر . وهذا التطور المقصود المتعمد أقل أثراً في اللغات بوجه عام ، ويمد من تطور الظاهرة في دلالة الألفاظ ، ولذا قد نراه في الخيل الواحد من الناس ، ويشهده المرء خلال حياته القصيرة . ويمكن أن نعوذ التطور الدلالي إلى عاملين أساسيين لكل منهما عناصره ومقوماته :

- ١ -

الاستعمال

ذلك لأن الألفاظ لم تخلق لتحبس في خزائن من الزجاج أو البلور ، فإنها الناس من وراء تلك الخزائن ، ثم يكتمون بتلك الرؤية العابرة ! ! ولو أنها كانت كذلك لبقيت على حالها جيلاً بعد جيل دون تغير أو تحول ، ولكنها وجدت ليتداولها الناس ، وليتبادلوا بها في حياتهم الاجتماعية ، كما يتبادلون بالعملة والسلع . غير أن التبادل بها يكون عن طريق الأذهان والنفوس تلك التي تتباين بين أفراد الجيل الواحد والبيئة الواحدة ، في التجربة والذكاء ، وتشكل وتشكيف الدلالة تبعاً لها . ومع اشتراك الناس في ناحيتها المركزية زمام يختلفون في حدودها

المماشية وفي ظلالها ، وما يكتنفها من ظروف وملابسات تفسر كل يوم ، وتتنوع بتنوع التجارب والأحداث . فإذا ورثتها الأجيال الناشئة وأخذتها أيضاً لا تعامل والتبادل لم ترثها على حالها الأولى ، بل ترثها مع بعض الانحراف والذلالاة ، ثم يتضخم ذلك الانحراف على توالي الأجيال .

وأوضح عناصر هذا العامل الرئيسي يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - بدوء الفهم :

وتلك تجربة قد يمر بها كل منا ، حين يسمع اللفظ للمرة الأولى فيسئله فهمه ، ويوحى إلى ذهنه دلالة غريبة لا تسكاد تمت إلى ما في ذهن التكلم بأية صلة . ثم قد لا تنجح لهذا السامع فرص أخرى لتصحيح خطئه ويبقى اللفظ في ذهنه مرتبطاً بتلك الدلالة الجديدة . وليس من غير الشائع أن تتم هذه الظاهرة بين عدد من الأمراد كأنهم يسيئون فهم الدلالة بطريقة واحدة ، ويتجهون في فهمها اتجاهها واحداً ، مما يساعد على تطور اللفظ تطوراً مفاجئاً يرثه الجيل الناشئ ويركن إليه . ورب إشارة من يد في أثناء الكلام ، أو غمزة من عين ، أو أى حدث طارئ عارض يكتنف الكلام ، فيؤثر في دلالة اللفظ ويغيره به عن مسزاه المؤلف نحو آخر بعيد عنه كل البعد رغم أن تلك الإشارة ، أو ذلك الحادث لم يكن مقصوداً متعمداً ، ولم يكن مما تتطلبه الدلالة للإيضاح أو البيان ، بل إن المصادفة البهجة هي التي ربطت بينهما ، فأدت إلى ذلك التطور أو التفسير في الفهم .

ويتم مثل هذا التفسير الفجائي عادة في البيئات البدائية ، وحيث الاندزال بين أفراد الجيل الناشئ وجيل الكبار . ثم تسود تلك الدلالة الجديدة ، وبحير المدارس في شأنها ، فلا يستطيع لها تعليلاً ، ولا يقدر على الكشف عن ظروفها . وليس من الضروري حينئذ أن تندثر الدلالة الأممية ، أو أن تفنى من الوجود .

بل قد تبقى جذباً إلى جنب مع تلك الدلالة الجديدة ، ويخيل للناس بعد ذلك أن
للفظ دالتين مستقتين ، وأنه من الممكن استعماله في هذه أو في تلك . وهنا بأنشأ
في اللغة ما يسمى بالمشترك اللفظي في صورته الأصلية الحتمة .

وبغير أن نحلم بإمكان وقوع هذا الانحراف الفجائي ، لا نستطيع تفسير
تلك الألفاظ العربية الكثيرة التي نرى كلا منها يهبر عن دلالات متباينة لا ارتباط
بينها ولا وجه شبه . فحين تؤكد لنا المعاجم العربية أن كلمة « الأرض » تعني
الكوكب المعروف ، وتعني أيضاً « الزكام » ، وحين يقال لنا إن كلمة « الليث »
هي الأسد وهي أيضاً « المنكبوت » ، لا نكاد نجد تفسيراً معقولاً إلا بالاتجاه
إلى تلك الطفرة الدلالية .

وقد يروى لفظ الواحد عدة دلالات يتناولها الشعراء أو المفاظون ،
فيجمعون بينها في أبيات من الشعر ، ويستدلون بها على بعد تلك الدلالات
المتباينة بعضها عن بعض . فكلمة « الغروب » مفردة أو جمعاً ذات دلالات
ثلاث جمعها بعض الفاضلين في قوله :

يا ويح قلبي من دواعي الهوى	إذ رحل الجيران عند الغروب
أتهتهم طريقي وقد أزمموا	ودمع عيني كفيض الغروب
بانوا وفيهم طفلة حرة	تفتن عن مثل ألقى الغروب

فالغروب في البيت الأول لوقت المغرب ، وفي الثاني للدلاء جمع دلو ، وفي
الثالث للوهاد المنخفضة .

وكثيراً ما يساعد على حدوث هذه الطفرة الدلالية أن اللفظ قد يكون قابل
الشيوع ، أو بقرعة استعماله على أساليب معينة ، ولا يقع في تجارب كثيرة ،
فتصاب دلالة بشيء من الغموض ، ويصبح أكثر تعرضاً إلى الانحراف في
الدلالة من الألفاظ الأخرى .

وليس سوء الفهم في الحقيقة إلا نتيجة تلك العملية الذهنية التي تسمى بالقياس الخاطيء ، والتي تلازم كلاً منا في مراحل الحياة ، فقد تم بين الأطفال كما تم بين الكبار . ذلك لأننا كثيراً ما نعتمد في فهم ما نسمع أو نقرأ من ألفاظ جديدة على ما سبق لنا سماعه واختزانه من ذخيرة لفظية ، وما سبق أن تلقيناه عن طريق المشاهدة ، وما تعلمناه من لغة أهلينا . فيقوم كل منا باستنباط الجديد على أساس القديم ، ولا يلجأ في استنباطه إلى غيره من الناس بل يحاول الكشف عنه بنفسه ، لأن تجارب الحياة كثيرة جداً ومتشعبة جداً ، وليس من الممكن أن تقاح الفرصة للفرد ليتلقى أو يشافه غيره في كل تجربة ، وليس من الممكن أن يجد المرء في كل ظرف من يساعد على الفهم ويوضح له الدلالة . ولذلك لا يرى مفراً في بعض الظروف من الاعتماد على نفسه ، ومن القيام بتلك العملية الذهنية القياسية ، فيقيس ما لم يعرف على ما عرف من قبل ويستنبط على أساس هذا القياس ، فيصيب في استنباطه حيناً ويعضل إلى الدلالة الصحيحة ، ويخطيء حيناً آخر فيستخرج دلالة جديدة قد تصادف الشيوخ والذيوخ بين الناس . ولا يتوقف المرء عن الكلام بكل جديد قبل سماعه من غيره وقبل تلقيه عنه ، بل تحتم عليه ضرورة الاتصال بمجتمعه ، والتعاون مع أفراده ، أن يتكلم وأن يظل يتكلم ما بقيت فيه الحياة .

فالأطفال وهم يميثون بالأعيانهم قد يقابلون جزءاً من أجزاء إحدى اللعب ويرون أهميته ، ويدركون وظيفته ، وهم مع هذا لم يسموا له اسماً ، ولم يلقنوا له لفظاً . وهذا نراهم لا ينصرفون عن لعبهم بنية السؤال عن هذا الاسم ، ولا يترددون في استنباط اسم له غير الألف لهنى أهلهم فيسمون « الفرملة » مثلاً بالوقت . ويقال حينئذ إن حماية ذهنية قد تمت فانتجت ذلك القياس الخاطيء ، وانتجت معه لفظاً لم يسمعه الطفل ممن حوله ، بل استخرجه بنفسه قياساً على ما سمع وعرف من قبل .

وكذلك الكبير قد يجلس وحده يقرأ في كتاب ما ، ثم تصادفه كلمة لم يسمها من قبل فيحاول استنباط دلالتها ، وقد يصيب ، وقد يخطئ . وليس بين الناس من يتعرج في استنباط الدلالات ، أو يجلس إلى القراءة وعن يمينه معجم من المعاجم وعن يساره أستاذ عالم مطلع . ليستعين بهذا أو بذاك في كل ما يمنّ له من الفاظ جديدة .

ويفسر لنا القياس الخاطيء تلك الأخطاء التي نشهدها بين الطلاب والتلاميذ ، حين نراهم يتحرفون بمعنى كلمة « العتيد » إلى معنى « العتيق » ، وحين يظنون أن « المستشفى » أو « الرأس » كلمة مؤنثة .

البيان في بلى الألفاظ :

أما المفرد الثانی للاستعمال فنراه حين يصيب اللفظ. بعض التغير في الصورة ويصادف بعد ذلك أن يشبه لفظاً آخر في صورته ، فتختلط الدالان ، ويصبح اللفظ. مما يسمى بالمشترك اللفظي . فتطور « السين » في كلمة مثل « السنب » إلى حرف مناظر لها في المخرج والهمس « كالتاء » ينتج لنا صورة جديدة للكلمة تماثل تمام المماثلة كلمة أخرى موجودة فعلا وتسمى « الدرر والوسخ » وهي كلمة « السنب » . ويترتب على هذا التطور الصوتي تطور دلالي هو أن يصبح لللفظ الواحد أكثر من دلالة واحدة .

دعنا نتجول قليلاً مع كلمة « القماش » المألوفة لنا الآن والتي نحل من نفوسنا محل الاحترام والاهتمام لا سيما حين ننسبها إلى الحرير أو الصوف ونقول الأقمشة الحريرية والأقمشة الصوفية ! هذه الكلمة نبحت عنها في معجم الفيروزبادي فلا نراه يذكر لها من المعاني إلا « القماش أراذل الناس ، والقماش ما وقع على الأرض من فتات الأشياء » ! ! غير أن الجوهرى يذكر أيضاً أن من معاني « القماش » متاع البيت !

وأما ما كانت دلالة هذه الكلمة على حسب ما جاء في المعجم العربية القديمة ، لا ندري كيف تطورت تلك الدلالة حتى صارت على النحو المألوف لنا الآن . وإذا صح ما يرويه بعض الدارسين ^(١) للألفاظ الدخيلة من أن هذه الكلمة مأخوذة من كلمة فارسية هي « كاش » بمعنى نسيج من قطن خشن ، تكون الكلمة العربية الأصلية قد نطقت قافها « جافا أو كافا » لسبب أو لآخر ، فأشبهت الكلمة الفارسية ، وانصرفت دلالتها إلى الدلالة الفارسية بمعنى النسيج .

كذلك أغاب الظن أن الذي ساعد كلمة « الخيشوم » التي تعني الأنف إلى أن تتطور فتصير في لهجات الكلام الآن بمعنى « الفم » أن صورتها قد أصابها بعض البلى فاختصرت إلى « الخشم » .

فكثيراً ما تتطور صور الكلمات ، ويترتب على هذا التطور تغير أو تطور في الدلالة . وقد يصل التطور في الصورة مداه ، فتندثر الكلمة وتنفى من الاستعمال ، لا سيما إذا كانت قصيرة البنية . وبهذا يحدثنا فندريس فيؤكد لنا أن كلمة « ه » اللاتينية التي معناها « الفم » قد اندثرت من اللغات الأوربية الحديثة التي انحدرت عن اللغة اللاتينية ^(٢) .

٣ - الابتدال

العنصر الثالث للاستعمال هو « الابتدال » الذي يسبب بعض الألفاظ في كل لغة من اللغات لأسباب منها السياسي ومنها الاجتماعي ومنها العاطفي .

(١) فنحن حين نتذكر أن بعض الظروف السياسية ، قد تتطلب الخط من القاب ورتب اجتماعية ندرك السبب في ازواء بعض الألفاظ التي تعبر عنها

(١) الفس طوييا العنيسى الحلبي البناون في كتابه تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية سنة ١٩٣٢ .

(٢) اللغة ص ٢٧٢ .

من اللغة . وامل أقرب مثل لهذا هو إلقاء الألقاب والرتب في مصر ، فانزوت
كلمات مثل (باشا ، بك ، أفندي) ، وغيرها من ألقاب تركية مرت بها تطورات
في دلالاتها ، وانحط قدرها على توالي الأيام ، وصارت كلمة « أفندي » في آخر
عهدها ذات قدر تافه ، وأصبحت أقل الرتب بعد أن كان لها خلال القرن التاسع
عشر مركز هام ومكان مرموق .

وبحدثنا بعض الباحثين عن كلمة « الوزير » العربية التي أصبحت في الأسبانية
لا تعنى أكثر من « الشرطي » ، وفي الإيطالية « مساعد عشاوى »^(١) .

ومثل هذا يمكن أن يقال عن كلمة « الحاجب » التي كانت تعنى في الدولة
الأندلسية « رئيس الوزراء » ، ثم صارت على النحر الألف الآن .

ويترتب على هذا الابتذال عادة أن تفحط الدلالة ، أو أن تنزوى الكلمة
وتندثر ، فلا تجرى على الألسنة ، ولا ترد في الاستعمال . وكان بعض علماء
العربية يشيرون في ثنايا كتبهم إلى هذا الابتذال إشارة عابرة لدى الحديث عن
بعض الألفاظ . دون عناية بظروفه أو أسبابه ، كأن يقولوا مثلاً إن كلمة « خس »
بمعنى « دخل » كلمة ببدلة رغم أنها عربية صحيحة . وقد اكتفوا بتتبع بعض
الألفاظ التي جرت كثيراً على ألسن العامة والجهلة أو السفلة من القوم ووسفوها
بهذا الوصف .

(ب) ولعل أوضح الأسباب في ابتذال بعض الألفاظ ، تلك التي تتصل
بالتأحية النفسية العاطفية ، وذلك كأن يكون اللفظ قبيح الدلالة ، أو يتصل
بالقذارة والدنس ، أو يرتبط بالفريضة الجلسية . فهنا نلاحظ أن كل اللغات تفقد
بعضاً من ألفاظها التي تمبر عن هذه الدواحي ، فتندثر تلك الألفاظ . أو تنزوى ،
ويحل محلها لفظ آخر أقل وضوحاً في دلالاته ، وأكثر غموضاً أو تغمية .

(1) The Story of Language. p. 147.

فالشأن والسباب ألفاظ شاء لها القدر أن تكثف بظروف اجتماعية جمات
منها الفاظاً قبيحة الدلالة ، بنيسة إلى السمع واللسان . ولذلك كثيراً ما تتعرض
للأزواء أو الاندثار .

وكذلك الألفاظ التي ترتبط بالقذارة والنجس نزلت على شيوخها حيناً من
الدهر ، بعده أصبحت مبتذلة ، وتزوي أو تندر من الاستعمال . حد مثلاً كلمة
« البربور » التي أصبحت الآن قبيحة مبتذلة ، والتي ازوت في استعمالها ،
فلا نكاد نسمعها إلا بين العامة ، أو الوسط الخاص حيث تزول الكلفة بين المرء
ولماته ، وفي مجال الفكاهة والدعابة بصفة خاصة . هذه الكلمة إذا صح أنها
انحدرت من الكلمة العربية المسجوعة التي ترد في المعجم وهي : البربور بمعنى
الحشيش من البر ، والبربرة صوت الماعز وكثرة الكلام والجدة والصيداح ،
أقول إذا صح أنها انحدرت من هذه الدلالة لوجه الشبه بين المحاظ والبر الجشون ،
ولأنه يصدر من الأنف مع صوت كصوت الماعز ، أو عند كثرة الكلام
والصيداح ، تكون الكلمة حينئذ أصح من سوء المحظ ما أصابها ، فاشتهرت
أولاً في المعنى المألوف ، ثم ابتدأت لكثرة الاستعمال ، وأصبحنا نستعير
عنها بكاهة أخرى هي المحاظ . ولعل فيما ورد بمعجم الفيروز بادى من قوله :
إلبرابير طعام يتخذ من مربيك السبيل والحايب ما يؤيد أن الدلالة العامة
المألوفة لهذا اللفظ قد انحدرت عن أصل عربي ثم ابتدئت

وكذلك حين يقارن بين كلمتين عربيتين بمعنى واحد هما « الصديد » و« الصديد »
نرى أن الأولى أصبحت الآن مبتذلة ، وأوشكت على الأزواء من الاستعمال ،
ويحل محلها الآن كلمة « الصديد » التي لا تزال تحتفظ بقدر من الاحترام
والاحتشام في الوسط الاجتماعي .

ومن الألفاظ الداعمة التطور والتغير في دلالتها تلك التي تشير إلى التبول
والتهبرز فلا يكاد اللفظ منها يشيع حتى يحجبه الذوق الاجتماعي ، وتآباه الآداب

العامية فيستعاض عنه بآخر من نفس اللفظة أو من لغة أجنبية . . . ويكفي لتوضيح هذا أن نستعرض الألفاظ الآتية :

الكفيف ، الشحمة (كلمة فارسية) ، الكرسي ، المستراح ، بيت الراحة ، بيت الأدب ، المرحاض ، الكابليه (كلمة أوروبية) .

فإذا عرضت اللغات للناحية الجنسية وما يتصل بها رأينا التطور الدلالي أسرع ، وشهدنا أن الكناية والتعمية مطلوبة مستحبة . فلا أعضاء التناسل في كل لغة كلمات مبتذلة وأخرى محترمة ، وللمعامية الجنسية في كل لغة كلمات مفضوحة يفر منها الناس ، وأخرى معماة مكثية يقبلون عليها .

وكذلك كل ما يتماق بالزنا أو هتك العرض أو العريضة ، بل بانح الأمر ببعض اللغات أن أصبحت تسكنى عن أسماء الزوجة ، وعن الملابس الداخلية للإنسان ، مما هو ممنوع شائع . وقد كنى القرآن الكريم عن العمارة الجنسية بالفاظ كريهة هي : السر ، الحرث ، والإفشاء ، والمباشرة ، والملاسة ، والدخول ، الرفث : « نساؤكم حرث لكم » ، « (من نساؤكم اللاتي دخلتم بهن) أولامسن النساء » ، « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ، « فالآن باثروهن في المضاجع » ، « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ، « وإن كن لا تواعدوهن سرأ » ، « فتحرير رقبة من قبل أن يماسا » .

وتسكنى عنها العامة بالنوم ، والاستحمام . والاجتماع ، وأصبحوا يتحاشون كلمة « الفساح » التي لم تكن تعنى سوى الزواج . ثم ارتبطت في أذهان العامة بالعملية الجنسية ارتباطاً وثيقاً ، وقد كانت لا تشمل فيها إلا عن طريق الكناية المقبولة لدى العرب القدماء .

(جـ) ومن أوضح الألفاظ التي يستعين منها الضعف الإنساني تلك التي تتصل من قريب أو بعيد « بالموت والأمراض » ، أو بالأشباح والعالم الروحي .

فهى ألفاظ تشير الخوف والمهلع فى نفوس البشر ، فينفرون من سماعها ، وبتفادون ذكرها ، فراراً مما تبعته فى الأذهان من كوارث أو مصائب أو آلام .

وتمرض الألفاظ التى تعبر عن هذه الفواحي إلى التغير الدائم ، والتطور السريع ، فنها ما يندثر غير تارك بعده أثراً ، ومنها ما ينزوى ويصبح نادر الاستعمال . وفى كلتا الحالتين ترى الناس يستعوضون عن تلك الألفاظ بأخرى تمت إليها بسبب من الأسباب ، وتعب عن نفس الدلالات فى أناة ورفق لا يفزع منها السامع أو يتشامم ، لأنها تنطى الدلالة بفلاحة رقيقة تقلل من وضوحها ، وتحد من تأثيرها فى الأذهان .

وتقوى هذه الظاهرة فى البيئات البدائية ، حيث ياب التفاضل والتشاؤم والتطير دوراً خطيراً فى حياة الناس ، وليكن أثرها يبدو فى كل لغة ، وفى كل مكان أو زمان .

فكلمة « الهلاك » لم تكن تعنى فى الاشتقاق السامى القديم سوى مجرد « الذهاب » ، ولا تزال تحفظ بهذه الدلالة فى اللغة العربية ، ولكنها فى العربية تطورت وحلت محل « الموت » التى اكتسبت قدراً كبيراً من قوة الدلالة ووضوحها حتى أصبح من الضروري البحث عن غيرها فكان أن وجدت كلمة « الذهاب » التى كنى بها عن الموت ، كما وجد ذلك الاستعمال المعروف « نوى » ، أو « فاضت روحه » ، أو « انتهى » ، أو غير ذلك من ألفاظ أقل شيوعاً وأقل أثراً فى النفوس .

وليس منا من لا يعلم مسلك الناس فى الأرياف إزاء أسماء الأمراض وتكليفهم عنها بأخرى خيرة الدلالة ، فالحنى لديهم قد تسمى « بالمبروكة » أو لا يكون لها اسم معين ، بل يكتفى بالإشارة إليها بذلك التعبير العامى « النى ما تسمى » .

ولأسماء العفاريت والجن والشياطين رموز أخرى مكنية أو معناة ، ولأسماء
الهوام والحشرات السامة كغنايات تشير إليها إشارة بعيدة تفادياً لشرها وسمومها .

وسر كل تلك التمكنية أو التعمية هو ما استقر في ذهن الإنسان منذ أقدم
من الربط بين اللفظ ومدلوله ربطاً وثيقاً ، حتى إنه يعتقد أن مجرد ذكر الموت
يستحضر الموت ، وأن النطق بلفظ الحياة يدعوها من جحرها ، فتتمش من نادها
أو ذكر اسمها . وقد سيطرت تلك العقيدة على عقول كثير من أبناء الأمم
البدائية ، حتى أصبحوا لا يفرقون بين الشيء واسمه ، ويتصورون أن المرء
يتكون من الجسم والروح والاسم .

وقد حدثنا كثير من الغامرين الذين اتصوا بتلك الأمم البدائية ودرسوا
عادتهم وتقاليدهم عن أمور غريبة عجيبة يؤمنون بها ، وكثير منها يعزى إلى
ذلك الربط الوثيق بين اللفظ والمدلول . فعند بعض هؤلاء القوم يأتي الفرد منهم
أن يطلع أجنبياً على اسمه حشية أن يمتلك جزءاً من كيانه فيتعذب عليه . ولا تزال
آثار تلك العقائد القديمة سائدة في بعض بيئاتنا حين يستعان باسم الأم واسم
الشخص في السحر والرقى ورغبة في النيل منه أو السيطرة عليه^(١) .

وليس تفادياً للأسماء أو تحاشياً مقصوداً على الشعوب بالخوف منها أو
الاشتمزاز من ذكرها ، بل قد يكون أحياناً للهيبية وشدة الاحترام ، وذلك حين
يتحاشى الصغير ذكر اسم أبيه أو معلمه أو رئيسه ويكنى عنه بكلمة أخرى وقد
بلغ هذا الاحترام والإجلال لدى بعض الأمم أن أصبح ذكر اسم الرب أو الإله
محظوراً محرماً . فاليهود لا ينطقون باسم الرب « يهوفاه » ، ويستعبدون عنه
بكلمة أخرى معناها « السيد » هي « أدناي » كما عرضت لهم كلمة « يهوفاه »
في أثناء القراءة أو الترتيل .

(١) راجع فمريس في كتابه « الأمة » ص ٢٢٧ ، ٢٨٠ . وكذلك جيمس و
كتابته ص ١٨٤ Markind, Nation & Individual

ويترتب على كل ما تقدم أن الفاظاً تحمل عمل أخرى ، وأن بعض كلمات اللغة تكتسب دلالات جديدة ، وتنتقل إلى مجال غير الفنّي عرفت به وشاعت فيه . وتم تلك العملية التطورية في الدلالات في صورة تدريجية تستغرق زمناً طويلاً . وليس المسئول عنها فرداً بمينه ، بل تمزى إلى المجتمع في البيئة اللغوية .

- ٢ -

الحاجة

وهناك نوع من التطور في الدلالة يكون وليد الحاجة إلى التجديد في التعبير ، وهو الذي يقصد إليه قصداً ، ويتم عن عمد في ألفاظ اللغة ، وذلك هو العامل الثانی في تطور الدلالة .

ويتم هذا النوع من التطور عادة على يدى الموهوبين من أصحاب المهارة في الكلام كالشعراء والأدباء ، كما قد تقوم به الجامعات اللغوية أو الهيئات العلمية حين تعوز الحاجة إليه . والسبيل إليه هو ما يسمى بالمجاز أو الانتقال باللفظ من مجاله المألوف إلى آخر جديد عليه .

وحاجة الأديب إلى توضيح الدلالة أو تقوية أثرها في الذهن ، هي التي تحمله على الالتجاء إلى المجاز . وعلى قدر إحسانه في تخير المجال الجديد للفظ تكون مهارته وجودة فنه .

عناصر الحاجة ودوافعها :

١ - التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى :-

نبرهن لنا أحداث التاريخ العام على أن الأمم لا تبقى على حال ، فنبا ما شهد التاريخ مولده ثم ازدهاره ثم تدهوره أو فناءه . ومن الأمم ما هو قديم

(م ١٠ - دلاة الأناظ)

عريق عاشت في فجر التاريخ ، ثم سيطرت على العالم القديم زمنها ، ثم انزوت
ولم تخلف لعالم الإنسان سوى الآثار والنقوش الصامتة ، أو انكسحت وتضاعات
ولم يبق من أبنائها إلا ما يكونون دويلة صغيرة . ومن الأمم ما هو حديث النشأة
والنهوض والازدهار .

• وتتبع اللغات الأمم في صعودها وهبوطها ، وفي تطورها وتغيرها ، إذ لا وجود
للغة بغير المتكلمين بها ، ولا نحياً إلا بحياة أبنائها . فكل تطور في حياة الأمة
يترك أثراً قوياً واضحاً في لغتها . ويعنيها هنا ذلك الأثر المزمع الذي يتصدر إليه
قديماً ، لأن مظاهر الحياة تتطلبه وتدعو إليه . وتستجيب الأمم عادة لمظاهر
الحياة ، فتعمل على تغيير الدلالات في بعض ألفاظها حتى يمكن أن تسير الزمن ،
أو تستدير ما هي في حاجة إليه من الألفاظ الأخرى . فليست حياة المنزل
في المسود القديمة كذلك التي شهدنا الآن في عصرنا الحاضر ، وليست نظم
الأسواق فيما مضى كذلك التي تسود الآن في العصر الحديث ، فالأدوات غير
الأدوات ، والواصلات غير الواصلات ، والملابس غير الملابس ، والأبنية غير
الأبنية ، وبالاختصار لم يبق لنا من العالم القديم إلا مظاهر الطبيعة من سماء ونجوم
وشمس وقمر وأرض وأنهار ، وبحار وبراكين وعواصف وأمطار ، ثم جميع أنواع
الحيوان والطيور والأسماك والحشرات والهوام . أما في غير هذا فقد تغير كل
شيء وتطور كل شيء . للإنسان على ظهر الأرض . ووجد الإنسان نفسه مضطراً
إلى التطور أيضاً في الألفاظ المعبرة عن أدواته ومواصفاته وصناعاته وملابسه
وأبنيته فلجأ إزاء هذه الضرورة إلى وسيلتين :

• (١) أولاهما أن يعتمد على الألفاظ القديمة ذات الدلالات المندثرة فيحیی
بعضها ، ويطلقه على مستحدثاته ملتصقاً في هذا أدنى ملابسه . وهكذا وجدنا
أنفسنا أمام ذلك الفوج الزاخر من الألفاظ القديمة الصورة الجديدة الدلالة :
كالدفع والقفية والديابة واللغم والطيارة والطراد والسيارة والبريد والقاطرة

والقطار والتلاجة والسخان والذبايح والذبذبات والتسجيل والجراند والصحب والمجلات ، والمحافظة والأقسام والروور ؛ وغير ذلك من آلاف الألفاظ التي أحياها الناس أراشتقوها ، وخلقوا عليها دلالات جديدة تطلبها حياتهم الجديدة . وتم هذه العملية عادة عن طريق الهيئات والجامع اللغوية ، أو قد يقوم بها بعض الأفراد من المهووبين في صناعة الكلام كالأدباء والكتاب والشعراء . ثم تفرض تلك الألفاظ في وضعها الجديد على أفراد المجتمع للتداول والتعامل بها ، غير أن بعضها يصادف القبول فيذيع ويشيع ، ويصبح بعد حين من الكلمات المألوفة المعروفة ، ويلقى بعضها الصعاب والاعتراض فلا يكاد يظهر حتى يختفي من الاستعمال . وقد يصل الشيوع بالدلالة الجديدة حداً تنسى معه الدلالة القديمة شيئاً تاماً ، فلا يبقى لها أي أثر في أذهان الناس . فمن منا الآن إذا سمع كلمة « السيارة » أو « القاطرة » يخطر في ذهنه صورة القافلة في الصحراء ، أو الناقة الأولى التي تسير القافلة على هديها ؟

يروى أحد الأدباء أن ابنه الصبي كان يسمع فتيتها يقرأ من سورة يوسف « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه » ، فدهنس الصبي وسأل والده وهل كانت هناك سيارات في ذلك الحين يا أبي ؟

ويحاول الجمع اللغوي الآن وضع كثير من تلك الألفاظ التي تسد حاجة المجتمع في النواحي المختلفة . ففيه لجان لألفاظ الحضارة ، وأخرى لكل أنواع النشاط الاجتماعي والعلمي والسياسي والاقتصادي ، مما تطلبه النهضة التربوية الحديثة . ويكفي الرجوع إلى أعداد مجلة الجمع اللغوي للاطلاع على تلك الآلاف من الألفاظ التي وفق أعضاؤه ولجانته في اختيارها وتحديد مدلولاتها .

ولم يكن كل هذا إلا وليد الحاجة والضرورة الملحة ، حتى لا تتخلف الأمة العربية عن ركب الحضارة . وقد كان لجهود الأفراد من محرري الصحف نصيب مشكور في استخراج تلك الألفاظ ، والدعوة إلى استعمالها قبل إنشاء الجمع

اللتوى بزمن طويل . هذا هو أحد رؤساء التحرير في صحيفة مصرية يجد نفسه أمام حادث وقع في أواخر القرن التاسع عشر ، فأراد نشره على الملأ ، ووصفه لجمهور قرائه ، ورأى نفسه بحاجة إلى لفظ للتعبير عن أحد المخترعات الحديثة ، فلم يتردد في إحياء لفظ قديم للتعبير عن مدلول حديث . وكان ملخص ذلك الحادث أن الآلة التي تجر عربات السكة الحديدية الجديدة قد سقطت في النيل أثناء مرورها فوق أحد الجسور وهو مفتوح . فوفق في اختيار لفظ «القاطرة» للتعبير عن اللفظ الأجنبي « Locomotive » ، وذلك لأن القاطرة هي العنفة التي تتقدم القافلة .

• وقد تكون الدعاية السياسية أو الاقتصادية حافزاً كبيراً لتوليد تلك الألفاظ الجديدة الدلالة . فأصحاب الإعلانات التجارية لا يألون جهداً في تخيير الألفاظ ، ومبنيها بدلالات جديدة جذابة ، رغبة في رواج بضائعهم وأسواقهم . فصاحب محل المشروبات قد يطلق على محله « جنة الفواكه » ، والحلاق قد يطلق على دكانه « دار الزينة » ، والحياط قد يقول عن محله « دار الأناقة » ، والطور شحى قد يدعو ما بيده « بالشميات » ، وغير ذلك مما هو مألوف لنا في حياتنا العامة .

ب (ب) وقد تدعو تلك الحاجة أو الضرورة إلى الالتجاء إلى الألفاظ اللغات الأجنبية ، فيستعار منها ما تمس الحاجة إليه حيناً ، وما لا حاجة إليه حيناً آخر . فاللغات يستعير بعضها من بعض ، إما لأن الألفاظ المستعارة تعبر عن أشياء تختص بها بيئة معينة ولا وجود لها في غير هذه البيئة ، أو تكون الاستعارة لمجرد الإيجاب باللفظ الأجنبي . وتقتصر الاستعارة عادة على الألفاظ والكلمات ، ولا تكاد تتعداها إلى العناصر اللغوية الأخرى ، كالتصريف والاشتقاق وتركيب الجمل .

« أما الاستعارة التي تدعو الحاجة إليها فقد عرفها القدماء كما عرفها المحدثون . فقد استعار العرب من الفرس واليونان ألفاظا للتعبير عن أشياء ليست في بلاد العرب . وعمد العرب القدماء إلى بعض تلك الألفاظ فحورروا من بيتها ، وجعلوها على نسج الكلمات العربية ، وسموها بالعربية ، وتركوا البض الآخر على صورته وسموه بالدخيل . ويكفي الرجوع إلى الكتب التي ألفت في هذا ، كشفاء الغليل للشهابي والعرب للجواليقي ، للوقوف على تلك المثبات من الألفاظ الأجنبية التي جلبتها لغتنا العربية .

واستعارت اللغات الأجنبية بمئات من ألفاظنا العربية بعد أن صبغتها بصفتها ، وغيرت من صورتها مثل شراب Sirup ، الجبر Algebra ، الكحول Alcubol ، قهوة Coffee ، منارة minaret ، ترجمان dragoman . ومحدثنا اللغويون المحدثون أن الأمم الأوربية لم تتردد في استعارة كلمة « Tea » من اللغة الصينية حيث المصدر الأصلي للشاي ، وكلمة « الشمبانزي » من إحدى لغات أفريقيا ، وكلمة « الشيكولاته » من اللغة المكسيكية ، وكلمة « الياسمين » من الفارسية ، وغير ذلك من ألفاظ تعبّر عن أشياء لا وجود لها في البيئات الأوربية ، أو وفدت إليها من المصادر الأصلية .

وتم هذا النوع من الاستعارة للحاجة الملحة ، دون أن يكون للبيئة المستعار منها أي أثر ثقافي أو نفوذ سياسي في البيئة المستعيرة ، وفي وقت ليست فيه تلك الأمة المستعار منها محل إعجاب أو موضع تقدير لحضارتها وورقها الاجتماعي أو نهضتها السياسية .

« وهناك نوع آخر من استعارة الألفاظ يتم في ظروف أخرى تكشف عن إعجاب أمة بأمة ، وتأثرها بثقافتها أو خضوعها لنفوذها السياسي . وهنا نلاحظ أن مجموعة كبيرة من ألفاظ الأمة صاحبة النفوذ والسيطرة تنزوا الأمة الأخرى ،

وتنافس الفاظها الأصلية ، ويصبح المعنى الواحد لفظان أحدهما أصيل ، والآخر
أجنبي دخيل ، يسودان معا جنبا إلى جنب زماما ما بعده قد ينزوى اللفظ الأصلي ،
أو يندثر ، وحينئذ يستأثر اللفظ الأجنبي بالاحترام والتقدير في الأوساط الاجتماعية
الراقية وفي المجال الثقافي وتلك هي الاستعارة التي تترك أثرا ظاهرا في تطور
الدلالة لبعض الألفاظ في اللغات. أما الاستعارة التي تكون وليدة الحاجة الضرورية
فلا نكاد نلح لها أثرا في تطور الدلالات أو تغيرها ، بل هي مجرد تنمية للألفاظ
اللينة ، وإضافة جديدة فيها^(١) .

فاستعارة اللفظ الأجنبي رغم وجود نظير أصيل له يعبر عن نفس المعنى ، تؤدي
عدة إلى تطور في دلالة اللفظ الأصيل . وينزوى إلى ركن متواضع من الدلالات
الأصلية ، ونما بها . ولا يعمد حدودها ، أو يقتصر استعماله على مجال معين ، أو
وسط اجتماعي خاص . وتصبح السيادة حينئذ لللفظ الأجنبي الذي يفوز بكل
تقدير واحترام . فإذا لم يندثر اللفظ الأصيل ، ولم تغير نظرة المجتمع إليه ، فلم
تتكش دلالاته أو تتطور ، عاش مع اللفظ الأجنبي ، ويتكون منهما ما يسمى
بالترادف في اللغات . فتدعى عرف العرب لفظ « الحرير » ، ثم لم يقنعوا به ،
فاستعاروا منه الألفاظ منافسة كالسندس والإسقمريق والديباج ، ثم أتى تجار العرب
إلا أن يختصوا تلك الألفاظ الأجنبية بصفات خاصة ، ففسروا للإسقمريق بعصاؤها
وللسندس أخرى ، وللديباج ثالثة ، طالبا لرواج بضائعهم ، فاقترنت دلالة الحرير
على المعنى العام .

وليست كل الألفاظ قابلة للاستعارة ، بل منها ما يمكن أن يسمى بالألفاظ
المصية على الاستعارة ، وهي التي تعد من العناصر القديمة الأصيلة المميزة للغة ،

(1) The story of language. p 149, by Mario Pei
language, its nature, development & origin p 208 by Jespersen.
Language, p. 444, by Bloomfield.

وليس من اليسير ولا من المرغوب فيه التخلّص منها أو استجلاب مناس لها،
كألفاظ الأعداد في كل لغة وكألفاظ الإشارة والوصول . ومع هذا فقد
يحدث أن تستعير أمة من أمة أخرى نوطاً من العباها، وتستعير معه الألفاظ الأجنبية
التي تصطنع فيه . فقد استعيرنا لعبة « الترد » من الفرس ، واستعيرنا معها طريقة
الفرس في المد ، كالليك والدوه والدوسة والجمهار والبيش والشيش .. إلخ .

ولكي ندرك أثر الاستعارة في تطور الدلالة ، علينا أن نتذكر أن نحو نصف
الفاظ اللغة الفارسية مستعار من اللغة العربية ، وأن نصف الفاظ اللغة التركية
مأخوذة إما من الفارسية أو العربية ، وأن ثلث الفاظ اللغة الإنجليزية فقط هي
التي تعد بحق ألفاظاً أصيلة سكونية .

ويؤكد لنا أحد الباحثين من اللغويين المحدثين أنه فحص مدجهاً فرنسياً يشتمل
على ٤٦٣٥ كلمة فوجد منها ٢٠٢٨ كلمة فقط من الأصل اللاتيني الذي يمد
المصدر الأصيل للغة الفرنسية ، ووجد ٩٢٥ من اللغة اليونانية و٦٠٤ من الألمانية
و٦٦ من السكتية و١٥٤ من الإنجليزية و٢٨٥ من الإيطالية و١١٩ من الأسبانية
و١٠ من البرتغالية و١٤٦ من العربية و٣٦ من العبرية و٤ من الهنغارية و٢٥ من
السلافية و٣٤ من التركية و٦ من لغات أفريقيا و٩٩ من اللغات الآسيوية و٦٢
من اللغات الأمريكية الهندية و٢ من اللغات البولندية !!^(١) .

أى أننا لا نكاد نظفر بملك اللغة التي تعد خالية من أى عنصر أجنبي ، اللهم
إلا بين عدد قليل من لغات القبائل البدائية في العالم .

وهكذا نرى أن استعارة الألفاظ أو اقتراضها ذات أثر في تطور الدلالات .

(1) The Story of language. p 151.

الفصل التاسع

أعراض التطور الدلالي

تبين لنا فيما سبق أن اللفظ قد تتطور دلالاته وتغير ، وعرفنا العوامل أو الأسباب التي تدفع إلى مثل هذا التطور والتغير .

وإذا صح أن يشبه ظاهرة التطور في الألفاظ بالعملة التي قد نعثر على الكائن الحي ، فعلى هذا أن بين أعراضها ومظاهرها . وتكاد تقتصر تلك الأعراض والمظاهر في الأمور الآتية : -

- ١ -

تخصيص الدلالة

يتحدث المناطقة والفلاسفة عن دلالة اللفظ ، ويسمونها بالدلالة العامة لأنها تنطبق على كل فرد من طائفة كبيرة ، ويصنعون اللفظ حينئذ بأنه « كلي » مثل كلمة « شجرة » التي تطلق على كل ما في الوجود من الأشجار . فإذا تحددت الدلالة أو ضاق مجالها قيل إن اللفظ أصبح جزئياً ، وقيل إن الدلالة قد تخصصت . فقولنا « شجرة البرتقال » يستبعد آفاً أو ملايين من أنواع الأشجار الأخرى ، فهي لذلك أخص في دلالاتها من كلمة « شجرة » . وقولنا « شجرة البرتقال المصرية » أخص في الدلالة من « شجرة البرتقال » . ولا تزال الدلالة تتخصص حتى تصل إلى العمومية أو ما يشبهها . فقولنا « شجرة البرتقال في حديقةنا » يصل بالدلالة إلى أضيق الحدود . وتكاد تكون الدلالة هنا كالدلالة في الأعلام وأسماء الأشخاص كحمد وعلي وأحمد ونحو ذلك .

والألفاظ في معظم اللغات البشرية تمذبذب دلالاتها بين أقصى العموم كما في الكلبيات ، وأقصى الخصوص كما في الأعلام . فهناك درجات من العموم ، وهناك درجات من الخصوص ، وهناك حالات وسطى . وإدراك الدلالة الخاصة أو الشبيهة بالخاصة أيسر من إدراك الدلالة الكلبية ، التي يتقل التعامل بها في الحياة العامة وبين جمهور الناس . فالفلاسفة وأصحاب العقول الكبيرة هم وحدهم المشغوفون بتلك الألفاظ الكلبية في تفكيرهم وتأملاتهم .

وعلى قدر ما يصيب الذهن من رقي يكون استعداده لتقبل تلك الدلالات الكلبية ، وحرصه على التعامل بها . وكذلك الأمم على قدر نهوضها ، وسمو التفكير بين أبنائها ، تكون لغاتها مستعدة لتلك الدلالات الكلبية . فلغات الأمم الفاهضة تتضمن قدراً كبيراً جداً من تلك الألفاظ ، على حين أن لغات الأمم البدائية لا تكاد تشتمل على شيء منها .

فيقال لنا إن الهورونيين (السكان الأصليون لأمريكا الشمالية) ليس لديهم لفظ للتعبير عن « الأكل » ، بل يصطفون عدة ألفاظ متباينة أحدها للتعبير عن « أكل اللحم » . والآخر عن « أكل الخبز » ، والثالث عن « أكل الموز » وهكذا^(١) .

وعرفنا أننا أن الأطفال يدركون الدلالة الخاصة قبل إدراكهم للدلالة العامة ، يبدأ الطفل حياته بأن يجمل من كل لفظ جديد على سمعه « علماً » على شيء معين . فحين يسمع كلمة « السرير » ويربطها بعهده ومكان نومه تظل في ذهنه زمناً ما أشبه بعلم على سريره هو وحده .

والفاس في حياتهم العامة ينفرون عادة من تلك الكلبيات التي لا وجود لها إلا في الأذهان ، ويؤثرون الدلالات الخاصة التي تهبس معهم فيرونها ويسمعونها

(1) L' Evolution des idees, p. 110

وعام اللغة للدكتور على عبد الواحد ص ٢٤١ .

ويلمسونها، ولذا يسهل عليهم تداولها والتعامل بها في حياة أكثر ما فيها ملموس محسوس . وهم لقصور في الذهن حيناً ، أو بسبب الكسل والتماس أيسر السبل حيناً آخر ، يمدون إلى بعض تلك الدلالات العامة ويستعملونها استعمالاً خاصاً ولا يتردد الفرد العادي في هذا الصنيع متى وثق أن كلامه سيكون مفهوماً ، وأنه سيحقق الفرض أو الهدف من النطق . فإذا قدر لمثل هذا الاستعمال في الدلالة أن يشيع ويذيع بين جمهور الناس رأبنا اللفظ تتطور دلالاته من العموم إلى الخصوص ، ويضيق مجالها ، وتقتصر على ناحية منها . وذلك هو العرض الذي نسميه بتخصيص الدلالة ، وهو الذي يصيب كثيراً من ألفاظ اللغات في العالم .

فكلمة « meat » التي تعني الآن في اللغة الإنجليزية « اللحم » ، كانت دلالاتها فيما مضى أعم ، وكانت تعني مجرد « الطعام » ، وكلمة « Hound » التي تعني الآن في تلك اللغة نوعاً خاصاً من الكلاب ، كانت فيما مضى تعبر عن أي « كلب » .

وكذلك الحال في لهجات الخطاب عندنا إذ تخصصت كلمة « الطمارة » وأصبحت تعني « الختان » ، وتخصصت كلمة « الحرير » فبعد أن كانت تطلق على كل محرم لا يمس ، أصبحت الآن تطلق على « النساء » ، وكذلك كلمة « العيش » حين تطلق على « الخبز » .

تعميم الدلالة

فكما يصيب التخصيص دلالة بعض الألفاظ. فقد يصيب التعميم البعض الآخر ، غير أن تعميم الدلالات أقل شيوعاً في اللغات من تخصيصها ، وأقل أثراً في تطور الدلالات وتغيرها . ويشبه تعميم الدلالات ما نلاحظه لدى الأطفال حين يطلقون اسم الشيء على كل ما يشبهه لأدنى ملاسة أو مماثلة ، وذلك لقصور

محصولهم الافرسي ، وقلة تجاربهم مع الألفاظ . فقد يطلق الطفل لفظ « الأب » على كل رجل يشبه أباه في زيه أو قامته أو لحيته أو شاربه ، وقد يطلق لفظ « الأم » على كل امرأة تشبه أمه في ثيابها وشعرها وصورتها . وتبدو هذه الظاهرة واضحة جلية حين يعبر الطفل عن أنواع الحيوان والطيور . فقد يسمي كل طائر « دجاجة » وكل حيوان كبير حماراً أو حصاناً . ويتوقف مسلك الطفل إلى حد كبير على بيئته ، وتجاربه الأولى فيها .

وكذلك الناس في حياتهم العادية يكتفون بأقل قدر ممكن من دقة الدلالات وتحديداتها ، ويقنعون في فهم الدلالات بالقدر التقريبي الذي يحقق هدفهم من الكلام والتخاطب ، ولا يكادون يحرصون على الدلالة الدقيقة المحددة التي تشبه المصطلح العلمي . وهم إذك قد ينتقلون بالدلالة الخاصة إلى الدلالة العامة إشاراً للتيسير على أنفسهم ، والتناسلاً ليمر السبل في خطابهم .

ويبدو أثر هذا واضحاً قوياً في الصفات والصفات حين تصطنع في مجال أعم ، فتصبح « الموسيقى » مثلاً في رأيهم « لذيذة » ، وحين « يتذوقها » السامع . وتلك هي الظاهرة التي جمعت للحية والسيف والعسل عشرات من الأسماء في اللغة العربية .

ومن هذا التعميم أن « البأس » في أصل معناها كانت خاصة بالحرب ، ثم أصبحت تطلق على كل شدة ، وأن الناس في خطابهم الآن يطلقون كلمة « الورد » على كل زهر ، وكلمة « البحر » على النهر والبحر . ومن هذا التعميم أيضاً تحوّل الأعلام إلى صفات ، فالعلم « قبصر » قد يطلق ويراد منه العظيم الطاغية ، « ونيرون » الظالم أو المجنون ، « وحاتم » الكريم المضياف ، و « عرقوب » للمخادم القابل للوفاء .

ومثل هذا في اللغات الأوربية كلمة « arrived » التي كانت تعني الوصول

إلى شاطئ النهر، وأسبغت الآن لجراد الواسول، وكلمة « Virtue » التي تعنى الآن « الفضيلة » كانت في الأصل اللاتيني مقصورة على صفة الرجولة .

- ٣ -

انحطاط الدلالة

وكثيراً ما يصيب الدلالة بعض الأسيار أو الضعف، فراها تفقد شيئاً من أثيرها في الأذهان، أو تفقد مكانتها بين الألفاظ التي تقال من المجتمع الاحترام والتقدير . فهناك الألفاظ تبدأ حياتها بأن تعبر في قوة عن أمر شنيع أو فظيع، حتى إذا طرقت الأذان فزع المرء لسماعها، وأحس أنها أقوى ما يعبر عن تلك الحال، ثم تمر الأيام وتشيع تلك الألفاظ، ويكثر تداولها بين الناس، وهم عادة مشغوفون في كلامهم بالإمراف والمغالاة، يستعملونها في مجال أضعف من مجالها الأول رغبة منهم في أن يحيطوا مما ينهم بحجاة من القوة لا مبرر لها في الحقيقة. وهنا تنهار القوة التي في الدلالة الأولى، ويصبح اللفظ بمد شيرعه مألوفاً لا تخيف دلالة ولا تفرح لها النفوس . ففي اللغة الإنجليزية مثلاً ثلاث كلمات في الوصف بالشفاعة أو الفظاعة هي : Dreadful, Terrible, Horrible كانت إذا استعملت خلال القرن الثامن عشر أقرعت السامع، وجعلته يشعر بما يشبه هول القيامة . ولم يكن السككاب يتناولونها إلا حين يشور بركان ثورة عنيفة، أو حين تزلزل الأرض زلزلاً يخرب المدن، ويذهب ضحيته آلاف من البشر، ثم انهارت دلالة هذه الأوصاف ومعناها على السنة الإنجليزية يصفون بها الحدث القافه كسقوط فوجان من الشاي على السجادة، أو اصطدام دراجة بالحائط، ونحو هذا ؟

ويشبه هذا ما نسمه في بعض لهجات الخطاب حين تستعمل كلمة « القتل والقتال » في الشجار حتى مع ضعف شأنه ونتائجه . وكذلك كلمة « الكرسي »

استعمات في القرآن الكريم بمعنى « المرض » في قوله تعالى « وسع كرسيه
السموات والأرض » ؛ غير أن هذه الكلمة أصبحت الآن تطلق على « كرسى »
السفرة وكرسى المطبخ .

وكانت الكلمة الإنجليزية Astonish فيما مضى تعنى أصيب بصاعقة ،
فأصبحت الآن وقد اقتضرت دلالتها على الدهشة والاستغراب . وانوصف
« لثيم » في اللغة العربية كانت دلالاته في الأساليب القديمة أقوى مما هي عليه
في السنة الناس الآن . ويقال في كل هذا إن دلالة اللفظ قد أصابها الضعف
بعد القوة .

وهناك ألفاظ أخرى تصيبها الخسة بعد الرفعة وتفقد الاحترام الذي كان لها
في المجتمع . وأكثر ما يكون هذا في الألقاب الدنيوية كلفظ « أفندي » حين
تقارن حالها في أواخر القرن التاسع عشر بحالها في منتصف القرن العشرين .
وقد كان « الحاجب » في الدولة الأندلسية بمثابة رئيس الوزراء ، ورأينا آنفاً
ما أصاب كلمة « الوزير » العربية حين أصبحت في الإسبانية لا تعنى أكثر من
شرطي ، وفي الإيطالية « مساعد عشماوى » ! كما رأينا أن « طول اليد » قد
وردت في الحديث الشريف بمعنى السخاء والجود حين قالت للنبي سواؤه « أينما
أسرع لحاقاً بك يا رسول الله ؟ » فقال صلعم : « أطولكن يداً » ! والكلمة
كما هو معروف لنا جميعاً تستعمل الآن على الألسنة وفي لهجات الخطاب
بمعنى السرقة .

وأخيراً يكفي أن نذكر ما أصاب الكلمات التي تعبر عن « المرحاض » في
الأجيال المختلفة من خسة في الدلالات أدت إلى الاستبدال بها ألفاظاً أخرى في
أزمة متعاقبة .

رقى الدلالة

فكما قد تفحط الدلالة في الألفاظ قد تقوى في الألفاظ الأخرى ، غير أن ضعف الدلالة أو انحطاطها أكثر ذبوعاً في اللغات بوجه عام .

ويحدثنا فندريس^(١) أن لفظ « مارشال » قد انحدر إليها من « خادم الأسطبل » وأن لفظ Knight التي كانت تعبر في فروسية القرون الوسطى عن مركز مرموق انحدرت إلى لغات أوروبا من معنى أصلي هو « ولد خادم » .

وفي لغتنا العربية أتى على السكامة « ملاك ورسول » عهد كانت فيه بمعنى الشخص الذي يرسله المرء في مهمة مهمها كان شأنها ، ثم تطورت وأصبح لها تلك الدلالة السامية التي نالها الآن .

وكانت كلمة « السفيرة » تعني في الأصليب القديمة طعام المسافر ، وهي الآن على السفة تجار الأثاث ذات شأن . بل حتى كلمة « النفس » التي لم تكن تفيد سوى « سعة التامع » نسمها الآن في كثير من الأحيان تطلق على جهاز العروس ، وأثاثها الثمين الغالي ؛ وكذلك السيارة الفخمة يتواضع الناس الآن ويطلقون عليها لفظ « العربية » ! !

وحين يستعرض الاستعمال العربي القديم للفظي « السلطان والمالك » لا نكاد نلمح فرقاً واضحاً بينهما ، فكان كل منهما يطلق على صاحب الولاية والحكم مهما صغر شأنه . حتى كان القرن السابع الهجري فأصبح كل من اللفظين لقباً عظيماً من ألقاب الحكام والولاة ، ووجدنا الحاكم يؤثر أن يلقب بلفظ « السلطان » ، ويستشر معه عظمة الحكم أكثر من استشاره مع لفظ « الملك » ،

(1) Language, p 227.

ورغم أن حكام الماليك والأيوبيين كانوا يلقبون بهما معاً ، فيقال مثلاً « السلطان الملك فلان » ، غير أن لقب السلطان كان دائماً أسبق في النصوص ، وأوضح في الدلالة على عظمة الحاكم ، بل كان يقتصر عليه في بعض الأحيان . ويقال إن أول من لقب بلقب « ملك » وزير من وزراء الفاطميين يسمى « رضوان » لقب بالملك الأفضل^(١) . أما في العصر الحديث فأصبح « الملك » لقباً أرقى ومركزاً أسمى بين الحكام من لقب « السلطان » .

هذا ويروي لنا أن المراكز العلمية في القرن السادس الهجري قد استقرت على حال معينة ، فأصبحت محددة العالم متدرجة الرتب في سلسلة من الألقاب التي اصطلح عليها^(٢) وهي :

العلم ، فالؤدب ، فالمدرس ، فالعبد ، فالشيخ ، فالأستاذ ، فالرحالة ، فالعالم ، فالإمام !!

ومن المرجح أن رواة هذه السلسلة من الألقاب العلمية قد أسرفوا بعض الإسراف ، فتلك مراحل كثيرة لا نظن أنها كانت كلها ملتزمة في الترقى العلمي . بل لا نظن أن « الرحالة » كان لقباً أرقى من الأستاذ ، ولعله كان من الألقاب لبعض الأستاذة الذين اشتهروا بالتجول والأسفار . وعلى كل حال الملحظ هنا أن لقب المدرس أقل منزلة من « العبد » ، وأن العبد في ذلك العصر كان يعادل عندنا الآن الأستاذ المساعد !!

(١) صبح الأعشى - ج ٩ ص ٣٩٨ هـ

(٢) كتاب التزيية عند العرب ص ٣٦ - ٣٧ هـ : تأليف خليل طوضع - القاهرة

التجارية بالقدس .

تغير مجال الاستعمال

وذلك هو ما يسمى « بالمجاز » ، وقد تحدثنا عنه آنفاً ، ولم يبق إلا أن نشير إلى أن هذا النقل من مجال إلى آخر سواء كان عن عمد أو من غير عمد ، له مبرراته ودوافعه التي تتلخص في الأحوال الآتية :

(١) توضيح الدلالة :

وجعل الصورة الذهنية من الجلاء والصقل بحيث لا تترك مجالاً للوهم أو الشك . ويكون هذا عادة حين تنتقل الدلالة المجردة إلى مجال الدلالات المحسوسة الملموسة . وهي عملية أشبه بتحميض الصور الشمسية لتوضيح معالمها . فبعد أن كانت الدلالة لا تدرك إلا إدراكاً عقلياً بعيداً عن الحواس أصبحت مما يرى ويسمع ويلس ويشم ، وسهل على الأذهان القاصرة أن تفهم مدلولها ، وأن تبين حدودها ومعالمها ، بعد أن كانت مجرد فكرة عقائية قد يضل الذهن في حدودها .

وتلك عملية تصويرية ياجأ إليها الأدباء ، والوهوبون من أهل الفن ، لتجاية الصورة الذهنية وصقاها أمام قرائهم ، والطلعين على إنتاجهم الفني . فالرسم والمصور حين يعبر لنا بريشته وألوانه عن بعض المعاني المجردة : كالحنان أو الحقد أو الصبر أو البخل أو الطموح ، يتخير لنا صوراً تراها ونكاد نلمسها ، ولا يزال يبرز من معالمها بحسن ألوانه حتى يصبح المجرد محسوساً ملموساً .

وكذلك الأديب أو الشاعر حين يريد أن يوضح سيطرة البخل أو الطموح على إنسان ما ، قد ينجأ إلى الدلالات المحسوسة يلمس منها وسائل الإيضاح

والتجاية حتى يتم له ما ينبغي من قوة التأثير في عواطفنا ، والاتعمال بنصوص أدبية أو شعرية . فالشاعر الذي أراد أن يصف لنا كيف قضى على « ضغن » أقربائه وحسبم له فقال :

وذى رحم قلت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم

قد استعان على تجلية « الضغن » بصورة بشعة لحيوان له أظفار ومخالب مخيفة . تلك عملية فنية عاطفية أكثر منها عقلية ، وللشعور الذي فيها كل الأثر ، وليس للمقل أو التفكير الفلسفي مساهمة تذكر في مثل هذا النقل . فلا يكاد الفيلسوف يحاول في تفكيره نقل الدلالة المجردة من مجالها إلى مجال المحسوسات . وكأنما قد أحس في نفسه القدرة على فهم تلك الدلالات المجردة ، وتحديد معالمها دون الاستعانة باللموس المحسوس .

وأوضح ما تكون تلك العملية فيما يسمى بالكنايات الأدبية كأن يكنى عن « الكرم » بكثرة الرماد ، وعن « التذلل » بإراقه ماء الوجه ... الخ .

فنقل الدلالة المجردة إلى المجال المحسوس مما يمهر فيه الأدباء والشعراء وأصحاب الخيال ، وهو كثير الوجود في الأدب العربي ، وهو الذي يستحق أن يسمى بالمجاز البلاغي .

(ب) رقي الحياة العقلية :

يجمع الباحثون^(١) في نشأة الدلالة على أنها بدأت بالمحسوسات ، ثم تطورت إلى الدلالات المجردة بتطور العقل الإنساني ورفيقه . فكما ارتقى التفكير العقلي جنح إلى استخراج الدلالات المجردة وتوليدها والاعتماد عليها في الاستعمال . وهنا نلاحظ أن الدلالة تنتقل من مجال المحسوس إلى مجال الدلالات المجردة ،

Language by Bloomfield. p. 429.

(١)

ويمكن تسمية هذه الظاهرة بالمجاز أيضاً ، ولكنها ليست ذلك المجاز البلاغي الذي يعمد إليه أهل الفن والأدب ، فلا يكاد يشيردهشة أو غرابة في ذهن السامع ، فليس المراد منه إثارة العاطفة أو انفعال النفس ، بل هدفه الأساسي الاستعانة على التعبير عن العقليات والمعاني المجردة .

فهر لهذا بعد مرحلة تاريخية متميزة لتطور الدلالة عند الأمم ، و حين أن المجاز البلاغي لا يتوقف وجوده أو شيوعه على تطور المصور التاريخي ، بل يتوقف على ما يشيع بين الناس من جنوح إلى العاطفة والخيال ، أو من حدة في المزاج والانفعال النفسي في عصر من المصور .

وانتقال الدلالة من المجال المحسوس إلى المجال المجرد يتم عادة في صورة تدريجية ، وتظل الدالّتان سائدتين جنباً إلى جنب زمنياً ، خلاله قد تستعمل الدلالة المحسوسة ، فلا تثير دهشة أو غرابة ، وتستعمل في نفس الوقت الدلالة المجردة فلا يدهش لها أحد . وليست إحداهما حينئذ بأحق وأولى بالأصالة من الأخرى ، حتى يمكن أن تعد إحدى الدالّتين مما يسمى بالحقيقة ، والأخرى مما يسمى بالمجاز ، إذ لا مجاز ولا حقيقة بينهما في مثل هذه الحال .

ثم قد تزوي الدلالة المحسوسة في ركن صغير من أركان الدلالة الأصلية ، وتثير عايتها حينئذ في بعض النصوص القديمة المتحجرة ، أو الأمثال في صورة نفس اللفظ أو بعض مشتقاته وقد تندثر الدلالة المحسوسة ، ويصعب حينئذ الاستدلال على أصلها .

فإذا عرفنا مثلاً أن المعاجم العربية تفص على أن « الرطانة » هي الإبل مجتمعة ، وطبيعي أن يصدر عنها حينئذ أصوات مبهمة يشبه بعضها بعضاً ، ولا تكاد الآذان تميز منها لفظاً أو ما يشبه اللفظ ، ولا جملة أو ما يشبه الجملة ، تصورنا لهذا أنه من الممكن أن تنتقل هذه الدلالة إلى التعبير عن كل كلام مبهم بلفظ

أجنبية لا يسبقين منه السامع شيئاً ، وأن تصبح « الرطانة » ذات دلالة جديدة مجردة هي على حسب ما جاء في قاموس الفيروزبادي : « الكلام بالأعجمية » .

وقد مره عمداً على لفظة « الرطانة » كانت نستعمل فيه لهاتين الدالتين ، وبنسبة تكاد تكون واحدة . ثم كان أن كثر شيوخ الدلالة المجردة ولم نجد زى « الرطانة » بالمعنى المحسوس ، أى الإبل مجتمعة مع رفاقها ، إلا كقطعة متحفية في ثنابا المعاجم العربية القديمة .

وقولنا إن « الرطانة » بمعنى الكلام بالأعجمية قد انحدرت من « الرطانة » بمعنى الإبل مجتمعة ، لا يبدو أن يكون فرضاً ترجحه الصلة الملحوظة بين الدالتين . وليس لدينا أدلة قاطعة على هذه الصلة تؤكد لنا هذا الفرض بما لا يدع مجالاً للشك ؛ لأن تاريخ الألفاظ غامض ، والملايسات التاريخية في تطور دلالاتها قد نسبت ، وأصبح من المسير الاستدلال عليها . فليست الألفاظ ملوكاً أو حكماً ليمنى الناس بتاريخها ، أو ليؤرخوا مراحل تطورها . ولهذا لا نغالى فنسلك مسلك الاشتقاقيين من الربط بين الدلالات لمجرد الاشتراك في لفظ من الألفاظ . لأن الاشتراك في اللفظ قد لا تكون له أية أصالة ، بل هو مجرد مصادمة نشأت عن التطور الصوتي في إحدى الكلمات حتى أصبحت مماثلة لكلمة أخرى . فإذا قلت لنا المعاجم إن لكلمة « السفاهة » دالتين هما :

(١) حفة الحلم أو الجهل . (٢) وصف للطعنة حين يسرع منها الدم ويجف ، فليس من الضروري أن ربط بين الدالتين ، وأن يجعل إحداهما أصلاً والآخر فرعاً له . فمن الممكن أن « السفاهة » التي هي وصف معين للطعنة كانت لها صورة أخرى تختلف في حرف أو أكثر ، وأنها تطورت صوتياً لسبب ما ، فأخذت هذه الصورة التي تصادف أن مائلت كلمة « السفاهة » بمعنى الحق . فمن بدرى لعله كان في قديم الزمان كلمتان مختلفتان في البنية والمعنى هما : السفاهة بمعنى الحق ، و « الزباهة » بمعنى للطعنة التي يجف دمها ، ثم تطورت « الزباهة » صوتياً ،

وأصبح لها صورة جديدة هي « السفاهة » ، فكأن الربط بين الداليتين من أجل هذا التطور الصوتي .

وتبدو مغالاة الاشتقاقين حين يربطون بين الدلالات لمجرد الاشتراك في الحروف الأصلية ، أو المادة الأصلية للاشتقاق . فعندم مثلا أن « إبليس » مشتق من « أبلس » ، و « جهنم » مشتقة من « التجهم » !! وعندم كذلك أن « الخليل » من الخيلاء ، وأن رحم المرأة من الرحمة .

أما المحدثون من اللغويين فيلتزمون موقفاً معتدلاً في الربط بين الدلالات حين يكون الاشتراك في الصورة غير تام ، فيقولون مثلاً : إذا كان لا بد من الربط بين « الخليل والخيلاء » فمن الواجب اعتبار كلمة « الخليل » هي الأصل ، وأن دلالتها المحسوسة هي التي ولدت لنا بعد ذلك دلالة مجردة في صورة « الخيلاء » ، وكذلك الواجب اعتبار كلمة « الرحم » هي الأصل وأن دلالتها المحسوسة قد تطورت إلى دلالة مجردة هي ما نألفه في كلمة « الرحمة » .

ومع أن المحدثين ينادون بوجوب الحيطة والحذر والاعتدال في الربط بين الدلالات ، لا يشكون في أن كثيراً جداً من الألفاظ التي تعبر عن دلالات مجردة قد انحدرت إلينا من دلالات محسوسة ؛ ويكفي أن نستعرض ما جاء في المعاجم العربية من كلمات مثل [الحقد ، المدح ، القلق ، النفاق ، الشجاعة ، الكره ، الضيعة ، المداهنة ، الشوم ، التفاؤل ، الذكاء ، الأفن ، المجد] .

ليتضح لنا أن بعضها إن لم يكن كلها قد انحدرت عن دلالات محسوسة :

الحقد : حقد المطر احتبس ، وحقدت النافذة امتلأت شحها !

المدح : مدحت الأرض والخامرة اتسعنا !

القلق : الحركة والاضطراب ، ومن هنا جاء الأرعاج !

النفاق : قالوا إنه من نفاقاء اليربوع !!

- الشجاعة : الأشجع هو الأسد ، والشجاع هو الطول !
السكره : السكرية الأرض الغليظة الصلبة أو الحرب !
الضفينة : ضمن الجمل إبطه ؟ فهل كان حقدهم تحت آباطهم ؟ !
المداهنة : هل تمت المداهنة بمعنى النفاق إلى « الدهن » بصلة ماء ؟
الشؤم : ضد اليمين ، والسود من الإبل ، فهل هو شؤم لأنه يتصل بناحية اليسار المشؤومة لدى العرب ، أو لعود لونه كالإبل السوداء ؟ !
التفاؤل : الفئال ككتاب أمية الصبيان يخبثون الشيء في التراب ، ثم يقتسمونه ويقولون في أيها هو ؟
الذكاء : ذكت النار اشتد لهاها !
الآفن : قلة اللابن ، فهل منه جاء الآفن بمعنى السفه ؟ !
الجد : من معانيه امتلاء بطن الدابة من العلف .



وليس الفقل بين الدلالات مقصوراً على ما تقدم من نقل الدلالة الجردة إلى مجال المحسوسات أو العكس ، بل قد يتم بين المحسوسات بعضها مع بعض لصلة بين الداليتين في المسكوبة أو الزمانية ، أو اشتراك في جزء كبير من الدلالة ، فمفناك ألفاظ كثيرة لوحظ تطورها في الدلالة ؛ فانتقل كل مفنا من دلالاته إلى دلالة أخرى تشترك معها في المكان مثل « الذفن » حين تستعمل في خطاب الناس بمعنى « اللحية » ، ومثل « الشفب » حين يطلقونه على الشارب مع أنه يريق الأسنان ، ومثل « السماء » التي تروى المعاجم أن من معانيها السحاب والمطر .

أو تشترك معها في الزمان مثل « الشتاء » بمعنى النظر في خطاب المصريين وكلامهم . كذلك حين نطالع على ماورد في قاموس الهرزبادي من حديثه عن

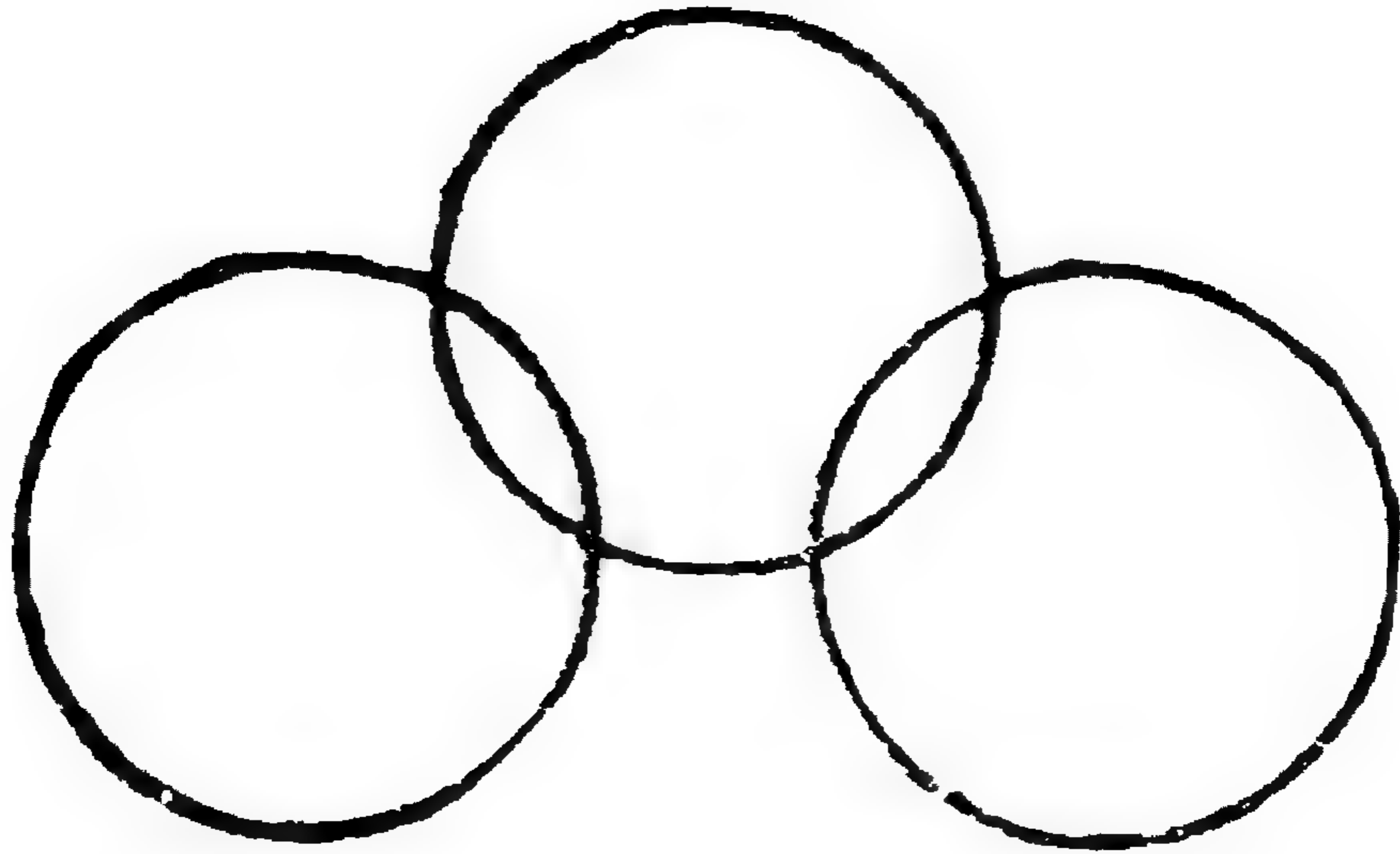
كلمة « المشاء » نرى أنه لم يكده بمحدده بوقت معين ، ونشعر من اللص القاموسى أن « المشاء » قد تأرجحت دلالتها بين ثلاثة أزمنة متصلة من اليوم إذ يقول : [إن المشاء أول الظلام ، أو المغرب إلى العتمة ، أو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر] . فاعل « المشاء » فى الأصل كانت مخصصة لزمان من هذه الأزمنة ، ثم انتقلت دلالتها فى بيئات عربية مختلفة إلى الزمنين الآخرين للتقارب فى الناحية الزمانية .

أو تشترك الدالتان فى بعض المعنى مثل « النبيل » حين يستعمل بمعنى « الشريف » أو العكس ، رغم أن « النبيل » هو « النجابة » ، والشرف هو « العلو »

ومثل « النبيه » حين يستعمل فى خطاب الناس بمعنى « الذكى » رغم أن النباهة هى الشهرة ؛ وكذلك حين يستعملون « الشجرة » مكان « النخلة » أو العكس ؛ وحين يستعملون « الطير » بمعنى « الدبان »

والألفاظ التى تشترك فى بعض المعنى ، تشبه عادة بالدوائر المتقاطعة التى تشترك فى أجزاء متفاوتة من سطوحها ، والتى يحملها الاستعمال فى دوران مستمر على الألسنة . وهى فى دوراتها وحركتها قد يتصادف أن إحداها تنطبق على أخرى تمام الانطباق ، ويصبح للدلالة الواحدة لفظان ، أو بعبارة أخرى يقال حينئذ إن إحدى الكلمات قد انتقلت من مجالها إلى مجال آخر ، واتخذت دلالة جديدة تمت للدلالة السابقة ببعض الصلة .

وأوضح ما تكون هذه الظاهرة فى الصفات والنعوت التى تتضمن عادة دلالات مجردة غير واضحة المعالم والحدود و أدهان كثير من الناس



وكان العربي يميز عن الشيء الفريد الذي لا نظير له بكلمة « البتيم » .
ويميز عن « الأرق » بكلمة الأحضر فيقول في وصف الأمواج : « متى لجج
حضر لمن نسيج » ، ويميز عن العيون الخضر بالعيون الزرق .

ولذلك جاء نفا معظم الكلمات التي قبل علمها إنها مترادفة في صورة صفات
ونعوت فإذا قال صاحب حواهر الألفاظ بن [الدوى . اللثيم . الخسيس .
الزيم . المهين . الريح . الوضع . الضميف . الحامل . الساقط الرذل . النذل]^(١)
كلمها بمعنى واحد تصورنا أنها كلمات تشترك في جزء كبير من المعنى ، وإن تفاوت
هذا الجزء الذي تشترك فيه . وهي لهذا تشبه الدوائر التقاطعة التي يحركها
الاستعمال في دوران مستمر ، حتى يتصادف أن تطبق إحداها على أخرى تمام
الانطباق ، وهذا يكون الترادف الحقيقي بمعناه العلمي الدقيق .

عينا إذاً في الحديث عن نقل الدلالة من مجال إلى آخر أن نتذكر كل
ما تقدم ، وأن نتذكر معه ذلك النقل التعمد الذي تتطلبه مستحدثات الحياة من
منشآت ومخترعات جديدة كتنقل [السيارة والقاطرة والقطار] من مجالها القديم
إلى مجال حديث دعت إليه الحضارة ومستلزماتها .

(١) جوهر الألفاظ لقدمية بن جعفر ص ٢٨ .

الفصل العاشر

دور الدلالة في الترجمة

عرض كثير من الباحثين لشككة الترجمة وفصورها عن تصوير كل ما يتضمنه النص المترجم من أفكار وأخيلة وجمال لفظي . وأحسن القاعون بعملية الترجمة في كل عصور التاريخ بتلك الصعوبات التي تصادفهم ، ووقفوا على بعض أسرارها ، ولكنهم مع هذا لم ينصرفوا عن الترجمة ، بل ظلوا يتابعون جهودهم جيلا بعد جيل وعصراً بعد عصر ، فيوفقون جيداً ويخفقون أحياناً ذلك لأن الأمم والشعوب قد رأت منذ القدم حاجتها الملحة في اتصال بعضها ببعض ، وفي تبادل الثقافة كما تبادل السلع . ثم تبين للمفسكين في الأمم أن تبادل الثقافة بحول دونه حصون منيعة فصلت بين بني الإنسان . وتلك هي التي نسميها باللغات . فأداة التفكير تختلف من أمة إلى أخرى ، وقد تلتصق مسافة الخلف حتى ليخيل إلينا أن الاتصال عسير أو مستحيل ، وقد تقرب فبراها الباحث هيئة يسيرة .

وقد استطاع دارسو اللغات البشرية ، أن يقسموها لثاني صورة فصائل أو أسر ؛ وتتضمن كل فصيلة ، عدداً من اللغات التي تنتمي إلى أرومة واحدة وأصل واحد ، ولها تشابهت في كثير من عناصرها ، فأمكننا الرحلة بين فروعها دون عناء كبير . . أما حين كانت الرحلة بين لغة من فصيلة ، وأخرى من غير فصيلتها فقد كان العنت والمشقة .

وأولئك الذين حاولوا التطلع إلى ما وراء تلك الحصون التي تدعوها باللغات نفر قليل من الناس في كل أمة ، بل في كل عصر . وهم الذين قربوا بين

الشعوب ، ووصلوا الإنسان بأخيه الإنسان ، رغبة في تبادل للنافع والمعارف ،
حتى أن يسكون من الناس جميعاً مجتمع إنسانى يسوده التعاون والتضامن .

وقد عرف أصحاب المذنبات البشرية القديمة شدة حاجتهم إلى الترجمة ولمسوا
معها صعوبة الانتقال بأفكار الصين وحكمتهم إلى بيئة اليونان ، أو إلى بيئة
المصريين القدماء . ذلك لأن اللغة الصينية واليونانية والمصرية القديمة تنتمى إلى
فصائل لغوية متباينة .

وجاء العرب فحاولوا نقل فلسفة اليونان وعلومهم إلى اللغة العربية فصادفوا
المشقة والعسر ، ولم يحقق النجاح منهم إلا القليل ، لأن أكثر المترجمين في العصر
العربى نقلوا آثار اليونان عن السريانية لا عن لغتها الأصلية ، مما جعل السيرافى
يشكك في صحة هذا النقل ، ويشير تلك المحاورة الطريفة^(١) التى كانت بينه وبين
« يونس بن متى » في حضرة الوزير ابن الهرات المتوفى سنة ٣٢٠ هـ .

فالسيرافى أحد علماء العربية في القرن الثالث الهجرى ، ومن عامروا
المترجمين الذين اضطلعوا بنقل علوم اليونان وفلسفتهم . ونلاحظ في تلك المناظرة
التى سجلها أبو حيان التوحيدي في رسالته ثورة السيرافى على ترجمة « يونس بن
متى » وشكها في صحتها ، فهو يتحفظ في الترجمة عامة ويخاطب يونس بقوله [هل
أن هناك صراً ما علق بك ولا أسفر لقلبك ، وهو أن تعلم أن لغة من اللغات
لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها ، في أسماءها وأفعالها ،
وصروفها وتأليفها ، وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها . . . الخ] وهكذا
ترى أن مشاكل الترجمة كانت موضع مداورة ومناظرة بين القدماء كما هي بين
المحدثين . وقد زأدها دراسة وتفصيلاً عبد القاهر الجرجانى منذ ما يقرب من تسعة
قرون في كتابه « أسرار البلاغة »^(٢) ، وخرج على الناس بنظريته في

(١) رسائل أبو حيان التوحيدي ص ٧١

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٣

الترجمة التي يحدثنا فيها عن أن العرب تعرف أجزاء الجسم في الإنسان والحيوان معرفة تامة ، وقد وضعت لكل جزء منها لفظاً خاصاً ، فالشفة في الإنسان هي « المشفر » للبعير « والجحفلة » للفرس . وهذه فروق ربما وجدت في غير لغة العرب وربما لم توجد . ويرى عبدالقاهر أن بعضاً من الشعراء والرجاز قد استعملوا بعض هذه الألفاظ مكان الهمز الآخر ، وأحد العظة منها محل لفظة أخرى ، متأثرين بالإشاد والانفعال ، دون أن يهدف عمدتهم هذا إلى نكتة بلاغية . أو زيادة في تصوير . فقد استعمل المعجاج كلمة « أرسن » وهي للبعير ووصف بها « أنف المرأة » في قوله [وفاحما ومرسنا مسرحاً] ، واستعمل شاعر آخر كلمة « الجحفل » التي تعني شفة الفرس في وصف ناقته بأن للماء صوتاً مسموعاً عند نزوله ما بين مشفرها وبين ورديها كأنه صوت مبرد الحداد فقال :

تسمع للماء كصوت المسحل بن ورديها وبين الجحفل

ووصف ثالث « صفار الإبل » بأنها « حفان » وهذه خاصة بصفار النعام ، وأطلق رابع كلمة « الشفة » الخاصة بالإنسان على « جحفلة » الفرس . ويعتبر عبد القاهر مثل هذه الاستعمالات من الاستعارات غير المفيدة التي لا تعدو أن تكون نوسماً في اللفظة ، وليس من الضروري أن يكون في غير لغة العرب ، بل هو خاصة من خواص اللغة العربية ، ولا يصح أن ننقل كما هي في لغة أخرى . فالفارسي مثلاً إذا أراد أن يترجم إلى لفته نصاً من النصوص السابقة وجب أن ينقله بالمعنى ؛ أي بالكلمة العامة التي تدل على « الشفة » لا بالكلمة الخاصة التي تدل على نوع الحيوان .

أما الاستعارة المفيدة كأن تصف رجلاً بأنه « أسد » ، أو طائرة بأنها « عقاب أو نسر » كما في قول شوقي :

أعقاب في عنان الحو لاج أم سحب فر من هوج الرياح

فمننا يرى « عبد القاهر » وجوب النقل باللفظ ومراعاة الاستعارة . فهو يرى في نقل الاستعارة غير المفيدة بلفظها مجالاً للسخرية والضحك و يحين أنه يرى أن نقل الاستعارة المفيدة بمناها حرماناً من نكتة بلاغية . ويعبر عن هذا بقوله [فعرف اللغة وطرقها الخاصة بترجم بالمعنى ، أما هذه الاستعارة المفيدة والتشبيه المفيد والكناية المفيدة فتنتقل كما هي من لغتها المترجم منها إلى اللغة المترجم إليها ، نقلاً لفظياً على طريق الاستعارة أو التشبيه أو المجاز ، وإلا فقدت جمالها وبلاغتها] .

فعبد القاهر الجرحى وهو فارسي الأصل وعلى علم باللغتين العربية والفارسية ولعله مارس الترجمة بين اللغتين فأتضح له تلك المشاكل التي تصادف المترجمين ، يحاول أن يضع لنا نهجاً عاماً يلتزمه المترجم ولا يحيد عنه

وفي الحديث عن مشاكل الترجمة لا يصح أن نقحم ضعف المترجم في اللغة التي يترجم منها أو التي يترجم إليها ، بدلاً يسمي المترجم مترجماً حقاً إلا حين يسيطر على اللغتين كتابة وقراءة كذلك يحذر بنا أن نفترض إخلاص المترجم في عمله وحسن نيته ، وأنه حين أخرج النص المترجم قد بذل الجهد وتحرى الصواب ، ولم يكن متأثراً بمذهب خاص يصيب ترجمته بصفة خاصة ، أى أن للترجمة مشكل وسمويات حتى مع إتقان المترجم للغتين ، وأمانته وإخلاصه في عمله .

ومن تلك الصعوبات ما نسميه بهندسة الجملة فاللغات تختلف في النظام الذي تخضع له الجمل في تركيب كلماتها ، وعلاقة كل كلمة بالأخرى ، فالفعل مكان خاص من الجملة ، والفاعل مكان آخر ، والمفعول مكان ثالث وهكذا

وقد يصعب الترجمة إلى التقديم أو التأخير ، وإلى عملية تنظيمية خاصة حتى تبدو ترجمته جارية على المنهج المألوف في اللغة المترجم إليها .

كذلك من صعوبات الترجمة كل ما يتعلق بجمال الألفاظ وموسيقاها . فقد يؤثر الكاتب انظماً على آخر لا شيء سوى أن اللفظ له رنة رتيبة في أذن الكاتب والسامع . أو لأنه يندمج مع ما سبقه من الألفاظ أو ما يليه منها ، فتكون من عباراته وجمله سلسلة من الأصوات اللغوية المسجمة التي لا تنبهر في الآذان والأسماع . وتلك هي الصفة التي نفتقدها في كل ترجمة ، ولا سيما في ترجمة الألفاظ العربية .

فاللغة العربية من اللغات التي عنيت بموسيقى أنماظها وعباراتها في كل العصور . فلما مما يسمى بالمحسنات اللفظية فنون وبنون ، تعرض لها المطولات من كتب البلاغة العربية ، وتسوق لها شواهد كثيرة من النظم والنثر . وبلغ تفنن الكتاب والشعراء والخطباء في تلك العناية اللفظية أن وضع لها المتأخرون من دارسي البلاغة قواعد ونظماً أو شكت أن تصعب علماً مستقلاً من علوم اللغة العربية هو ما يطلق عليه « البديع » . ومن أشهر فنون البديع ما يسمى بالجفاس كقول رجل للمأمون بتظلم من عامل له^(١) : [يا أمير المؤمنين ما ترك لي فضة إلا فضها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا غلة إلا غلها ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا عرضاً إلا عرض له . ولا ماشية إلا امتشها ، ولا جليلاً إلا أجلاه] . ويقال إن المأمون قد عجب من فصاحته وفضى حاجته !

فكيف السبيل إلى ترجمة مثل هذا الكلام وهو كثير في اللغة العربية ، وأي موقف يمكن أن يلتزمه المترجم حين تعرض له تلك المحسنات اللفظية التي قصدها الأدباء ، وعمدوا إليها لتزيين آدابهم ، وجعلها تنصف بالروعة والجمال ؟ وليس بعيننا هنا على كل حال البحث في هاتين المشكلتين ، مشكلة هندسة الجمل ، ومشكلة الجمال اللفظي . وإنما الذي نهدف إليه من هذا الفصل هو تلك المشكلة الكبرى في الترجمة ، وهي التي تتصل بدلالة الكلمات وحدود معانيها بين لغة وأخرى .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٠٨ .

ذلك لأن الكلمات تكتسب دلالتها في كل لغة بعد تجارب كثيرة، من الأحداث الاجتماعية التي يمر بها المرء، وترتبط الكلمة في ذهن كل منا بتلك الأحداث ارتباطاً وثيقاً، فتتلون دلالاتها بها، وتظل تلك الدلالة بالتجارب الخاصة للإنسان في حياته. وهي لدى فرد من البيئة الاجتماعية توحي بظلال من الدلالة قد لا تخطر في ذهن آخر من نفس البيئة. لأن تجاربهما مع الكلمة مختلفة، ونظرة كل منهما لها متباينة، تبعاً لتلك الأحداث التي ارتبطت بها في حياتهما. غير أن هناك قدراً مشتركاً لدلالة الكلمات في كل بيئة، هو الذي على أساسه يكون التعامل بالكلمات، وعلى مستواه يكون التفاهم بين الأفراد.

إذا تغربت الكلمة وخرجت من بيئتها الاجتماعية إلى بيئة أخرى، أي إلى لغة أخرى، احتاج المترجم إلى جهد للحصول على ما يناظرها أو يرادفها في دلالتها، لتؤدي في ذهن السامع الجديد في البيئة الجديدة نفس الدلالة، أو ما يقرب منها في بيئتها الأصلية. وهذا يمكن أن يقال إن المترجم قد وفق في مهمته، وأعطى صورة صحيحة لدلالة الكلمة.

وعلى قدر شيوع الكلمة في البيئة الاجتماعية، وعلى قدر ما تمر به من تجارب في الأحداث الدنيوية، تكتسب تلك الظلال الدلالية، وتتراى حدودها، وتتضح صورتها في الأذهان، ويقال عن الكلمة حينئذ إن دلالتها واضحة قوية لا غموض فيها ولا إبهام، فلا تكاد الأذن تلتفتها حتى يخطر في الذهن لها صورة بارزة المعالم والحدود، تضرب لها النفوس، وتنفعل المواطن. وهذا هو السر في أن بعض الكلمات ذات الدلالات المفردة يتحاييل عليها الناس في كل بيئة باصطناع ألفاظ قليلة الشبوع أو ألفاظ أجنبية عن اللغة، رغبة في أن تصبح الصورة منطاة بستر رفيع يخفى شيئاً من معالمها، ويقفل من وضوحها، فلا تחדش الحياء، ولا تبيث على النفور والاشمئزاز. وتتضح هذه

الظاهرة في الكلمات المعبرة عن أعضاء التناسل ، والعمالية الجنسية والفاظ الموت والأمراض والكوارث وغيرها . مما يمكنه من أن يلفظ أحرى بعد زمن معين .

ودلالة الكلمات في مجال الأفكار وفي النشاط العامي تلتزم عادة حدوداً لا تكاد تتعداها ، فهي بين أصحاب الفكر وذوى الثقافات المشابهة ، متماثلة أو متقاربة في دلالاتها ، ولا سيما حين تعرض تلك الكلمات لظواهر الطبيعة والأحوال الكونية في العالم . ولذا يقال دائماً إن ترجمة العلوم أسهل وأسهل ، لأن دلالة الألفاظ فيها محدودة مضبوطة ، وليست محل جدل أو نزاع في غالب الأحيان . فأنهم ما يعني به صاحب العلم هو الفكرة والنظرة الموضوعية ، دون تأثر بشعور فردي أو بماطلة شخصية .

أما في ترجمة النصوص الأدبية فالمشكلة أشد عسراً ، وأصعب من ذلك . لأن الآداب تعتمد على التصوير والماطفة ، والتأثير والاقطعال ، إلى جانب ما يمكن أن تشتمل عليه من أفكار . ولا يكون الأدب أدباً إلا بخروج الكلمات عن دلالتها اللغوية ، وشحنها بفيض من الصور والأحيلة . و مترجم الأدب لا يقنع عادة إلا بترجمة أدبية تبرز نواحي الجمال في النص المترجم كي يتذوق القارئ أكبر قدر ممكن من جمال النص الأصلي ، ويقف على عناصر المهارة فيه .

وليست ترجمة الآداب بمستحيلة أو فوق طاقة البشر ، غير أنها تحتاج إلى الجهد والمثابرة ، وتقويف إلى حد كبير على السيطرة والقوة في اللغتين . وقد عبر أحد الدارسين من المحدثين عن هذا بقوله [إن لغة كل أمة وبخاصة اللغة الأدبية متحملة بمواطن خاصة قد لا ندر كها الألفاظ ، ولكن يدركها الأديب وحده . وكثيراً ما تقف أمام نص من النصوص وفئة المتردد الذي يتمنى لو أنه رأى الأديب فيسأله عما أراد بهذا النص ، ويود أن لو كان حياً ليسأله عما يريد ،

بل هو يرجع بذهنه مستعرضاً ظروف الأدب ، نافخاً فيه الحياة من جديد ليسأله
عما يريد ! ذلك أن من المأني ما لا يزال في بطن الشاعر كما يقولون ، لا نعثر عليه
إلا بالجهد ، وإلا بعد أن نتعرف على قاموسه ونفسيته ، ومقدار احترامه لدلولات
الألفاظ ، ومقدار جرأته في الخروج عليها^(١) .

فإذا كان هذا هو الشأن في النصوص الأدبية التي هي من خلق الشعراء
والكتاب ، وهم لبسوا إلا طبقة موهوبة من الناس والبشر ، فإذا يكون موقف
المرجم إزاء النصوص الدينية المقدسة التي لا يقف أثرها عند عاطفة طابرة أو انفعال
وقتي ، بل هي تسيطر على العقول والقلوب . ونحاط تلك النصوص الدينية عادة
بهالة من القداسة والطهر تسمو بها فوق مستوى الإنسان .

من أجل هذا لم يكن من الغريب أن يتخرج أمير المترجمين في نقل هذه
النصوص المقدسة إلى لغة أخرى ، لا عن زمت أو قائم تدفهم إليه العاطفة
الدينية وحدها ، بل لأنهم رأوها من الآداب في الندوة العليا إذا تسامت ، تحسوا
أن يزيفوها ، أو يخلطوا في تراكيبها ووصلات أجزائها .

وظل هذا الشعور بلازم الكتاب في كل العصور حتى أيامنا هذه . إذ يرى
جمهور المفكرين في كل زمان أن نقل تلك النصوص الدينية أسبه بنقل الزهرة
من منبتها قد يعرضها للجفاف ونضب العبير ، وأنه من واجب القارىء أن
يتعرف على النص الديني في بيئته ، فمن العسير أن يتذوقه في غير لغته كتذوق
أسحاب اللغة له ، فهو من السمو والإعجاز بحيث إذا شاء أراك المأني اللطيفة التي
هي من خبايا العقل كأنما قد جسمت حتى رأتها العيون . وإن شاء لطف الأوصاف
الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها الظنون^(٢) .

(١) نيارات أدبية بين الشرق والغرب - الدكتور إبراهيم سلامة ص ٣٧ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٣٣ .

ولنا في قصة الترجمة السبعينية للعمد القديم مثل طيب ربما كيف اختلف الآراء في ترجمة اللاصوح الدينية للتوراة وكتب الأنبياء .

وأول ذكر لهذه الترجمة ما ورد في كتابات أحد أخصاب اليهود في القرن الثاني قبل الميلاد ، ثم شاع أمر هذه الترجمة بين اليهود أولاً ، ثم بين المسيحيين بعد ذلك . وقد اضطربت الروايات التاريخية بعض الاضطراب في شأن هذه الترجمة ، وحيكت حولها بعض القصص والأساطير . وأشهر تلك الروايات وأكثرها ذيوفاً ، تلك التي تحدثنا عن أن أحد البطالسة حكام مصر في القرن الثالث قبل الميلاد أراد تأسيس مكتبة الاسكندرية ومدعا بنفائس الكتب في العالم . فنصح به بعض خالصائه باستدعاء نفر من أخصاب اليهود في فلسطين ليفهموا بترجمة العمد القديم من العبرانية إلى اليونانية وكانت اليونانية حينئذ لغة الكتابة والعلم ، فطلب من الرئيس الديني لليهود في فلسطين أن يأذن بقدم اثنين وسبعين حبراً من أخصاب اليهود إلى الاسكندرية ليفضطلعوا بهذا الشأن الخطير ، على أن يكون كل ستة منهم من قبيلة من قبائل اليهود الأثني عشرة . فلما قدموا معهم نسخة معتمدة للعمد القديم بلغته الأصلية ، أكرم بطليموس وفادتهم وأقام لهم الولائم والاحتفالات ، ثم أمر بوضعهم في جزيرة ليفنقطعوا لتلك الترجمة وليتكون منهم ما يشبه المؤتمر الديني . وكان أن أعوا الترجمة في نحو سبعين يوماً كما تقول الرواية .

ويرى بعض النقاد أنه بالرجوع إلى نصوص الترجمة اليونانية ، والبحث فيها تتضح معالم وإشارات تبرهن على أن الذين قاموا بالترجمة لم يكونوا من يهود فلسطين ، وإنما كانوا من يهود الاسكندرية . وقد كان بالاسكندرية حينئذ جالية يهودية كبيرة ، ولعلمهم رأوا القيام بهذه الترجمة لتيسير العبادة ، وأداء الشعائر الدينية على أبناء الطائفة في لغة البيئة الجديدة . وهي أيضاً أشهر لغة علمية في ذلك الزمن . ذلك لأن يهود فلسطين حينئذ لم يكونوا على اتصال

وثيق باللغة اليونانية ، ومن المشكوك فيه أن يكون بينهم ذلك العدد الوفير من العارفين بها والمسيطرين عليها ليستطيعوا القيام بمثل هذه الترجمة . غير أن هذا النقد نفسه يمكن أن يوجه إلى يهود الإسكندرية الذين لم يعيشوا في كنف البطالسة قبل هذه الترجمة أكثر من ٣٥ عاماً ، وذلك مدة قصيرة لا تكفي لإتقان لغة من اللغات في جيل من الأجيال ، إتقانا يسمح لبعض أهلها بإتمام مثل هذه الترجمة . فإذا أضيف إلى ذلك أنه لم يعرف عن اليهود أنهم يتعمقون إلى ترجمة نصوصهم الدينية من العبرانية إلى لغات البيئات التي ينزحون إليها ، رأينا أن فكرة قيام اليهود في الإسكندرية بهذه الترجمة بتطورها بعض الضعف ، ولا تكاد تجرد ما يقربها أو يؤيدها .

وأي ما كان الشأن في أصل المترجمين وبيئاتهم ، فقد نمت الترجمة السبعينية قبل الميلاد بزمان طويل ، وثبت وجودها وتداولها بين اليهود قبل المسيحية ، كما ثبت انتشارها من الإسكندرية ، وانتقالها إلى البيئات الأخرى التي عاش بها اليهود . بل تمدت هذه الترجمة أقدم مصدر لنصوص العهد القديم ، فليس بين أيدينا الآن نسخة عبرية تعادلها في القدم أو تقرب منها ، رغم أن العبرانية هي اللغة الأصلية للعهد القديم .

ويرى فريق من النقاد والباحثين أن أقسام الترجمة السبعينية غير متكافئة ، وأن بعضها جيد غاية الجودة ، في حين أن بعضها الآخر لم يصل إلى نفس المستوى ، مما يدل في رأيهم ، على تعدد القاعين بالترجمة ، واختلاف قدرتهم عليها .

وحامت المسيحية فوجدت الترجمة السبعينية معهورة متداولة بين اليهود ، واعتمد عليها كتاب الأنجيل من الحواريين اعتماداً كبيراً ، فلم يرجعوا إلى النص العبراني إلا في النادر من الأحيان .

ولم تكف المسيحية تثبت أقدامها في أنحاء كثيرة من العالم حتى وجدنا اليهود يتفكرون لهذه الترجمة السبعينية . ويحاولون تجرييحها والانتفاص من (١٢٠ - الألفاظ)

قدرها ، ولا سيما في تلك النواضع التي يشتم منها التنبؤ أو الإرهاص بقدم المسيح .

ورغم أن الترجمة السبعينية قد باقت بين المسيحيين حد القداسة في القرون الأولى للمسيحية ، وجدنا بعض الكتاب والنقاد يحاولون إصلاحها وتمديد بعض نصوصها ، ثم إخراجها إلى الناس في ثوب جديد . وكان لهذا أن تمت ثلاث تراجم جديدة للعهد القديم باللغة اليونانية خلال القرن الثاني بعد الميلاد : —

(أ) أولها ترجمة عالم يهودى يدعى « أفوبلا » (Apollon) في سنة ١٢٦ ميلادية . وهى ترجمة حرفية ، ألزم فيها صاحبها التمسك بظاهر النصوص العبرية وصيغتها ، وكان يهدف من ترجمته ألا يترك حجة للمسيحيين يعتمدون عليها في فكرة الإرهاص بولد المسيح في نصوص العهد القديم .

(ب) سيمachus Symmachus وهو كما وصفه النقاد نصف مسيحي . وكان من الأدباء المسيطارين على زمام اللغة اليونانية ، فجاءت ترجمته أدبية سامية في أسلوبها ، رائعة في تخير الفاظها ؛ وإن ضحت ببعض معالم النص العبرى .

(ج) ثيودوشن Theodotion . وهو أيضاً نصف مسيحي . وقد أخذ لنفسه مسلكاً وسطاً بين الترجمتين السابقتين ، فكانت ترجمته بها لا يوصف بالحرفية الخالصة ، أو يمد من الترجمات الأدبية التي بطنى فيها الذوق الشخصى للمترجم على النصوص المترجمة .

ثم ظهرت بعد هذا عدة ترجمات أخرى أشهرها ترجمة « أوريجين » (Origen) الذى أعاد الترجمة بمد أن تبين له عدة فروق بين النص اليونانى والنص العبرى ، فأصلح الأخطاء وأعاد المحذوف ، وأخرج للناس نسخته وقد قسمت إلى أعمدة عرض فيها التراجم السابقة كما عرض فيها النص العبرى الأسمى ، حتى تكون وافية بالمقارنة ، فيستفيد بها الباحث الدارس .

وآخر ترجمتين للعهد القديم باللغة اليونانية ، كانتا في القرن الرابع الميلادي ،
فيها اتبعت نفس الطريقة التي اتبعها « أوريجين » . وهاتان الترجمتان كانتا أكثر
تداولاً واعتماداً في الكنيسة الشرفية . ثم لم تكن هناك محاولة أخرى لترجمة
يونانية بعد القرن الرابع الميلادي .

وهكذا زى أنه رغم أن المسيحيين في كل العصور قد نظروا إلى الترجمة
السبعينية نظرة تكاد تبلغ حد القداسة ، ورغم أن كل الترجمات الحديثة إلى
اللغات الأوروبية قد أسست على تلك الترجمة اليونانية ، وجدنا عدداً من الكتاب
يميدون المحاولة ، ولا يقتنعون بما جاء في الترجمة السبعينية ، فيستبدلون بالفاظها
أخرى ، لأن تجاربهم مع الألفاظ ودلالاتها متباينة ، وشعورهم إزاءها مختلف ،
هذا يؤثر لفظاً بيمينه ويأبى استعمال غيره ، وذلك بتخير لفظاً آخر ويتمسك به ،
وكلامهم مخلص أمين في عمله ، حريص على إنقاؤه ، وكلامهم يفهمون النصوص الأصلية
ويحاولون جهدهم تصويرها والتعبير عنها .

وكذلك يمكن القول في الترجمات القرآنية ، إلى اللاتينية ، والفرنسية ،
والإنجليزية ، فقد تعددت تلك الترجمات ، واختلفت في كثير من ألفاظها ،
لأشياء سوى أن تجارب المترجمين مع الألفاظ متباينة ، وما يحيط بالألفاظ من
ظلال المعاني والدلالات يختلف من مترجم إلى آخر . وليس من الحكمة أن
نفترض سوء النية في هؤلاء المترجمين ، أو أن نشك في نواياهم ، وليس من القبول
أن نتصور جهلهم بإحدى اللغتين المترجم منها والمترجم إليها ، فكلامهم من أهل
الفكر الذين يحافظون على سمعتهم ، ويحرصون على أن يوصلوا بالأمانة والإخلاص
في عملهم . ولذلك يجدر بنا حين نتعرض لتلك الترجمات المختلفة لألفاظ القرآن
الكريم أن نفترض فيمن قاموا بها البعد عن النرض أو الهوى ، وأنهم كانوا
ممن يحسنون فهم العربية ، ويجيدون الكتابة باللغة المترجم إليها . ثم مع هذا
أورغم هذا راهم يختلفون في تحير الألفاظ وإيثار بعضها على بعض ، تبعاً

لاختلاف تجاربهم معها ، وتبعاً لاختلاف حدودهم وظلالهم في ذهن كل منهم .

وقد رجعنا إلى ترجمة الألفاظ القرآنية إلى اللغة الإنجليزية فوجدنا أقدمها يرجع إلى سنة ١٧٣٤ ميلادية وهي التي قام بها « جورج سيل » George Sale ، ثم أعاد الترجمة بعده ج . م . « رودويل » J.M. Rodwell في سنة ١٨٧٦ ثم « بلهار » E. H. Palmer في سنة ١٨٨٠ . وهؤلاء الثلاثة لم يكونوا من المسلمين أو مهتمى الدين الإسلامى ، واسكنهم بذلوا الجهد ، وجاءوا بما وسعته طاقتهم فى إخلص وأمانة ومشاركة .

ثم ظهرت بعدهم ثلاث ترجمات أخرى لألفاظ القرآن قام بها قوم من المسلمين ، ومن يتمسكون ويعترون بالدين الإسلامى ، ويحرصون على إظهار تعاليمه وأحكامه فى صورة وضاعة مشرفة ، لا يشبهها شين ولا يشوهها زيف ، فبدلوا جهدهم ، واستنفدوا طاقتهم ، وأنوا بما وسعهم . وهؤلاء هم محمد على الباكستانى سنة ١٩١٧ ، مرمدوك بكفال Marmaduke Pickthall سنة ١٩٣٠ ، وأخيراً يوسف على الباكستانى منذ سنوات .

وحين نستعرض هذه الترجمات الستة ، نراها تشترك فى العماظ كثيرة جداً ، ونراها مع ذلك تختلف فى بعض الألفاظ والعبارات التى رغم أنها جميعاً تؤدى المعنى فى عمومها ، فقد تباينت إزاءها نظرة المترجمين وموقفهم منها . ولتوضيح ذلك وقع اختيارنا على بضع آيات من آخر سورة البقرة هى قوله تعالى :

[لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين] .

فبينما نرى معظم المترجمين يترجم كلمة «البقرة» بالكلمة الإنجليزية «Cow» ،
نرى أحدهم يستعمل كلمة أخرى هي Heifer . كذلك بينما نراهم يثتركون
جميعاً في كلمة «Soul» للنفس ، وفي كلمة Burden - للإصر ، نراهم يختلفون
في ترجمة الألفاظ الآتية :

(1) force. (2) burden. (3) require. (١) يكاف
(4) impose a duty. (5) task. (6) place a burden.

(1) its Capacity. (2) its Power. (3) its Capacity. (٢) وسما
(4) ability. (5) its Scope (6) what it Can bear

(1) Punish. (2) Punish. (3) Catch up. (٣) يؤخذ
(4) Punish. (5) Condemn. (9) Condemn.

(1) act sinfully. (2) fall into sin. (٤) أخطأنا
(3) make mistake (4) make a mistake
(5) miss the mark (6) fall into error.

(1) Be favourable. (2) Blot out our sins (3) forgive اعف عنا
(4) Pardon. (5) Pardon. (6) Blot out our sins
(1) Spare us. (2) forgive. (3) Pardon. اعفنا
(4) grant Protection (5) absolve. (6) grant forgiveness. } (٥)

(1) Patron. (2) Protector. (3) Sovereign. (٦) مولانا
(4) Patron. (5) Protector. (6) Protector

وهنا نحن أولاء نعرض بعض الترجمات المختلفة للآيات القرآنية الآتية الذكر
مرتبة على حسب تاريخ ظهورها .

1 - George Sale. 1731.

God will not force any soul beyond its capacity : It shall have the good which it gaineth, and it shall suffer the evil which it gaineth. O Lord, punish us not, if we forget, or act sinfully : O Lord, lay not on us a burden like that which thou hast laid on those who have been before us ; neither make us, O Lord, to bear what we have not strength to bear, but be favourable unto us, and spare us, and be merciful unto us. Thou art our patron ; help us therefore against the unbelieving nations.

2 - J. M. Rodwell. 1876.

God will not burden any soul beyond its power. It shall enjoy the good which it hath acquired, and shall bear the evil for the aquirement of which it laboured. O our Lord ; punish us not if we forget, or fall into sin : O our Lord ; and lay not on us a load like that which Thou hast laid on those who have been before us ; O our Lord ; and lay not on us that for which we have not strength : but blot out our sins and forgive us, and have pity on us. Thou art our protector ; help us then against the unbelievers.

3 - E. H. Palmer. 1880.

God will not require of the soul save its capacity. It shall have what it has earned, and it shall owe what has been earned from it. Lord, catch us not up, if we forget or make mistake. Lord ; load us not with a burden, as Thou hast loaded those who were before us. Lord, make us not to carry what we have not strength for, but forgive us, and pardon us, and have mercy on us. Thou art our Sovereign, then help us against the people who do not believe!

4—Maulvi Muhammad Ali : 1917.

Allah does not impose upon any soul a duty but to the extent of its ability, for it is (the benefit of) what it has earned, and upon it (the evil of) what it has wrought.

Our Lord: do not punish us if we forget or make a mistake. our Lord : do not lay on us a burden as Thou didst lay on those before us; our Lord; do not impose upon us that which we have not the strength to bear; and pardon us and grant us protection and have mercy on us, Thou art our patron, so help us against the unbelieving people.

5—Marmaduke Pickthall : 1920

Allah tasketh not a soul beyond its scope. For it (is only) that which it hath earned, and against it (only) that which it hath deserved. Our Lord! Condemn us not if we forget, or miss the mark! Our Lord! Lay not on us such a burden as Thou didst lay on those before us! Our Lord! impose not on us that which we have not the strength to bear! Pardon us, absolve us and have mercy on us. Thou, our Protector, and give us victory over the disbelieving folk.

6—یوسف علی

On no soul doth God Place a burden greater than it can bear. It gets every good that it earns, and it suffers every ill that it earns. (Pray) : "Our Lord" ! Condemn us not if we forget or fall into error; Our Lord! Lay not on us a burden like that which Thou didst lay on those before us; Our Lord! Lay not on us a burden greater than we have strength to bear Blot out our sins, and grant us forgiveness. Have mercy on us. Thou Art our Protector; Help us Against those who stand Against Faith.

وليس بمسير بعد هذا العرض لعدة ترجمات الألفاظ القرآنية ، إدراك السرّ في اختلاف المسلمين حول ترجمة القرآن الكريم . إذ يرى جمهور كبير منهم أن ترجمة القرآن مهما بلغ المترجم من القوة في اللغتين لا تكاد تحقق الهدف ، وذلك لأن اللغة العربية نواحي خاصة من فنون البلاغة تعنى بها كل العناية ، وتذيع في أساليبها ولا تكاد تشبهها في هذا لغة أخرى . فمع فنون الجمال اللفظي التي أشرنا إليها آنفاً ، تصف اللغة العربية بالعناية بالمجاز والاستعارة والكناية أو التورية وغيرها من فنون القول الوثيقة الصلة بدلالة الألفاظ .

وقد تجلت هذه الحقيقة بصورة أروع حين عرض بعض الباحثين من القدماء لألفاظ القرآن بالشرح والتفسير ، وتبين لهم أنه لا يتم فهم ألفاظ القرآن إلا بعد التعرف على أساليبه ، وما يمكن أن ينطوي وراء تمييزاته من المعاني والمقاصد . ولذا وضع أبو عبيدة كتابه المسمى « مجاز القرآن » وتحدث فيه عن المجازات القرآنية ، ودلالاتها اللطيفة . ويصف أبو عبيدة الآيتين :

« عملوا ما شئتم » و « ومن شاء فليكفر » .

بقوله : إن هذا ظاهره الأمر وباطنه الزجر ، وهو من سنن العرب .

ثم ظهر لابن قتيبة كتاب نحت عنوان « تأويل مشكل القرآن » ، وفيه يمرض ابن قتيبة لما خفي عن العامة الذين لا يعرفون إلا اللفظ وظاهر دلالاته على معناه ، وفيه يقول إن للقرآن من القوة والجمال ما قد يخفى على غير أهل الذوق وأرياب البصيرة بالفن الأدبي . ولذلك لا يعرف فضل القرآن إلا من كثر نظره واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات (١) .

ففي قوله تعالى : « وألقيت عليك محبة مني » يقول ابن قتيبة : لم يرد في هذا الموضوع أني أحببتك ، وإن كان يحبه ، وإنما أراد أنه حبه إلى القلوب

وقربه إلى النفوس . ويقول في قوله تعالى « وجعلنا نومكم سباتا » : ليس السبات هنا النوم ، ولكن السبات الراحة ، أى جعلنا النوم راحة لأبدانكم .

ويمثل ابن قتيبة للاستعارة في القرآن بقوله تعالى : « أو من كان ميماً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس » ويشرح الآية بقوله : أى كان كافراً فهديناه ، وجعلنا له إيماناً يهتدى به سبيل الخير والدعاة .

ومن كنيات القرآن قوله تعالى « وثيابك فطهر » ، أى طهر نفسك من الذنوب ، فكنى عن الجسم بالثياب لأنها تشتمل عليه .

ومن أساليب القرآن في رأى ابن قتيبة : أن يأتى الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير كقوله سبحانه « أنت فات للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ؟ » ، وكان يأتى على الاستفهام وهو تعجب كقوله « عم يدسألون عن الذبا العظيم ؟ ! » ، وكان يأتى على مذهب الاستفهام وهو توبيخ كقوله « أتأتون الذكران من العالمين ؟ ! » .

ثم ظهر بعد كتاب ابن قتيبة أثر جليل الشأن هو كتاب إعجاز القرآن للباقلانى . وفي بعض فصول هذا الكتاب يعرض المؤلف الكثير من فنون البلاغة العربية ، كالتمثيل والمطابقة والتجنيس والمقابلة والموازنة والمساواة والترشيح والكناية . . الخ .

وظهر معه كتاب آخر هو « تلخيص البيان في مجازات القرآن » لأشرف الرضى . وفيه يقصر المؤلف دراسته على البحث في الجاز القرآنى ، أى في الألفاظ المستعملة في غير ما وضعت له كقوله تعالى « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وجرنا الأرض عيوننا فالتقى الماء على أمر قد قدر » . فالمراد بفتحنا أبواب السماء تسهيل سبل الأمطار حتى لا يحبسها حابس . وقوله « فالتقى الماء على أمر قد قدر » ، أى اختلط ماء الأمطار المنهمرة بماء العيون المتفجرة ، فالتقى الماءان على ما قدره الله سبحانه من غير زيادة ولا نقصان .

وأخيراً نجد كتاب « بدائع القرآن لابن أبي إسبعم » المتوفى سنة ٦٥٤ هـ
وفيه يسوق المؤلف من فنون البلاغة التي وردت في آيات القرآن نحو مائة فن ،
كالهجاز والاستعارة والكناية والإرداف والتشبيه والإيجاز ... الخ .

وفي الحق أنه لا يكاد المرء يفتني من تصفح هذه الكتب وأمثالها حتى
يحس في قرارة نفسه أن الوقوف على دلالات الألفاظ القرآنية أمر عسير المنال ،
دونه صعوبات جمّة ، فلا يكاد يسلم المترجم لها من الزلل أو القصور في إبرار
تلك الدلالات ، وتصويرها بالقدر الذي يقارب ما هي عليه في منبها القرآني
من جمال وروعة وإعجاز لأهل اللسان والفصاحة ، في كل زمان ومكان .

الفصل الحادي عشر

نصيب الالفاظ العربية من الدلالة

- ١ -

أمية العرب

تذكر المعاجم القديمة لكلمة الأمي معنيين أحدهما هو المؤلف الشائع بيننا الآن ، والآخر معنى غريب غير مستساغ هو على حد تعبيرهم [العيس الجاني الجلف القليل الكلام] . ولست أدري كيف استباح أصحاب المعاجم لأنفسهم أن ينسبوا مثل هذا المعنى لكلمة الأمي بعد أن وصف بها النبي في القرآن الكريم ، وكيف يتصور أن يكون للكلمة مثل هذه الدلالة في أذهان العرب ، ثم مع هذا تتخذ وصفاً لنبيهم في قوله تعالى « الذين يقبلون الرسول النبي الأمي » ، وقوله « فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي » . والغريب أننا لا نرى أي أثر لهذه الكلمة في جمهرة ابن دريد ، ولا في سجاح الجوزري ، ولا في تذييل الصاغاني ، فلم يرد لها ذكر في هذه المعاجم على سعتها وكثرة ما جاء فيها .

ويبدو أن كلمة الأمي من الكلمات التي لم تكن شائعة في الاستعمال قبل الإسلام ، فلا نعرف لها نصاً صحيحاً من نصوص الأدب الجاهلي ، ولا نعرف أن العرب قد اشتقوا لها فعلاً ، أو غيره من أنواع المشتقات .

ومهما يكن من أصل هذه الكلمة ، فالذي يبدو من استعمالها القرآن أنها وصف لا يراد به الخط من شأن الموصوف ، أو الانقصاص من قدره ، بل يوصف به من ليس من أهل الكتاب ، سواء كان يقرأ ويكتب ، أو ممن

لا يقرأون ولا يكتبون . ففي قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي »
وقوله « فآمروا بالله ورسوله النبي الأمي » ، يدعو سبحانه أهل الكتاب من
بنى إسرائيل أن يؤمنوا بذلك الرسول الذي ليس منهم ، والذي ورد ذكره
في كتبهم .

وقد اقتضت حكمته أن يكون « محمد » من غير أهل الكتاب ، خلافاً
لما جرت به السوابق من اختصاص أهل الكتب المقدسة بالرسل والأنبياء .
فجميع أنبياء بنى إسرائيل من بينهم ، ومن نشأوا في ظل الكتب المقدسة التي
أنزلت من قبل ، فأصبح القوم وقد خيل إليهم أن الرسول الحق لا يكون إلا
منهم ، كما ما كانت النبوة أمر وراثته فيهم .

ويتضح هذا المعنى حين نستعرض الآيات القرآنية الأربعة التي ورد فيها
كلمة « الأميين » ، فليس من بينها ما يشتم منه لأول وهلة أن المراد بالأميين
الذين يجهلون القراءة والكتابة ، سوى قوله تعالى [ومنهم أميون لا يعلمون
الكتاب إلا أمانى] . غير أن مثل هذا الفهم يجب أن يستبعد حين ينظر إلى
الآية في ضوء الآيات التي سبقتها ، وفي ضوء استعمال الكلمة في الآيات الثلاث
الأخرى . وقد ذهب إلى مثل هذا التفسير بعض علماء الإسلام أمثال قتاده
وابن زيد ؛ فقد روى عنهم الطبري في تفسيره ما يشبه هذا الذي قررناه هنا من
أن العرب أمة أمية ، أي أنهم ليس لهم كتاب سماوي يقرءونه وبيدنون به .
وجاء في دائرة المعارف الإسلامية ما نصه [ومن المحتمل أن كلمة أي أو أميين
وضمها أهل الكتاب « وربما كان واضعها هم اليهود » للدلالة على الوثنيين .
ويزيد في تأييد هذا الرأي أن « هورفتر » يبين أن لها مقابلاً في العبرية هو
[« أمسوت هاعولام »] . . . إلى أن يقول : « فلا الكلمة العبرية « أمة »

ولا العبرية « أما » ولا الآرامية « أميتا » تدل على الأمة في حالة الجهالة . . .
وإذا عرفنا أن « محمداً » ربما لم يكن على بينة مما تدل عليه كلمة أمى عند
اليهود وأنه ربما جعل لهذه الكلمة معنى جديداً ^(١).

ولسنا نهدف بهذا التفسير أن نثبت للنبي أنه كان يقرأ ويكتب ، أو أن
العرب كانوا يقرأون ويكتبون ، بل ندعو إلى عدم الربط بين هذه الآيات وبين
ما كان عليه النبي فعلاً . فإذا أردنا البرهان على أنه لم يكن يكتب ويقرأ التمسنا
هذا من الآيات القرآنية الأخرى كقوله تعالى [وما كنت تتلو من قبله من
كتاب ولا تحطه يمينك] . أما جهل العرب بالكتابة والقراءة فيمكن
الاستدلال عليه بكثير من الحوادث التاريخية الصحيحة ، ومن آية مثل آية
الدين (يا أيها الذين آمنوا إذا تدابنتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب
بينكم كاتب بالعدل . . . الآية) ، فهي توضح لنا أن الكاتبين في بيعة الحجاز
كانوا من الندرة بحيث طلب من الناس إذا تدابنوا بدين أن يلتمسوا لهم كاتباً
يسجله ويوثقه ، ثم فرض على الكاتب أن يستجيب لدعوة الدائنين فلا يرفض لهم
دعوة أو يأبأها . ومع ندرة الكاتبين يتضح من الآية أن معظم الناس كانوا
قادرين على الإملاء ، وأنه من غير المألوف أن نجد بينهم من لا يستطيع أن
يعمل بنفسه .

ومن الأدلة التي يمكن أن نلمس لبرهنة على فلة شيوع الكتابة بين
العرب قبل الإسلام ما يرويه المؤرخون الثقات كالبلاذري في كتابه فتوح ^(٢)
البلدان حين يقول (دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب)
ثم يذكر أسماءهم فرداً فرداً . فإذا كان هذا شأن قريش مع تقدمها في التجارة
وسلطانها بين العرب ، فما بالك بحال القبائل الأخرى .

(١) النسخة العربية المجلد الثاني ص ٦٤٤ .

(٢) ص ١٧١

ولم تمكن الحال في المدينة خيراً منها في مكة ، فقد حصر المؤرخون أسماء الكاتبين فيها فلم يجاوزوا أحد عشر رجلاً . وإذا كان «صالح» يشجع المسلمين في المدينة على تعلم الكتابة ، ويفتدى الأسير في غزوة بدر بتعليم عشرة من صبيان المدينة .

أما الجالية اليهودية بالمدينة وما حولها فقد كانوا كثيرهم من اليهود في كل البيئات التي يرحلون إليها ، يتعلمون لغة قومها ، ومنهم من يتقنها ويتكلم بها دون لسانة ندم عن أصله ، أو نفسي ما استتر من أمره . ثم هم مع هذا قد يترجمون بعض نصوص التوراة إلى هذه اللغة الجديدة ، ويتعبدون بمعنى العبرانيين القدماء في ألفاظ غيرهم من الأمم التي يعيشون بينها .

وتدل كل الأسانيد التاريخية على أن اللغة العبرية لم تعد لغة كلام يتحدث بها الناس في خطبهم منذ القرن الرابع قبل الميلاد ^(١) . ولم يتردد التأخرون من أنبياء بني إسرائيل في كتابة بعض أسفارهم باللغة الآرامية أمثال دانيال وعزرا ونحميا ^(٢) . ولم تكد المسيحية تظهر بتعاليمها حتى كانت اللغة العبرية قد أصبحت في عداد اللغات الميتة ، لا يتكلم بها أحد ، ولا يتفاهم بها اليهود أنفسهم . تلك كانت حال العبرية في أوائل ظهور المسيحية وفي فلسطين ، فكيف كان حالها بعد ذلك بنحو خمسة أو ستة قرون وفي بيئة بعيدة كبلاد العرب ؟ !

لهذا نتصور أن يهود المدينة كانت لغتهم العربية ، وقد نشأ بينهم شعراء ينظمون الشعر بالعربية كالسموأل ، وأوس بن دنى ، والربيع بن أبي الحقيق ، وكمب بن الأشرف . ويصفير كلمان يهود بثرب فيقول [إنهم كانوا يتكلمون

(1) Hebrew Grammar, by Gesenius. p. 15.

(2) Introduction to the literature of the old Testament. by Driver p. 467 — 480.

باللغة نفسها التي يتخاطب بها السكان الآخرون [(١)] .

ومع هذا فأغلب الظن أن يهود المدينة كانوا أوثق اتصالا بالكتابة من سائر العرب ، فقد قيل لنا إن بعضاً منهم كانوا يعلمونها الصبيان في المدينة .

ويروى لنا البخاري حديثاً منسوباً لزيد بن ثابت بروايتين إحداهما [قال أنبي النبي « صلعم » مقدمه المدينة ، فقيل هذا من بني النجار وقد قرأ صبع عشرة سورة فقرأت عليه فأعجبه ذلك ، فقال تعام كتاب يهود فأبى ما آمنهم على كتابي ، ففعلت ، فما مضى لي نصف شهر حتى حذفته] . والرواية الثانية : [عن زيد بن ثابت قال لي النبي صلعم إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا علي أو ينقصوا فتعام السريانية فتعلمها في سبعة عشر يوماً] .

ويبدو أن الرواية الأولى أقرب إلى الصحة ، فليس يعقل أن إسنادها بلغ من النبوغ والعبقرية يستطيع تعام لغة أجنبية كالسريانية — في مثل هذه المدة الوجيزة . هذا إلى أن النبي « صلعم » إنما كان يهدف إلى أن يكون بجانبه كاتب أمين ثقة ، ولم يكن « صلعم » يستطيع الإملاء بغير العربية ، ولا معنى إذن أن يطالب من زيد تعام السريانية ، فضلاً عن أن السريانية ليست لغة التوراة حتى يمكن أن تتصور أن يهود المدينة كانوا يكتبون بها إلى النبي ، بل لقد رأينا أننا أن يهود المدينة لم يكونوا على علم باللغة العبرية لغة كتبهم المقدسة . لهذا كله زجح أن اليهود قد شاعت بينهم الكتابة بالرموز العربية المألوفة لنا ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم حث زيد على تعلمها ، بعد أن سمعه يقرأ عن ظهر قلب بعضاً من سور القرآن .

(١) العرب والإمبراطورية العربية ابروكامان ترعمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير ابيمليكى . ص ٢٩ : وامل صاحب معجم البلدان حين أشار إلى يهود يثرب وقال عنهم « منهم عرب تهودوا » لم يرد سوى أن يصفهم بأنهم كانوا من الناحية القوية كغيرهم من عرب القبائل لأخرى ج : ص ٦١ .

وليس من الصبر إذن على زيد بن ثابت تعلم الرموز التي تسكتب بها لغته العربية في مثل تلك المدة القصيرة . ويكون معنى قوله « صلعم » كتاب يهود أو كتابتهم ، تلك الرموز العربية التي شاعت بين يهود المدينة أكثر من شيوعها بين القبائل الأخرى ، حتى أصبحت لهم بمثابة الحرفة التي مهروا فيها ، ولا ينافسهم فيها غيرهم من العرب . فأراد النبي أن يحث المسلمين على منافسة اليهود في تعلم الكتابة العربية حتى يكون من بينهم كاتبون مهرة يطعنون إلى ما يسطرون له من رسائل وقد أملى رسائله كلها باللغة العربية حتى تلك الرسائل التي بعث بها إلى كسرى وقيصر الروم والنجاشي والقوقس ، وغيرهم من الملوك والمجاهدين الذين لم تكن لغتهم العربية .

الأمية والثقافة اللغوية

تبين لنا مما تقدم أن العرب الجاهليين لم يكونوا يوجه عام أهل كتابة وقراءة ، فهل تستلزم هذه الحال أنهم كانوا أيضاً على قدر ضئيل من الثقافة اللغوية ؟

تشهد الآثار الأدبية التي رويت عن العصر الجاهلي أن شعراءهم وخطباءهم قد برعوا في صناعة القول ، فمنهم البلاغ الفصحاء الذين اعتزوا بلبنتهم وتنافسوا في إجادتها شعراً ونثراً .

وقد دل نظام الشعر وأوزانه على أن الأدب الجاهلي قد سبقته مراحل وأطوار تمت فيها نشأته ونموه ، فلما جاء الإسلام وجد الخاصة من العرب يكرسون حياتهم لإتقانه وتجويدته في أسواقهم ومقديباتهم ، فكانت تعقد المساجلات والمفاخرات بين الشعراء والخطباء في تلك الأسواق التي يمكن أن تدعى بحق التفرات الثقافية للعرب القدماء .

فليس من الغفلة في شيء أن نجد الإنتاج الأدبي عند الجاهليين مضمراً من مظاهر الثقافة اللغوية التي اكتسبها بالتأني والمشافهة جيلاً بعد جيل .

ولم يكن ينقصهم حينئذ إلا الكتب والكتابة ووسائل التدوين والتسطير وهذه كلها في رأي أمور تافهة في كتب الملكة الكلامية . فقد نشأت اللغات البشرية في صورة صوتية تنطلق من الأفواه وتعاقدتها الأسماع ثم تفسرها الأذهان . ولا تزال على هذه الحال حتى الآن ، بل ستظل هكذا في مستقبل الأيام .

أما الكتابة فهي تلك الوسيلة الناقصة التي اهتدى إليها الإنسان في عصور متأخرة نسبياً حين تقاس بدشأة اللغة الإنسانية . وقد بدأت الكتابة تصويرية ثم مقطعية ثم هجائية على يد الفينيقيين الذين ورثوها للعالم الحديث . ولم تكده تقدم الكتابة أكثر من هذا خلال الثلاثين قرناً الماضية ، إلى أن جاء القرن العشرين ، واهتدى الإنسان إلى وسائل أخرى للتسجيل أمدق وأدق ، فاصطنع التسجيل الصوتي على أسطوانات وأشرطة وأسلاك تتضمن مع صغر حجمها ما يمكن أن يتضمنه كتاب أو مجلد .

ويتسم العصر الحاضر بسمة السرعة في كل شيء ، فواصلاته سريعة ، ومجال النشاط فيه لا يقف عند حدود المدن أو الهالك ، بل يمتدّها إلى جميع أطراف الأرض .

ولهذا يبدو أن الكتابة ستفقد أهميتها في التسجيل والتدوين ، وسيحل محلها التسجيل الصوتي حين تصبح أدواته في متناول الناس جميعاً .

فالمستقبل للسمع لا للعين ، والثقافة عن طريق العين ستفقد كثيراً من سلطانها ، وسيكون للسمع الأثر الأولي ولا سيما في الملكات اللسانية ومساعدة القول ولا نشك في أن السمع حينئذ سيصبح أكثر حساسية ، يميز دقائق الأصوات ومتباين النغمات ، مما سيؤدي حتماً إلى أن يصير الكلام أقرب إلى (م ١٣ - الألفاظ)

الموسيقى . وهنا يمكن أن يقال إن الثقافة اللغوية قد عادت كلها إلى الوسيلة الطبيعية وهي حاسة السمع ، لاستثنين إلا بها ، ولا تحتاج إلى ما اصطفيه الإنسان من وسائل ناقصة كالكتاب والقلم .

ومثل التعاليم السمعي عند العرب القدماء مثله الآن عن طريق الإذاعة ، غير أن فرص السماع الآن أكثر ، ومجالها أوسع وأشمل . في حين أن طالب الثقافة من العرب القدماء كان عليهم أن يشهدوا الأسواق والمخاض بأذنيهم ، وأن يتجشموا في ذلك من التنقل والأسفار ما لم يكن في وسع كل منهم .

وفي مثل هذه البيئة الأمية لا تكاد تتميز معالم الكلمات وحدودها تميزها بين القارئ والكاتبين . وذلك لأن القارئ حين يسمع كلمة من الكلمات تنطبع في ذهنه صورتان لها ، إحداها سمعية منطوقة والأخرى بصرية مكتوبة . فيربط بين هذه وتلك ربطاً وثيقاً . فالكتابة للصورة السمعية بمثابة القيود والأعلال تمنع الحكمة من الاختلاط أو الامتزاج بكلمة أخرى سابقة أو لاحقة . ولا عجب أن ترى النقوش الحجرية القديمة^(١) قد فصل فيها بين كل كلمة من كلماتها بخط رأسي ، حتى بين المضاف والمضاف إليه ترى ذلك الخط الرأسي الفاصل بين الكلمتين مثل ملك ! صبا ، مما يبرهن على شعور الكاتب شعوراً قوياً بحدود كل كلمة .

أما الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب فلا يكاد يدرك اللفظ إلا في شكل عبارات وجمل لا انفصام بين أجزائها .

وقد دلت التسجيلات الصوتية على أن الناطق لا يحاول تمييز حدود الكلمات بل ينطق بمجموعة منها في جملة أو عبارة وقد تشابكت أطرافها واختفت حدودها ولا يكاد يتوقف عن النطق إلا حيث ينقطع النفس ، أو حيث ينتهي الكلام إلى معنى مستقل بالفهم يحقق الهدف من النطق .

(١) لمعاصر في اللغة العربية اللغوية القديمة تأليف المسعودي . ص ٣ .

من أجل هذا يجمع المحدثون من اللغويين على أن اللغة المكتوبة المنطوقة ،
أقل استمداداً للتطور من المنطوقة فقط . وذلك لأن الكاتب يحاول المسودة
بالكلمة إلى ما كانت عليه كلما أصابها انحراف في الأفواه وعلى الألسنة .

واللغة العربية التي اصطفت في الآثار الأدبية الجاهلية قد نشأت وازدهرت
في ظل الأمية ، وهي اللغة التي حارل القدماء من العلماء الاحتفاظ لها بكل
حصانها القديمة التي منها ما يمكن أن يعزى إلى شيوع الأمية كالموسيقية
في الكلام

موسيقية الأدب العربي

يصف كثير من الدارسين لغتنا العربية بأنها لغة موسيقية وأنها انحدرت إلينا
وقد اكتسبت هذه الصفة منذ أقدم عهودها أو أقدم نصوصها ، ولاكنى لا أعرف
أحداً من هؤلاء الدارسين قد ربط بين هذه الموسيقية وبين ما شاع لدى العرب
القدماء من الأمية أو ندرة القراءة والكتابة .

وفي رأبي أن ظاهرة الموسيقية في اللغة العربية نمت في أغلب عناصرها إلى
تلك الأمية حين كان الأدب أدب الأذن لا أدب العين ، وحين اعتمد القوم على
مسامعهم في الحكم على النص اللغوي ، فاكتمت تلك الآذان المران والتميز
بين الفروق الصوتية الدقيقة ، وأصبحت مهنة تستريح إلى كلام لحن ولامه أو
إيقاعه ، وتأنى آخر لنبوه ، أو لأنه كما يعبر أهل الموسيقى نثار .

وكاتمرن الآذان في بيئة الأمية نمرن الألسنة أيضاً ، فتتعلق من عقابها وقد
اكتمت صفة الذلاقة ، فلا تتمثر أو تزل في أثناء النطق . وتتعاون الأذن مع

الاسان في مثل تلك البيئة على إظهار العناصر الموسيقية من الالفة ، ونقى العناصر الغابية والتخلص منها ، ويؤدي هذا مع مرور الأيام - وبشرط أن نظل الأمة في نهضتها الاجتماعية والحضارية - إلى انسجام في أصوات الكلام وحركاته ومقاطعها ، ويقتررب بذلك إلى نوع من الموسيقى أو الفناء .

ويرى الدارس للأدب العربي أن للمصر جاهلي آثاراً أدبية أكثرها من اللظم ، وأقلها من النثر ؛ بل يرى أن ما روى من النثر قريب الشبه بما روى من النظم ، ففيه تلتزم القافية بين عدد من العبارات . ولكنه لا يسكاد يخضع انظام توالى المقاطع الذي نألفه في المنظوم .

ثم قد يبدو لدارس الأدب العربي أن يفسر لنا عناية هؤلاء القدماء بالأدب عامة والشعر بصفة خاصة فيلتمس التفسير حيناً من بيئة العرب ، كالجاحظ حين يقسم الشعوب أقساماً ، فيرى أن اليونان أصحاب فلسفة ومنطق ، وأن الفرس أصحاب تقاليد ونقل ، وأن أهل الهند أصحاب حكمة وأخلاق ، فأما البيان في الشعر والنثر فحفظ العرب وحظهم وحدهم .

وطوراً يلتمسه من طبيعة العربي كالفاضي الخرجاني حين يقول إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطابع والرواية ، ولذلك ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه .

ومهما تكن الأسباب الأصالية التي ساعدت على نشأة هذه الشعاعرية العربية فلدى بمنينا هذا أن نتذكر أن الأدب الجاهلي قد نما وازدهر في مجتمع لا يصطنع الكتابة والقراءة ، وظل هذا المجتمع العربي قبل الإسلام بضعة قرون يرعى تلك النهضة البيانية ، ويعمل على ازدهارها . ولم يكن للشعر خلال هذه القرون إلا الصورة الصوتية ، تتردد على الأسماع فتسكبها الأذان وعادة التمييز بين الكلام اشتمل على الإيقاع والنغم .

ونلاحظ أسمى درجات الموسيقى في أوزان الشعر وفوافيه ، أما نثرهم فنراه
مثلاً خير تمثيل في خطبهم ووصاياهم تلك التي التزم فيها إلى حد كبير تردد أصوات
بميتها في نهاية العبارات والجلل .

ولا شك أن كلا من الشعر والخطابة ، كلام قصد به أولاً وقبل كل شيء
التأثير في العاطفة ، وسر هذا التأثير يمكن أن يكون عن طريق الجمال في المعنى ،
أو عن طريق الإيقاع والنغم في اللفظ . ويوجب القارئ الكاتب عادة بمعاني
الكلام أكثر من إعجابه بوقعه في الأسماع ، في حين أن الأبي المرهف الأذن
يستجيب أولاً لرنين اللفظ ونغمه ، وقد ينمعل له ويتأثر به تأثراً قوياً وإن خلا
من جمال في مضمونه ومعناه .

لهذا ترجع أن الشعر العربي القديم عني أولاً بالموسيقى ، وشفقته الأوزان
والأنغام عن المعاني والتعمق فيها . وأمل هذه الظاهرة لم يقتصر أمرها على الشعر
العربي القديم ، بل شمت كل الأشعار القديمة للأمم الأخرى ، كالقصائد الجرمانية
القديمة ، وأشعار اليونان في عصورهم الأولى ، ونحو هذا من الأشعار التي رويت
ولم تكتب ، أو التي نشأت في بيئة أمية .

غير أن أمية العرب قد ظلت شائعة بينهم رغم ما وصلوا إليه في عصر ما قبل
الإسلام من ناحية عقلية أرقى كثيراً مما كانت عليه البيئة الإغريقية أيام حروب
طروادة ، ورغم ما وصل إليه العالم الإنساني أيام هؤلاء الجاهليين من رقي وحضارة
واعتماد كبير على القراءة والكتابة .

لذلك لا نقالي حين نقرر هنا أن أثر الأمية في شعر العرب القدماء أعمن مع
أثرها في شعر غيرهم من الأمم القديمة .

بل لا تعرف أمة أخرى من الأمم قد ظهر لها مثل ذلك الأدب الجاهلي في
كثرة وإحكامه واعتزاز أهله به وتوفرهم عليه ، ثم كانت مع ذلك أمة أمية
أو شاعت فيها الأمية على النحو الذي روي لنا عن العرب القدماء .

فلدى أودان نذكره دائماً هو أن كل الأمم قد بدأت حياتها و جوالأمية ،
وأبه من المحتمل أن يسكون قد نشأ لبعض منها نوع من الأدب في هذا الجو أو
تلك الظروف ، ولكن ليس من بينها أمة قد عبت بتلك الآداب التي نشأت في
ظروف أميتها إلا العرب .

فالفارق الهام بين أمة العرب وغيرهم من الأمم ، أن العرب صرخوا بمهودهم
البدائية وهم أميون ، وكان لهم آداب ترجع ربما إلى ما قبل المسيح ، ثم تطورت
هذه الآداب في ظل الأمية حتى اكتمل تطورها ، وأخذت صورة الأدب اللامع
وهي لا تزال على الأمية باقية .

عنى العرب إذن بموسيقية الكلام ، لأنهم لم يكونوا أهل كتابة وقراءة ، بل
أهل سماع وإشاد ، وظلت هذه الخاصية بارزة في الشعر العربي في كل العصور ،
حتى بعد أن نشأت الموشحات ، وأريد بها الخروج عن نظام القافية الواحدة
والوزن الواحد ، نرى أن هذه الموسيقية قد تنوعت ألوانها وتباينت نغماتها حين
انتقل أبناء العرب إلى البيئات الطبيعية الممتدة الألوان ، من حفيف للأشجار ،
وغناء للأطيار ، ووقع للأمطار ، وأصداء مختلفة لأصوات الطبيعة حيث
تمتاز فتاتلف ، وتوحى بنوع من الموسيقية التي لا تسير على وتيرة واحدة كما
كانت في شبه الجزيرة ، ولكنها موسيقية الكلام على كل حال . فقد ظل أثر
الموسيقية الجاهلية هو السائد في كل العصور حتى بعد أن أصبحت المملكة
العربية أبعد ما تكون عن الأمية أو ما يشبه الأمية . وذلك لأن الأدباء في كل
العصور قد اتخذوا من تلك النماذج القديمة نصباً يحجون إليها ، ويلتمسون منها
الإلهام والوحي .

ولأمر ما سمى الأعشى بصناجة العرب ، فهو مع اشتراكه في الأمية كجمهور
الناس في بيئته قد عوض عن فقد البصر بسمع مرهف ، وأذن أكثر حساسية ،

جملته يتجه بكل قلبه ونفسه نحو هذه الموسيقى اللفظية ، وبوغل فيهم حتى تميز شعره بصلاحيته للفناء أكثر من غيره .

ولأمر ما كان أبو العلاء المعري أول شاعر عربي لفت نظرن إلى ما سماه بالزوميات ، فقد قضى أبو العلاء كل حياته يسمع ولا يكتب ، وأرهفت أذنه وسمعه بعد ذلك المران الطويل .

بل لا أكون مغالبا حين أقول إن أوضح ما يميز به الأدباء الكمفون في أدبهم هو عنايتهم بحرس الألفاظ ووقعها الموسيقى ، وكثيراً ما نشغلهم موسيقى الكلام عن مراميه وأهدافه ، فيتمرون المعنى القليل بفيض من الألفاظ والمبارات المتكررة ذات المعنى الواحد أو المتشابهة الدلالة .

ويصف الناقد الحديث القصيدة العربية بخلوها من الوحدة ، فهو قد اقتطف منها بعض أبياتها لم يخل هذا بكيانها ، أو ينقص من قدرها شيئاً . وهو في هذا الوصف يتنامى أن المعري قد أخذ وحدة القصيدة من الوزن والقافية ، لأن عنايته بالموسيقى والنغم قد فقت عنايته بالمعنى والأخيلة ، فليست القصيدة مفككة الأوصال كما قد تبدو ، بل شغل المعري بموسيقاها ، وأصبح ينغمس في البيت ، ويستعجب لوزنه وإيقاعه كلما تكررت القافية ، واتخذ نظام توالي المقام .

ولذا لاندعش حين يروى عن أحد الشعراء أنه قال متحدثاً عن المأمون (أسمعته الساعة يتناول شاطرنى عايه ما لكه لكان قليلا) . وكان أبو نواس يسمع البيت من الحسين بن الضحاك فيتموعده بأشد الوعيد إن لم يترك له هذا البيت . وكان القدماء من نقاد العرب يحكمون على الشعراء وشعرهم بالبيت الواحد . فيروى عن الأصمعي قوله « أغزل بيت قالته العرب : وما ذرفت عينك إلا لتقصرى ... » ، وقوله إن أهجى بيت قالته العرب : قوم إذا استنبح الأضياف كما بهم ... بل سمى زهير قاضي الشعراء بيت من الشعر هو :

وهن نحن مقطعه ثلاث اداء أو نداء أو جلاء
أما أمجد بيت فني رأى بعضهم قول الخطيئة : يعشور حتى طاهر
كلاهم

وقى رأى ثعلب قول الأعشى : فنى نوبياى الشمس ألفت فناعها
وقال أبو عمرو هو بيت جرير : الستم حبر من ركب المطايا
وقال غيره بل بيت الأحنف : شمس العداوة حتى يستفاد لهم

وأحكامهم موجزة سريعة ، ومجالس عبد الملك بن مروان مليئة بتلك الأحكام
الحزبية كقوله لكثير عزة (أما والله لولا بيت أنشدتني قبل هذا الحرمك حارتك).
وكان يقارن بين المرردق وحرير على أساس بيت واحد لكل منهما ، فله مرردق
يقول (فإني أذا الموت الذي هو واقع) ، فيجيبه حرير بقوله (أنا الدهر بفي
الموت والدهر خالد) !! .

فالشاعر العربي لرغبته في إطالة القصيدة ، وشدة اعتماده بموسيقاها قد أحل
نفسه من وحدة المعنى فيها ، مكتفيا بوحدة الورد والتقواى ، ولم تسعه ألفاظ
اللفظ وكلماتها في الجمع بين هاتين الوحدتين .

وليس من نافلة القول هنا أن نعرض عرصا سريعاً لقضية اللفظ والمعنى ، تلك
القضية التي ظلت مغاظة البحث والجدل فترة طويلة بين النقاد القدماء وكان
من بين هؤلاء النقاد من نادى بما ننادى به الآن من أن اللغة العربية ممثلة في
نصوص الآداب المروية تعد من اللغات التي عنت باللفظ أكثر من عنايتها
بالمعنى ، أو بعبارة أخرى عنت بموسيقى الكلام أكثر من عنايتها بمضمونه .
غير أننا في ندائنا بهذا الرأي نمزوه إلى الظروف الاجتماعية التي نشأت فيها تلك
الآداب ، من شيوع الأمية بين العرب ، واعتمادهم على السمع والمشافهة في تلقى
النصوص وتداولها .

وكان ممن تشبهوا للفظ والصياغة « الحاحظ » ، وتبعه في هذا كثيرون من الذين جاءوا بعده من ناقدى الأدب ودارسيه . فلنستمع مثلاً إلى أبي هلال المسكري إذ يقول (ليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والأعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في إجادة اللفظ وصفاته وحسنه وبهائه ... الخ) .

ولم يكده ينتصف القرن الرابع الهجري حتى رأينا نقاد الأدب العربي قد انقسموا فريقين : فريق ينتصر لللفظ وآخر للمعنى

ويلخص ابن رشيق^(١) في كتابه العمدة هذه القضية فيقول (اللفظ جسم وروحه المعنى) ثم يقول (وللناس في هذا آراء ومداهم ، منهم من يؤثر اللفظ على المعنى كقول بشار :

إد ما عضبنا غضبة مضرية هنكفا حجاب الشمس أو قطرت دما

ومن هؤلاء فرقة أصحاب جلبة وفعومة بلا طائل معنى إلا القليل النادر) ، ثم يقول (ومن الناس من يؤثر المعنى على اللفظ يطالب صحته ، ولا يبالي حيث وقع هجته اللفظ وقبحه وخشونته ، كابن الرومي وأبي الطيب القليلي) . ثم يجتهد ابن رشيق هذا الفصل بقوله (وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى) .

ويعقد ابن جنى في الخصائص^(٢) فصلاً مستفيضاً عنوانه (في الرد على من ادعى على العرب عنايتهم بالألفاظ وإغفالها المعاني) . وبقية ابن جنى من نفسه مدافعاً عن الأدب العربي ، فيعمل عناية العرب بالألفاظ بقوله « لأنها لما كانت عدوان معانيها ، وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميتها ، أصاحوها ورتبوها وبالغوا

(١) توفى في منتصف القرن الخامس الهجري

(٢) ص ٢٢٣

في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع في السمع وأذهب بها في الدلالة على القصد،
الآزى أن المثل إذا كان مجموعاً لصدامعه فحفظه ... الخ).

ثم لا يلبث ابن جنى في هذا الفصل أن يعود إلى طبيعته كمنحوى لاناقد
أدب ويبدأ في شرح مدلولات بعض الصيغ فيقول (وصيغة « أفعل » للتقل وجعل
الفاعل منفعلاً نحو دخل وأدخاته ، وصيغة « فاعل » لكونه من اثنين فصاعداً
نحو ضارب زيد عمراً ... الخ) .

وعلى هذا النهج العجيب يستمر في دفاعه . ولا يزيد بعد هذا أن تستدرجنا
قضية اللفظ والمعنى إلى أكثر مما سبق ذكره . ويكفي أن كثرة من ناقدى الأدب
القدماء قد فطنوا إلى عناية العرب بالفاظهم وموسيقاهم ، وإن لم ينسبوا هذا
إلى سبب واضح أو علة ظاهرة .

ولبت تقتصر موسيقية الشعر العربي على نظام المقاطع في الأبيات ، أو نظام
القوافي في أواخرها ، بل تشمل أيضاً تلك الظاهرة التي سماها علماء البلاغة
بالجناس ، وهو تردد الأصوات المتماثلة أو المتقاربة في مواضع مختلفة من البيت
الواحد . وشواهد في الأدب العربي قديمة وحديثه غزيرة جداً ، مما يدل على
حب العرب لهذا اللون من الموسيقى الكلامية ، كقول أوس بن حجر :

غر غرائر أبحار نشأت معاً حشن الخلائق عما يتقى زور
وقول الخطيئة :

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها وإن أنعموا لا، كدروها ولا كدوا
وقول كمب بن زهير :

ولقد علمت وأنت حبر عليمه أن لا يقربني الهوى لهوان
وقول الخنساء :

إن البكاء هو الشفاء من الحوى بين الجوانح

وقد عنى علماء البلاغة من التأخرين بإبراز هذه الظاهرة الموسيقية ، وألفوا فيها كتباً ورسائل عرضوا فيها الأمثلة من كل عصر ، وسموا الجنس إلى تام وناقص ، وفرعوا لكل قسم من القسمين فروعا يطول شرحها ، ويمكن الرجوع إليها في المطولات من كتب البلاغة . ولعل أهم صفة تميز الجنس التام من الجنس الناقص هي أن التام تتردد فيه كلمة بعينها سواء صحب هذا التردد اختلاف معناها ، أو لم يصحبه ، مثل قول ابن الرومي :

للوردى السود آثار تركزن بها وقفا من البيض بنى أعين البيض

أما في الجنس الناقص فيكتفى بتعدد بعض أصوات الكلمة ، كمعظم الأمثلة التي وردت في الشعر العربي القديم .

هذا هو ما كان من شأن الشعر العربي ، أما الفن القديم فقد بدأ موسيقياً أيضاً ، وظلت تلك الموسيقية تلازمه في معظم عصور اللغة ، ولم يخرج عنها إلا بعض المفكرين من الأدباء أمثال ابن المقفع وغيره في عصر الأمويين ممن تأثروا بما ترجم عن الفرس واليونان والهند . ثم عادت الكتابة بعد هؤلاء إلى الموسيقية ممثلة في الأسجاع والازدواج وظلت سوقها رائجة إلى عهد قريب من عصرنا الحديث .

وقد رويت لنا نماذج من نثر الجاهليين في صورة خطب ووصايا أسست كلها على موسيقية اللفظ ، والتزام نظام القافية أو الفاصلة ، وفيها وجهت كل العناية إلى الأصوات فعدت المعاني ، وأصبح من المؤلف التمييز عن المعنى القليل بالفاظ كثيرة . فاستمع لما بروى عن « مرثد الخير بن بكف » : (قبل التكاث العمد ، وانحلال العمد ، وتشتت الألفة ، وتباين السهنة) نجد أن كل هذه العبارات ذات معنى واحد . ثم استمع إلى قول طريف بن العاصي : (تاقه ما سمعت كالיום قولاً أبداً من صواب ، ولا أقرب من خطا ، والله أيها الملك

ما قتلوا بهجيتهم بدجا ، ولا رقا به درجا ، ولا أعطوا به عتلا ، ولا اجتنثوا به
خسلا) ، فهذه كلها أمثلة يراد بها معنى واحد هو أنهم لم يخالوا ثاره ! ! !
أو استمع لضميمة ذى الإصبع العدواني لابنه : (أن جابك لقومك بحبوك ،
وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجحك بطيهموك) نجد أن كل هذه العبارات
لا تكاد تؤدي إلا معنى واحداً ! !

فالنثر العربي في عصوره الأولى قد انتظمت تلك الموسيقية ممثلة في العبارات
المسجوعة حيناً ، أو المتوارية حيناً آخر . وقد بدا لبعض الدارسين أن الإسلام
بعض من هذه الظاهرة الموسيقية حين فضى الرسول صلى الله عليه وسلم بدية
الجبين فقال رجل في مجامعهم (كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح
فاستهل ، ومثله دمه يطل) ؛ فقال الرسول (ياكم وسجع الكهان) . وقد وصح
ابن الأثير هذا الحادث بقوله (إن النهى لم يكن عن السجع نفسه ، وإنما النهى
عن حكم الكهان الوارد باللفظ المسجوع) .

ومن مظاهر الموسيقية في نثر اللغة تلك العبارات الكثيرة التي تشتمل على
ما يسمى بالازدواج أو المزاوجة مثل (حسن بسن ، شيطان نيطان ، عفریت
نفریت) ونحو هذا من عبارات تنهى بكلمات لا معنى لها ولا تستعمل مستقلة ،
وإنما جبي بها التقوية البنية فيما يسبقها من كلمات بتربيد الأصوات المتماثلة ، وإن
لم تفد معنى جديداً في غائب الأحيان . وقد جمع ابن فارس في كتيب صغير مجموعة
كبيرة من أمثال تلك العبارات وسمى كتابه بالإنباع والمزاوجة .

ومن العبارات التي رويت في الإنباع وتلك الرواة لها دلالة معينة :

١ - أسوان أتوان : حزين متردد لا يستقر على حال من شدة الحزن .

٢ - عطشان نطشان : عطشان قلق .

٣ - خزبان سوان : مستخز لقبح الأمر .

- ٤ - هنيء مرىء : أسوده الطعام وسره .
- ٥ - عيبى شوى (شيبى) : عيبى ردل .
- ٦ - عربض أربض : الأربض الخليق للأخبر الحيد النبات .
- ٧ - غنى ملي : غنى جداً .
- ٨ - خبيث نبيث : الفبيث الذى يفانس عن حفايا الناس ، وكان من حق الصيغة أن تكون « نايث » ، ولكن للإتباع جهات « نبيث » !
- ٩ - خفيف ذفيف : الذفيف السريع .
- ١٠ - قسم وسيم : جميل جداً .
- ١١ - فبيع شقيح : فبيع جداً .
- ١٢ - كثير بنير : كثير جداً .
- ١٣ - كثير بدير : كثير مبمثر .
- ١٤ - ضثيل بشيل : صغير الحجم .
- ١٥ - شخبيح نخويح : الذخبيح الذى يلمنخنج إذا سئل عن الشئء .
- ١٦ - صليخ مايخ : لا ظنم له .
- ١٧ - أشر أفر : أشر بظر .
- ١٨ - هذر مذر : الكثير الكلام الفاسد .
- ١٩ - حقير فقير ، حقر نقر : حقير سهل القيادة متهاون به !
- ٢٠ - شكس لكس : شكس عدير متعب .
- ٢١ - سمج امج : الامج الكثير الأكل لا يبقى على شئء !
- ٢٢ - أجمون أكتمون : كاهم .

أثر الأمية في وصل الكلام

يبدو أن جوّ الأمية في شبه الجزيرة العربية ، والاعتماد على السمع وحده ، قد ربط بين الألفاظ في الكلام المتصل ربطاً وثيقاً ، أدى في آخر الأمر إلى ظهور تلك الحركات التي وصلت بين الكلمات ، وصميت فيما بعد بحركات الإعراب . ذلك لأن وحدة اللغة عند الأُمى هي الجملة المفيدة ، أو العبارة المترابطة الأجزاء ، ولو استطاع الأُمى ألا يقف عن الكلام إلا حيث ينتهي غرضه لفعل .

من أجل هذا قد تتأثر أواخر الكلمات بأوائل التي تليها ، وبشأ بين الكلمتين التوالتين نوع من الربط في صورة حركة في غالب الأحيان . وهكذا نشأت ظاهرة الإعراب في اللغة العربية .

والأُمى والقارىء على السواء قد يلتمس تلك الحركة للربط بين كلمتين متواليتين حين تدعو الضرورة الصوتية في أثناء عملية النطق ، غير أن الفارق بين الأُمى والقارىء هو أن القارىء لا يسكاد يشعر بتلك الحركة ، بل حين توجه نظره إليها لا يسكاد يتبينها أو يقر بوجودها ، لأنه تعود أن يكتب كل كلمة وحدها ، وأن يعزلها هجاء مستقلاً ، مما أفقد تلك الحركات الرابطة في نطق القارئين السكانيين بعض حتمها الصوتي لأنه يختلفها اختلافاً .

والأُمى الذي لا يعرف للكلام إلا الصورة المسموعة أحرص على النطق بذلك الرابط الصوتي ، دون أن يعرف له كنهها بطبيعة الحال ، فهو عنده كأي صوت آخر من أصوات الكلام ، به يصح النطق ، وبغيره يتمثر الكلام .

لهذا حين سمع علماء اللغة القدماء نطق الأعراب من الأميين تبين لهم بوضوح أن تلك الحركات الرابطة أوضح في نطق الأعراب من نطقهم هم أنفسهم لعبارات اللغة العربية ، فوضعوا لها القواعد المألوفة في علم النحو .

وقد بينت في بحث لي من قبل^(١) أن حركات الإعراب لا تعدو في نشأتها أن تكون بمثابة الروابط بين الكلمات ، وأوضحت في هذا البحث أن نظام المقاطع في نطق العربي يلزم طريقاً خاصاً ، ويتطلب تلك الروابط في معظم الأحوال . فهي ضرورة صوتية ، أما الذي قد يبين حركة معينة فأحد عاملين : أولها إشار بعض الحروف لحركات معينة كحروف الحلق حين تؤثر الفتح ، وثانيهما انسجام هذه الحركة الرابطة مع ما يكتنفها من حركات أخرى .

وأكبر دليل على أن تلك الحركات الرابطة كانت تراعى في غالب الأحيان هو الوزن الشعري الذي لا يستقيم بغيرها . فإذا لم تكن هناك تلك الضرورة الصوتية توفيقاً أن تبقى الكلمة على سكونها ، أي أن بعض الكلمات التي وردت في الشعر القديم لا تحتاج إلى تحريك آخرها ، ولا يخل هذا بالوزن الشعري .

وسكتفي هنا بأن نعرض لأربعة من أشهر بحور الشعر العربي ، متخذين من بعض شواهد الدليل على ما نقول . ففي البحر الكامل والنوار والبسيط والخفيف ، يمكن الاستغناء عن بعض تلك الحركات الرابطة في الموضع التي لا تدعو الضرورة الصوتية لتحريكها ، دون إحلال بانوزن أو معارضة لأقوال العروضيين .

ففي قصيدة لشاعر حديث من البحر الكامل مطامها :

أدرك بفجرك عالماً مكروباً عوذت لجرك أن يكون كذوباً .
وعدها ٦٥ بيتاً نرى أن بها نحو ١٩ كلمة لا ضرورة لتحريك آخرها .
مثل قوله :

يأيها السلم المثل على الوري طوبى لعمرك إن تحقق طوبى

(١) كتاب من أسرار اللغة ص ١٧٠

فكلمة « تحقق » لا ضرورة لتحريك آخرها ، وكل الذي يحدث حينئذ في هذا البحر أن « متفاعان » تصبح « مستفعلن » وهو كثير وحسن في كل الأشعار التي جاءت منه .

ومن أمثلة البحر الوافر قول الشاعر الحديث :

وكم ضاق الجمال بطالبه وأوذى بالتجمل والخضاب

فكلمة « التجمل » لا ضرورة لتحريكها ، وكل الذي يترتب على هذا أن « مفاعلتن » تصبح « مفاعلتن » ، وهو مقبول حسن في النظم من هذا البحر .

ومن أمثلة الخفيف قول الشاعر الحديث :

أنت مهما شقيت أرفه حالا من أسير الجزيرة المكورد

فكلمة أرفه لا ضرورة لتحريكها ، وكل الذي يترتب على هذا أن « فاعلاتن » تصبح « مفعولن » وهو مقبول حسن فيما نظم من هذا البحر .

أما البحر البسيط فكل الذي يترتب على عدم التحريك هو أن « فمِلن » تصير « فمَعان » في آخر الشطر الأول دون تصريع ، وفي حشو البيت مثل :
يا طالما حدثتني النفس قائلة أنحن أنعم أم أجدادنا بالآ
كانت حياتهم ونضى بساطتها عليهم من هدوء البال سربالا

ومن الغريب أن أصحاب العروض على كثرة ما جوزوه في هذا البحر لم يشيروا إلى مثل ذلك إلا في نهاية البيت . ومع ذلك فيجوزون قول الشاعر القديم :

إن أمس لا أشتكى نصي إلى أحد ولت مهتديا إلا معي هادي

نمت أطعمت زادي غير مدخر أهل المحلة من جار ومن جاد

فالدوق والأذن يمكن بغير ما أهل أهل العروض ، وأحتسب في هذا إلى

آذان الشعراء ومن قرأوا كثيراً من الشعر العربي .

أما حين سائل أنفسنا عن السر فيما قد يقع فيه التكلم أو القارىء من الخطأ الإعرابى ، رى هذه الحركات الإعرابية تتعارض و كثير من أحوالها مع فور هام من قوازين النطق هو ما نسميه « الميل إلى اسجام الحركات المتجاورة وتأثر بعضها ببعض ، وهو ما يسميه الأوربيون « Vowel-harmony » .

فمده الحركات الإعرابية كما وصفها النحاة تعارض و الكثير من الأحيان الميل العام للمناطقين ، ولذا أهمتها معظم الألسنة أو تغيرت فيها

وأولئك الذين يخطئون فى هذه الحركات الإعرابية صنفان من الناس : منهم من اتصل بقواعد النحاة أيا كان هذا القدر من الاتصال ، وهؤلاء قد يكون السر فى خطئهم الإعرابى أنهم لم يسيطروا على تلك القواعد فاحتلط عليهم أمرها ، وأصبحوا يقيسون بعض المواضع على بعض ما درسوه أو سمعوه قياساً خاطئاً ، فمن صادفته كلمة كالسبيل مثلاً ورآها فى أكثر ماقرأ أو سمع صرفوة قد يجمع إلى رفعها حيث تتطلب قواعد النحاة أن تكون مكسورة مثلاً . ولعل كثيراً من تلك الأخطاء الإعرابية التى نسمعها من أفواه المعلمين الآن ترجع إلى ذلك القياس الخاطئ .

أما الصنف الثانى ممن يخطئون فى الحركات الإعرابية فهم أولئك الذين لم يتصلوا بالدراسة النحوية ، وهؤلاء يتساهلون مع طبيعة النطق ، ويتركون الحركات بتأثر بعضها ببعض .

فلتلميذ الصغير الذى يسمع مدرسه يقرأ له النص القرآنى قراءة صحيحة وتكرر على سمعه تلك القراءة الصحيحة فى صورة جمعية ، رآه حين يطلب منه التسميع قد ينحرف لسانه فيجعل المرفوع منصوباً أو المجرور مرفوعاً ، لالسبب سوى أنه اتساق مع طبيعة النطق .

وقد تتبعنا هذه الظاهرة فى مدارس مختلفة ، وفصول متعددة فرأينا كثيراً من التلاميذ ينصبون كلمة « الإنسان » فى النص القرآنى (ابحسب الإنسان)

أن لن نجمع عظامه) ، ويقولون في (ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا قعماً)
لأنفسهم بضم السين .

واكتفى بهذا القدر في الحركات الإعرابية التي أرجح أنها كانت للربط
بين الكلمات ، وأن نشأتها ترتبط بأمية العرب أو بموسيقية الكلام ارتباطاً
وثيقاً .

أثر الأمية في دلالة الألفاظ

الأصل في الألفاظ أن يختص كل لفظ بمعنى معين ، بهذا جرت السكنة الغالبة
من الألفاظ اللغات في العالم ، غير أننا نعرف أن أمور الحياة الدنيا متداخلة متشابكة
تكون في مجموعها نظاماً متماسك الأطراف ، ولا غرابة إذن أن نرى معنى يقترب
من آخر ، أو أن نرى جزءاً من معنى يشترك في عدة ألفاظ . ومع ذلك تتجه
معظم اللغات إلى تخصيص اللفظ بمعنى معين يصبح له بمثابة العلامة متى طرقت
السمع أثار في الذهن دلالة معينة يشترك في فهمها أفراد البيئة اللغوية .

ولا شك أن الألفاظ العربية في بدء نشأتها ، ولا ندري متى كانت هذه
النشأة ، قد قصد بها أن يعبر كل لفظ عن معنى معين ، وأن تكون له دلالة
المستقلة . ومما قيل عن نشأة الألفاظ في لغة الإنسان الأول ، لا نستطيع أن
نتصور أنها يمكن أن توجد في عصورنا التاريخية إلا حين تدعو الحاجة إليها ،
بعد أن استقرت اللغة الإنسانية ، وأصبحت مهمتها الأساسية أن تتخذ وسيلة
التفاهم بين أفراد المجتمع .

ثم كان أن اشتدت عنابة العرب القدماء بالألفاظ وموسيقاها ، فنشأتهم
هذه الموسيقية اللفظية عن ملاحظة الفروق بين الدلالات ، مما أدى إلى أن

كثيراً من الألفاظ التي كانت تعبر عن معانٍ متقاربة ، قد اردادت قريبا واختلط بعضها ببعض ، ونسيت تلك الفروق أو تنوسيت ، وأصبح العربي صاحب الأدب الموسيقية يضحى بتلك الفروق في الدلالات حتى يتمكن من نظم موافيه وتنسيق أسجاعه .

وهكذا رأينا أن الأدب الجاهل والإسلامي قد شغلت موسيقاه أصحاب هذا الأدب عن تلك الدقة في معنى الألفاظ ، ولم تعد الألفاظ محددة الدلالة و غالب الأحيان ، وعدت الألفاظ بعضها على بعض ، مما ترتب عليه تلك الظاهرة التي لانعرف لها نظيراً في لغة أخرى وهي كثرة الألفاظ المترادفة .

ولست أريد هنا أن أثير جدلاً أو نقاشاً حول هذه الظاهرة ، وما إذا كانت تعد ميزة للغة العربية أو عممة في تمييز الدلالات ، فقد تخلف وجهات النظر و هذا ، وإنما الذي أهدى إلى توضيحه أن ظاهرة كثرة الترادف قد أصبحت خاصة للنتنا العربية ، ولانكاد نذكر كمها في هذا اللغة أخرى .

واللهو الحديث لا يحاول تفضيل لغة على أخرى ، بل يعجب بكل لغة ، ولا ينظر إلى ما اتصفت به إلا على أنه خصائص لهذه اللغة ، عليه أن يدرسها وأن يبحث عن سرها .

ومهما حاول بعض الاشتقاقيين من علماء اللغة كابن دريد وابن فارس وأمثالهما ، أو بعض الأدباء من أصحاب الخيال الخصب الذين يلتمسون من ظلال المعاني فروقا بين مدلولات الألفاظ ، أقول مهما حاول هؤلاء أو هؤلاء إكار وقوع الترادف في ألفاظ اللغة العربية فليس يغير هذا من الحقيقة الواقعة شيئاً . فالترادف قد اعترف به معظم القدماء ، وشهدت له النصوص ، وإن كان بعض الذين قالوا به قد غالوا فيه . فمنهم من يقول لنا إن الأسد نحو ٥٠٠ كلمة ، وللثعبان نحو ٢٠٠ كلمة ، وللدهية نحو ٤٠٠ كلمة ، وللأسل نحو ٨٠ كلمة ، وللحيف نحو ٥٠ كلمة ٠٠٠ الخ (١) .

(١) انظر كتاب «المعجمات العربية» ص ١٦٢ - ٢٠٣ .

والأسل و كل اللغات أن يعبر اللفظ الواحد عن المعنى الواحد ، ومع هذا فقد رى في النادر من الأحيان أن لغة ما تقبل أكثر من لفظ للدلالة على أمر واحد ، وهو ما يسمى بالترادف وقد تقبل لفظاً واحداً للدلالة على أمرين مختلفين اختلافاً بديناً ، وهو ما يسمى بالمشترك اللفظي . يقع مثل هذا في كل اللغات دون إصراف فيه ، ودون أن يتجاوز ذلك عدداً ضئيلاً جداً من ألفاظ اللغة .

أما الذي حدث في لغة العربية فهو أن مجموعة كبيرة جداً من ألفاظها قد تنازعا هذان الأمران الترادف والمشاركة اللفظي ، وألفت فيهما الكتب المستقلة كما سنرى .

و كثرة الترادف في اللغة العربية أمر مفهوم نستطيع تفسيره ، فقد شغلت موسيقى الكلام أصحاب اللغة عن رعاية الفروق بين الدلالات فأهملوها أو ناسوها ، واختلطت الألفاظ بعضها ببعض ، أو رآكت في محيط واحد كسرب من الدحل يجتمع في خلية واحدة . أي أن الدلالة لم تصمد ولم تكن عصية على التطور والتغير ، بل اقتضت من أطرافها ، فالتقت الألفاظ المتعددة على المعنى الواحد . وهذا هو ما عبر عنه بعض القدماء بقولهم فقدان الوصفية حين كان للسيف اسم واحد وله نجون وصفات لكل وصف دلالة التمييزة : كالهندي الذي عرف بأنه سيف حاد رقيق في صلبه مرونة وكان يصنع في بلاد الهند ، والبياني الذي كان يصنع في بلاد اليمن مقوس النصل بمض الثقبوس وله فرند ونقوش ، والمشرقي الذي كان يصنع في دمشق على شكل خاص متميز عن سابقيه وهكذا .

ومع هذا فحين استعمل عقرة أمثال هذه الأوصاف في شعره لانسكاد نلاحظ تلك الفروق ، بل كل الذي يستعين من كلامه أنه عنى سيفاً جيداً ، وقد أزمته النافية أو نظام المقاطع أن يستعمل الهندي في موضع ، والبياني في موضع آخر ، والمشرقي في موضع ثالث .

فحرصه على موسيقى شعره ونظام قوافيه قد جعله يتناسى تلك الفروق ، إن صح أنها كانت راعى في وقت من الأوقات .

أما الذي قد يصعب تفسيره فهو صمود معنى اللفظ في مثل هذه البيئة الأمية ، وإبائه التغير أو التطور ، حتى يكون له نظير في الصورة ، كالذي حدث فيما يسمى بالمشارك اللفظي . ولكن الألفاظ التي تعد من المشترك اللفظي قليلة جداً إذا قيست بالألفاظ المترادفة ، مما يرجع ما نادى به هنا من لمن العناية قد وجهت كلها للأصوات دون المدلولات ، وأن المعاني في أغلب الحالات لم تصمد أمام عوامل التطور بل تغيرت أو انكشفت وتنوسيت الفروق التي بينها .

ولم تقارن بين عدد الألفاظ المترادفة في اللغة العربية ، وعدد تلك التي تسمى بالمشارك اللفظي ، يجدر بالباحث أن يقوم بإحصاء هذه وإحصاء تلك من نصوص اللغة ، كأن تحصى في كل نصوص الأدب الجاهلي مثلاً .

ولا تصالح المعاجم التي بين أيدينا للقيام بمثل هذه المقارنة ، وذلك لأن الألفاظ المعاجم بمثابة الجثث الهامدة ، ولا يبعث فيها الحياة إلا النص واستعمالها فيه . فالحكم على دلالة اللفظ في نص ما أدق وأوثق مما لو استقيناه من المعاجم وحدها .

فإذا دلت نصوص اللغة على أن بين الألفاظ المختلفة الصورة فروقا في الدلالة مهما كانت تلك الفروق طفيفة ، لا يصح أن تعد من المترادفات ، لأن شرط الترادف الحقيقي هو الاتحاد التام في المعنى . والحكم في هذا مرجعه أولاً وأخيراً إلى الاستعمال ، لا إلى ما يكتن به بعض أصحاب المعاجم . كذلك إذا ثبت لنا من نصوص أن اللفظ الواحد قد يعبر عن معنيين متباينين كل التباين صميماً هذا بالمشارك اللفظي ، أما إذا اتضح أن أحد المعنيين هو الأصل وأن الآخر محاز له ، فلا يصح أن يعد مثل هذا من المشترك اللفظي في حقيقة أمره .

وقد كان ابن درستويه محققاً حين أنكر معظم تلك الألفاظ التي عدت من المشترك اللفظي ، واعتبرها من المجاز . فكلمة الهلال حين تعبر عن هلال السماء ، وعن حديدة الصيد التي تشبه في شكلها الهلال ، وعن فلامه الظفر التي تشبه في شكلها الهلال ، وعن هلال النعل الذي يشبه في شكله الهلال ، لا يصح إذن أن تعد من المشترك اللفظي لأن المعنى واحد في كل هذا . وقد لمب المجاز دوره في كل هذه الاستعمالات .

ذلك لأن المشترك اللفظي الحقيقي إنما يكون حين لا يفتح أي صلة بين المنبئين ، كأن يقال لنا مثلاً إن الأرض هي الكرة الأرضية وهي أيضاً الزكام !! وكأن يقال لنا إن الخال هو أخو الأم ، وهو الشامة في أوجهه ، وهو الأكمة العصفرة

ومثل هذه الألفاظ التي اختلف فيها المعنى اختلافاً بيناً قابلة جداً بل نادرة ولا تكاد تتجاوز أصابع اليد عدداً .

أما الكلمات التي تسمى بالأضداد فيعدها بعض اللغويين في هذا المشترك اللفظي رغم ما يرى بينها من صلة الضدية ، وهي صلة وثيقة بين الدلالات . فذكر الأبيض إلا ذكرنا معه الأسود ، ولسنا نذكر الفضي إلا ذكرنا معه الذهبي ، وقد لعب التفاؤل والتعابير دوراً هاماً في نشأة تلك الأضداد .

ومع هذا فحين نعلم جدلاً بأن الألفاظ التي وضحت الصلة بين معانيها يمكن أن تعد من المشترك اللفظي إذا ما قبلنا العدد بما ليست بالترادفات ، فهي لا تكاد تتجاوز العشرات ، في حين أن المترادفات قد تجاوزت المئات

ولسنا نعرف من الكتب القديمة التي ألفت في هذا المشترك اللفظي سوى كتاب « الإحساس من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ واختلاف في المعنى » لأبي عبيد المتوفى ٨٢٢٤ ، وهو كتيب صغير يشتمل على نحو ٣٠٠ كلمة كلها مقتبسة من كتاب أبي عبيد نفسه المسمى بالقریب المصنف ، والذي لا يزال مخطوطاً حتى الآن .

وتروى كتب التراجم أن للأصمى مؤلفاً يسمى « ما انفق لفظه واحتلاف معناه » ، ولا ندري أين هذا الكتاب !

أما الأضداد فقد أتت فيها الأصمى وابن السكيت وأبو حاتم السجستاني ، ثم جاء بعدهم ابن الأنباري وجمع أفرادهم في كتابه المشهور المسمى بالأضداد . ويعرض هؤلاء اللغويون في كتبهم المختلفة إلى نفس المجموعة من الألفاظ التي يقال إن كلا منها كان يعبر عن المعنى وضده .

وقد تبين لبعض الباحثين من المحدثين أن مثل هذه المجموعة لو غربت وبحنت بحثاً علمياً صحيحاً لانتهى الأمر إلى أن ما يصحح أن يسمى منها بالأضداد لا يكاد يعدو عشرين كلمة (١)

أما ما وقع في القرآن الكريم من ذلك المشترك اللفظي بقليل جداً ، وجله إن لم يكن كلمة ، مما لاحظ فيه العلة المجازية كالعين للباصرة ولعيون الأرض ، ويندر أن تصادفنا كلمة مثل « أمة » التي استعملت في القرآن بمعنى جماعة من الناس ، وبمعنى الحين في قوله تعالى « وادكر بعد أمة » ، وبمعنى الدين في قوله « بنا وجدنا آباءنا على أمة » .

في حين أن كلمة مثل « الحال » التي اشتهر أمرها في كتب المشترك اللفظي لم يرد لها إلا معنى قرآني واحد ، وكلمة الإنسان رغم استعمالها في القرآن نحو ٦٥ مرة ليس لها إلا معنى قرآني واحد ، وكلمة الأرض التي تذكر دائماً في المشترك اللفظي وردت في القرآن أكثر من ٥٠٠ مرة بالمعنى المؤلف وحده .

أما الترادف فقد وقع بكثرة في ألفاظ القرآن رغم محاولة بعض المفسرين أن يتمسوا فروقاً خيالية لا وجود لها إلا في أذهانهم للتفرقة بين تلك الألفاظ القرآنية المترادفة .

(١) ج ٢ من مجلة مجمع اللغة العربية ص ٢٨٨ .

وعلى كل حال رى أن الكتب التى ألفت فى المترادفات أو التى اشتملت على كثير من الألفاظ المترادفة أكثر عددا وأوفر مادة كما سنرى فى الفصل التالى، بدئت بتلك المكتيبات التى جمعت فيها الألفاظ الخاصة بموضوع معين أو مجال من القول محدد كرسائل الأصمعى وأبى زيد الأفسارى .

وانتهت كتب الترايف بكتاب نسمع عنه وإن لم نره لرجل أغرم بالمترادفات وشغف بها كل الشغف وهو الفيروزبادى وعنوان الكتاب (الروض المسرف فيها له اسمان إلى ألوف) !!

وليس كل ماورد فى هذه الكتب من المترادفات ، وإنما هى كتب تجمع فى ثناياها مجموعة كبيرة جدا من تلك الألفاظ المترادفة ، بوصفها كتباً مرتبة على حسب الموضوعات أو الدلالات . وليس يتصور أن يضم كتاب مستقل كل الكلمات الخاصة « بالمطر » مثلا دون أن يكون بين هذه الكلمات عدد من المترادفات ، كالألفاظ التى تخص « اللين » دون أن يتضمن قدراً من الترايف . وأوسع هذه الكتب وأشملها هو كتاب المخصص لابن سيده ، فهو سبعة عشر مجلداً يضم بين ثناياها أكبر مجموعة من تلك الكلمات المترادفة .

على أن مؤلفى هذه الكتب كانوا يختلفون فى نظرهم لدلالة الألفاظ . فبعضهم من كان يورد عدة ألفاظ للمعنى الواحد ، ومنهم من حاول فى القليل من الأحيان أن يلمس فروقا طفيفة بين معانى هذه الألفاظ ، كأن يرتبها ترتيباً تصاعدياً ، أو تنازلياً ، فيدعى التعالبي مثلا فى كتابه فقه اللغة أن مراتب الصمم هى : فى أذنيه وفر ، ثم الصمم ، ثم الطرش ، ثم الصلخ !!

ويبدو من الاستعمال القرآنى أن معنى « فى أذنيه وفر » لا يختلف مطاقاً عن معنى « الأصم » فى قرته أو ضعفه ، مما يجعلنا نشكك فى كثير من تلك الفروق التى ساقها هؤلاء المؤلفون

ولا فكادزى في كتب هؤلاء العلماء شواهد أو نصوصاً قديمة نستدل منها على ما يمكن أن يكون بين الدلالات من فروق، وأغلب الظن أن ما التمسوه من تلك الفروق لم يكن إلا من وحي خيالهم، أو لعلمهم قد عز عليهم أن يروا تلك الكثرة من الألفاظ المترادفة في اللغة العربية، وحسبوا مما يشوه اللغة، أو توقع فيها اللبس والإبهام، فعمدوا إلى بعضها وفرقوا بين دلالاتها دون أن يكون لهم فيما صنعوه أي سند من نصوص اللغة واستعمالاتها. وكان هذا بمد أن استقرت الدولة العربية، وارتقت العقول، وبدأ المفكرون يعنون بدقة المعاني وإحكامها.

ومن الغريب أن يرى نافداً من النقاد القدماء مثل أبي هلال العسكري وهو من عرف بعنابته بمدى اللغوية يقول إن الأثر الأدبي قد يسمو باللفظ وحده إذا كان سامياً، وحيث المعنى أن يكون متوسطاً [، فهو مع هذا أو برغم هذا يؤلف لنا كتاباً ستعرض لأمثلة منه فيما بعد يسميه «الفروق اللغوية»، وفيه يحاول جهده أن يلتمس دقة دقيقة بين مدلولات بعض الألفاظ المترادفة دون سند من نصوص أو شواهد. وليس عمده في هذا الكتاب إلا عمل الأديب صاحب الخيال الخصب الذي يرى في الأمور ما لا يراه غيره، ويلتمس من ظلال المعاني ما لم يخطر على ذهن أصحاب اللغة من القدماء.

فإذا نحن ضممنا الألفاظ التي اعترف بترادفها في تلك الكتب مع مجموعة أخرى من تلك التي التمسوا فيها فروقاً ما أنزل الله بها من سلطان، وجدنا أنفسنا أمام قدر كبير من الكلمات التي انكشفت دلالاتها، واقتصص من أطرافها فتجمعت في خلية واحدة أو معنى واحد.

وهناك مجموعة صغيرة من الكتب عنى فيها مؤلفوها بصيغ الكلمات وبالفروق التي ترجع إلى اختلاف الحركات، كمثلثات قطرب التي منها الفمّر =

الماء الكثير ، الضمر = الحقد في الصدر ، الضمر = الجاهل . وكذلك كتاب الإعلام بمثل الكلام لابن مالك وهو مثل مثائلات قطرب ، وأيضاً بعض ما جاء في كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب فعلت وأفعلت للزجاج الخ .

وليس يعني من هذه الكتب تلك الكلمات التي اختلفت معانيها لاختلاف صيغها ، « كالفمر » التي وردت في مثائلات قطرب ، لأن هذا هو الأصل في الألفاظ ، ومثلها هنا مثل كل الكلمات التي لسكل منها معنى واحد .

أما التي اختلفت صيغها ومع هذا اتحدت معانيها كأحزانه وحزانه ، أو مثل فخذ فخذ وفخذ وفخذ ، فهذه كلها وليدة التطور الصوتي . ولعل من بين عوامل التطور الصوتي هذا ما يمكن إرجاعه إلى الأمية أيضاً ، وإلى العناية باللفظ تلك العناية التي يقرن عليها كثرة الشبوح ، وكثرة الشبوح والتداول قد يرفع في مثل هذا الانحراف اللفظي ، فمثلها مثل العملة الفضية كلما كثر تداولها ساعد ذلك على التغيير في ملامحها . بل قد تقطب القوافي والأسجاع صورة معينة للكلمة أو حركات حارة بها ، ولا يرى الشاعر أو الناطق بأساً من ذلك التغيير الطفيف في الحركات حرصاً على موسيقاه ، ورعاية لأنغامه ؛ ولم يجد رؤية بأساً في أن يغير « العالم » إلى « العالم » ولا الضيق إلى « الضيق » ، ولا « الولق » إلى « الولق » ، حين وقع له مثل هذا في أرجائه ، وإن أخذه عليه ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء .

من هذا كله نرى أن العناية بمسرح اللفظ قد أثر في كثير من الدلالات ، وأفقدتها الدقة والإحكام ، والوقوف عند حدودها الأولى ، بل لانفالي حين نقول إن العناية بموسيقى الكلام قد سلب معظم الدلالات تلك الدقة وذلك الإحكام حتى في تلك الكلمات التي لها مدلول واحد ، وأصبحنا نرى الشعراء

يستعملون اللفظ في معنى يحوطه بعض النصوص ، فلا نكاد ندرك له حدوداً ،
مما يمكن أن يوصف منه بعبوغة الدلالة أو عدم استقرارها .

- ٦ -

صراع علماء العربية مع دلالة الألفاظ

شهدنا أننا أن بعض هؤلاء العلماء قد أسرفوا في الاعتزاز بالألفاظ المترادفة
ظناً منهم أنها مفخرة اللغة العربية .

وهم لم يحرصوا على تجميع الألفاظ المترادفة قد تجاهلوا تطور الدلالة فيها ،
وخلطوا بين عصور اللغة . ولذا جمعوا بين لفظ عرفت له دلالة جاهلية قديمة وآخر
اشتهر بدلالة إسلامية حديثة ، وجملوا من اللفظين سنون وقربنين .

هذا هو أبو الحسن الرماني^(١) في كتابه المسمى « الألفاظ المترادفة » قد عقد
نحو ١٤٢ فصلاً ، وخصص كل فعل لإحدى الدلالات ، ثم سرد في كل فصل
الألفاظ التي تعبر عن دلالاته . فتراوحت تلك الألفاظ بين ثلاث كلمات مترادفة
في فصل ، ونحو إحدى وعشرين كلمة مترادفة في فصل آخر . ومع اعتدال أبي
الحسن في حصر تلك المترادفات ، لا يكاد الدارس يستعرض ألفاظ الكتاب حتى
يتبين أن كثيراً منها لا يمت إلى الترادف بصفة ، وحتى يتضح له أن معظم كلمات
الكتاب من ذوات المعاني المجردة كالأفعال والأحداث والصفات ، ويندر أن
تتضمن على الدلالات المحسوسة أو أسماء الأشياء .

ولعل من خير ما جمعه من مترادفات قوله :

طرفي ، مقلتي ، عيني ، ناظري (بمعنى واحد) .

الجلس ، والمهمل ، والندى ، والمجتمع ، والموسم (بمعنى واحد) .

السرور : الحبور ، الجذل ، النبطة ، الفرح (بمعنى واحد) .

ومع ذلك وليس من اليسير أن نحمل كثيراً من الدارسين على الاقتناع بما
في هذه الكلمات من ترادف .

فإذا استعرضنا أمثلة أخرى من الكتاب رأينا الشطط والمغالاة في عددها
من المترادفات مثل :

(١) وصلته ، رفته ، حبوته ، أعطيته [ثم أخيراً وهذا هو الغريب
المضحك] رشبته [فكلمها في رأى الرمانى تعبر عن الصلة والمطية .

(٢) أفلقتى ، كربنى ، ضمضمنى !! .

(٣) أهاننى ، أشجأنى !!

(٤) البؤس ، المسكنة ، العسر ، الخمصاة ، والفاقة !! .

(٥) حصنى ، مايجأى ، ملاذى ، كهنى !!

(٦) سالت ، درفت ، هطلت .

(٧) الكذب ، المين ، الرور ، الإفك ، الاتحال .

(٨) مريض ، عليل ، حميد .

(٩) غريزنى ، طبيعتى ، عادنى ، شيمتى ، ديدنى ، سليقتى .

(١٠) بعد ، شط ، نزح ، زاخى ، عزب .

(١١) الشجاع ، البطل ، الغشمشم !!

(١٢) الخراج ، الإتاوة ، الفىء ، الجرية ، الضريبة .

(١٣) القبر ، الجذث ، الرسم ، الحفرة ، الضريح ، اللحد .

(١٤) تاب ، أفلح ، كف ، أمسك ، صدق ، أعرض .

(١٥) اظهر ، أعلن ، جهر ، أشاع ، أذاع ، بث .

لا أعلن أننا بحاجة إلى التعليق على هذه الأمثلة ، مجرد النظر إليها يبين بوضوح مقدار مخالفة أصحاب الترادف ، وتجاهلهم لتطور الدلالات في الأجيال المختلفة ، وخاطمهم بين دلالات جاهلية وأخرى إسلامية .

وقد سلكوا نفس المسلك حين تحدثوا عما سموه بالمشترك اللفظي ، وجعلوا للفظ الواحد أكثر من دلالة واحدة . فأبو عبيد^(١) في كتابه المسمى (كتاب الأجناس من كلام العرب وما أشبهه في اللفظ واختلاف في المعنى) ، قد جمع نحو ٣٠٠ كلمة من هذا النوع ، ويستطيع الدارس أن يستبعد منها قدراً كبيراً ، لأنها لا تعدو أن تكون من أمثلة التطور الدلالي ، تجمع بين دلالة حقيقية شائعة وأخرى مجازية . وهو مثلاً بمد كلمة (الجنان) من المشترك اللفظي ، لأنها تعبر عن دلالات أربع هي : الليل ، والفؤاد ، والترس ، والثوب الأعلى على الثياب ؛ ومن الغريب أن يعقب أبو عبيد على قوله هذا بأن ياتمس السبب أو السر في هذه الدلالات المختلفة فيقول « إن الجنان مسمى بالليل لأنه يحن كل شيء بضامته ، وبالفؤاد لأنه يحن السر ، وبالترس لأنه جنة من السيف والقلم . وبالثوب الأعلى لأنه يستر ما تحته » الفم وإذن يتجاهل النسب المختلفة وشيوع الدلالات ويتجاهل فوق هذا أن المشترك اللفظي في صورته الصحيحة لا يتصور إلا حيث تقطع الصلة بين الدالين ، كظلال حين يبر عن الشامة في الوجه ، وعن أخي الأم مثلاً .

وبينما نرى بعض هؤلاء العلماء يجهلون الألفاظ ويربطون بينها ، نرى آخرين يفرقون ويفصلون حتى بين ما يصاح فيه الفصل والتفريق . فأبو هلال العسكري^(٢) في كتابه « الفروق اللغوية » يحارل أن ياتمس فروقاً بين الدلالات المتشابهة أو المتماثلة ، تقتبس منها بعض الأمثلة فيما يلي :

(١) اللغوي ٢٢٤ .

(٢) اللغوي ٣٩٥ .

(١) [الفرق بين القديم والعتيق أن العتيق هو الذي يدرك حديث جنسه فيكون بالنسبة إليه عتيقا ، أو يكون شيئاً بطول مكثه ، ويبقى أكثر مما يبقى أمثاله مع تأثير الزمان فيه فيسمى عتيقا .. ولهذا لا يقال إن السماء عتيقة وإن طال مكثها لأن الزمان لا يؤثر فيها ، ولا يوجد من جلسها ما تكون بالنسبة إليه عتيقا (١) !!]

(٢) الفرق بين السخاء والجود أن السخاء هو أن يابن الإنسان عند السؤال ، ولهذا لا يقال لله تعالى سخى ، أما الجود فكثرة العطاء من غير سؤال (٢) .

(٣) [الفرق بين الغنى والجدة واليسار أن الجدة كثرة المال فقط يقال رجل واجد أى كثير المال ، والغنى يكون بالمال وغيره من القوة والمعونة وكل ما ينافى الحاجة . وأما اليسار فهو المقدار الذى تيسر منه المطوب من العاش فليس ينبىء عن الكثرة . ألا ترى أنك تقول فلان تاجر موسر ولا تقول ملك موسر ، لأن أكثر ما يملكه التاجر قليل فى جنب ما يملكه الملك (٣)] .

ثم جاء بعد أبى هلال بعدة قرون عالم آخر هو على بن محمد الجرجاني (٤) ، ووجه كل عنايته إلى تلك الفروق بين الدلالات فى كتاب سماه « التعريفات » ، حاول فيه التحديد الدقيق لبعض الدلالات مثل قوله :

(١) البخل هو المدح من مال نفسه ، والشح هو بخل الرجل من مال غيره . قال عليه السلام : اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، وقيل البخل ترك الإيتار عند الحاجة ، قال حكيم البخل نحو صفات الإنسانية وإثبات عادات الحيوانية [

(١) ص ٢٤ .

(٢) ص ١٤٣ .

(٣) ص ١٢٤ .

(٤) ١١٦٦ هـ .

ثم انظر إلى غموض الدلالات في تلك الألفاظ المترادفة التي وردت في كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت المتوفى ٢٤٤ هـ إديفور^(١) : [ليلة مدلحة أي مظلمة ، وديجور ، وديجوج . . واطرمسر . الليل أظلم ، والغيب نحوه ، والمليجوم الظلمة . . والسجدكك الأسود ، والمطلخم مثله . . واطلخمت علينا الظلمة فما تبصر شيئاً ؛ وليلة بهم لا يبصر فيها شيء . . والخذس : الليل الشديد الظلمة ، ويقال ليله طرمساء لا يبصر فيها] .

وفي كتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمداني المتوفى ٣٢٧ هـ^(٢) .

(أظلم الليل ودجى وأدجى وتغضف وعمم وأعمم ، وعبس وأغبس ، ودمس وعسمس ؛ واعتكر واطلخم وادلهم وأسدف وغطس وأعطس ، وامحنك واحلوك ، وسجا وأسجى ، وجن وأحن وارحن . . الخ) .

وفي كتاب جواهر الألفاظ لتقديمه بن حمد المتوفى سنة ٣٣٧ هـ^(٣) .

(أشبهه ، وضارعه ، وصاهاه ، وشاكنه ، ومائله ، وشابهه ، وشاكنه . الخ) ! !

(لنيم . حسيس . زنيه . مهين . وتبع . وصيمع . صميم . رضيم)^(٤) .
خامل . ساقط . رذل . (كالم بمعنى الدناءة) ! !

(١) ص ٤١٦

(٢) ص ٢٨١

(٣) ص ١٢

(٤) ص ٢٨

الفصل الثاني عشر

كنوز الألفاظ العربية

شهد النصف الأول من القرن الثاني الهجري أستاذ الأساندة أبو عمرو بن العلاء^(١) يعلم الناس طرفاً من كل شيء ، فلا يكاد يتوفر على أمر معين . فهو أحد القراء السبعة وإمام القراءة في البصرة ، وهو أحد المؤسسين لذهب البصريين في النحو ، وهو فوق هذا لغوي ضليع يزوي من آداب اللغة والفاظها الشيء الكثير ، وهو الذي يقول لنا : (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو قد جاءكم وافراً لجاؤكم عام وشمر كثير) ، وهو الذي كان يعتر بأدب الجاهليين ويرى الوقوف عنده ، ويمد شعر الفرزدق وجريير من شمر الولدين فلا يحتاج به !! فيروى عنه أنه قال في هذا الشمر : (لقد حسن هذا الولد حتى كدت أمر صديقاتنا بروايته والتأديب به) . وهو الذي يروى عنه الأصمعي فيقول : (لقد لازمته عشر حجج فما سمعته يحتاج بيت إسلامي قط !!)

ومعظم الدين جاءوا بعد أبي عمرو يدينون له بالفضل فقد عامره أو تلمذ عليه جلة من علماء العربية أمثال : عيسى بن عمر الثقفي ، وأبو الخطاب الأحمسي ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وخاتم الأحمر ، وكل هؤلاء من علماء البصرة ، كما عامره بالكوفة أو قرروا عهده المفصل الضبي ، وحماد الراوية ، والكسائي .

أما الذين سبقوا هؤلاء من الأئمة أمثال أبي الأسود الدؤلي ، وعنبة الميل ، وميمون الأقرن ، ويحيى بن يعمر ، وعبد الله بن أبي إسحاق فلا نكاد نعرف عنهم إلا القليل . ويبدو أن معظم هؤلاء قد توفروا على تأسيس علم النحو وقواعد

(١) نون ١٥٤ .

اللغة حتى جاء أبو عمرو ومن عاصروه فبدأوا يعنون أيضاً بنصوص اللغة والفاظها، يشرحون غامضها ويتبعون الألفاظ في نصوصها، ولكنهم فيما يبدو لم يتجهوا إلى الإنتاج العلمي في صورة الكتب والرسائل، مكتفين بتلاميذهم الناجين ممن لازمهم سنين طويلة، فكأنما كانوا يتصورون أن رسالتهم العلمية تنهى عند حد القارئ والإملاء على التلاميذ.

ورغم أن كتب التراجم تذكر للغة من هؤلاء العلماء أسماء كتب ورسائل فإننا لا نذكر نعرف عنها شيئاً. ومعظم هؤلاء ممن عاشوا قليلاً بعد منتصف القرن الذي ألفه، وأشهر ما أثر عنهم قول الرواة إن الخليل بن أحمد ألف في النحو وورث آراءه لسيبويه، وألف في المروض والموسيقى. كذلك نعرف للمفضل الضبي كتاب «الفضائيات» والأمثال.

ثم جاء بعد هؤلاء طبقة من العلماء عاشوا جميعاً في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث وهؤلاء هم الذين عرفنا حقاً بتدوين علمهم وتأليف رسالتهم، وعندهم وردت لنا بعض تلك الرسائل الصغيرة الحجم التي توفر كل منها على موضوع معين من موضوعات اللغة، ككتاب صغير في الإبل، أو رسالة صغيرة في المطر، ونحو هذا.

وأشهر أصحاب هذه الطبقة من العلماء اللغويين :

(١) أبو زيد الأنصاري (توفى ٢١٥ هـ) .

(٢) الأصبهني (توفى ٢١٠ هـ) .

(٣) أبو عبيدة (توفى ٢٠٩ هـ) .

(٤) الضرير بن شمير (توفى ٢٠٤ هـ) .

(٥) اليزيدي (توفى ٢٠٢ هـ) .

(٦) أبو عمرو الشيباني (توفى ٢٠٦ هـ) .

فهؤلاء بكونون طبقة من اللغويين المتعاصرين الذين عنوا برواية الألفاظ والنصوص، وتوفروا على تدوينها وشرح مدلولاتها - وزوى لهم في كتب التراجم أسماء لكتب كثيرة لم يرد لاسمها إلا القليل النادر . وليس بينهم من علماء الكوفة إلا أبو عمرو الشيباني تلميذ الفضل الضبي . وقد ساهم في جمع ألفاظ اللغة بفولدره ، وأراجيزه ، وكتاب « الجيم » ، وكتاب الخيل وكتاب الإبل ، وخلق الإنسان . ولعل « كتاب الجيم » أشهر وأجود ما أُر عن أبي عمرو الشيباني ، ويقال إنه صن به على الفاس بعد أن أتم تأليفه ، ولذا لم تسكتر نسخه ، ولم يشتهر أمره بين المتأخرين من العلماء . حتى ظن بعضهم أنه سمي بكتاب الجيم لأن مؤلفه بدأ بالألفاظ التي أولها « جيم » ! !

وملاحظاننا على هذا الكتاب أن « لسان العرب » لم يذكر شيئاً عنه ، ولكن الفيروزبادي ذكره ثم نقل عن الفيروزبادي صاحب تاج المروس فقال ما نصه : (نقل المصنف قال أبو عمرو الشيباني « الجيم » في لغة العرب انديجاج) ثم قال (ولأبي عمرو كتاب في اللغة سماه « الجيم » كأنه شبهه بالديجاج لحسنه) ! !

ولا يذكر الأزهري هذا الكتاب بين مؤلفات أبي عمرو ، بل يكتب في قوله : وكان الغالب على أبي عمرو الشيباني النوادر وحفظ العرب وأراجيز العرب . أما قصة البخل بالكتاب فيذكرها الأزهري منسوبة لأبي عمرو شمر الهروي القوي سنة ٢٥٥ هـ ويقول (أن كتاباً كبيراً في اللغات أسسه على الحروف المعجمة وابتدأ بحرف الجيم ، فيما أخبرني أبو بكر الإيادي وغيره ممن لقيه) . ثم يذكر أنه صن به على تلاميذه ، وأبقاه عنده حتى غرق في طوفان بعض الأنهار ! ! بل تذكر كتب التراجم أن من بين مؤلفات الفخر بن شمائل كتاباً يسمى « الجيم » أيضاً .

وعلى كل حال فبين أيدينا الآن مخطوط عنوانه كتاب الجيم ومسروب لأبي عمرو الشيباني ، وهذا المخطوط برواية السكري وأبي موسى الحامض .

أما الآخرون من أصحاب هذه الطبقة فسكانهم من علماء البصرة ، وأكثرهم
تأليفاً الأصمعي ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد الأنصاري . وإذا جاز لنا الحكم على كل
مؤلفاتهم بما ورد لنا منها أمكن القول إنها جميعاً رسائل صغيرة ساهمت في وضع
اللبننة الأولى للمعاجم العربية كما عرفت لنا بعد ذلك .

ومن كتب أبي زيد الأنصاري التي بين أيدينا الآن « كتاب النوادر » الذي
وصفه أبو زيد في المقدمة بقوله : « ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعي من
المفضل الضبي » وما كان فيه من اللغات فهو سماعي من العرب » . وبقى لنا من
كتبه أيضاً رسائل من غير تلك في « اللين والطين » ، « أبا ياقان ومناظرة التي تذكرها
كتب التراجم » والتي تجاور الأربعين رسالة فيمكن الحكم عليها من عناوينها ،
وأما كانت كتبها صغيرة يختص كل منها بتوضيح معين

أما الأصمعي فكانت مؤلفاته أسعد حظاً وأكثر شيوعاً . وبقى لنا منها
نحو اثنتي عشرة رسالة هي :

الأصمعيات ، رجز المعجاج ، أسماء الوحوش ، الإبل ، خلق الإنسان ،
الخيول ، الشاء ، الدارات ، اللباب والشجر ، النخل والكرم ... إلخ .

وهي كما ترى رسائل صغيرة ساهمت أيضاً في نشأة المعاجم العربية . أما أبو
عبيدة فقد عدت له كتب التراجم نحو مائة رسالة ، وهي في مجموعها من نوع
مؤلفات الأصمعي ، غير أنها تتضمن رسائل تعرض لمسائل تاريخية ، أو لأيام
العرب وأسابيهم . ولم يبق لنا من كتبه إلا « كتاب محاذ القرآن » في مخطوط
نسخ في القرن السادس الهجري ، والنسخة التي بين أيدينا معصورة عن أخرى
في مكة . ومن أسماء رسائله : الإنسان ، الزرع ، العرس ، الإبل ، الخيل ،
السيف ... إلخ .

أما النضر بن شهيل فيروي الثعالبي أنه لم يبق في عهده من تأليف « النضر »
سوى كتاب الصفات الذي يشتمل على ألفاظ مرتبة على حسب المعاني تعرض

خلق الإنسان، والجود والكرم، وصفات النساء... الخ. أي أن معظم مؤلفاته كانت قد اندثرت في عهد الخليفة (١) سنة ٤٣٩ هـ، ومن أسماها كتاب الأنواء، الشمس والقمر، السلاح، خلق الفرس... الخ.

وهكذا نرى أن أصحاب هذه الطبقة قد تشابهت جهودهم، وأنهم برسانتهم قد مهدوا السبيل لنشأة المعجم العربي.

ثم ولى هذه الطبقة طبقة أخرى من تلاميذهم، واستمر أثرها إلى أواخر القرن الثالث الهجري، وأشهر أصحابها:

(١) أبو حاتم السجستاني (توفي ٢٢٥ هـ).

(٢) أبو عبد القاسم بن سلام (توفي ٢٣١ هـ).

(٣) ابن السكيت (توفي ٢٤٤ هـ).

(٤) ابن الأعرابي (توفي ٢٣٢ هـ).

(٥) ابن سلام الجعفي (توفي ٢٣١ هـ).

(٦) أبو عمرو شمر الهروي (توفي ٢٥٠ هـ).

ورغم أن كثيراً من مؤلفات أصحاب هذه الطبقة المفقودة قد ضاع أيضاً، غير أنه يبدو مما ورد لنا منها أنها كانت أصحح حجماً، وأشول من مؤلفات من سبقوهم.

وأبو حاتم السجستاني تذكر له كتب التراجم نحو ٣٤ كتاباً، فيها نهج نهج من سبقوه مثل: كتاب الوحوش، السيوف والرمح، الزرع، خلق الإنسان، الإبل... الخ.

كما تروى لنا كتب التراجم لابن الأعرابي أسماء نحو ١٤ كتاباً منها: النوادر، الأنواء، صفة الزرع، نسب الخيل... الخ. ولم يبق من كتبه سوى أسماء البئر، أسماء الخيل وأنسائها، في نسختين خطيتين.

أما ابن السكيت فنعرف له كتباً ضخمة بعضها مطبوع متداول بيننا الآن مثل : « كتب تهذيب الألفاظ » ، وهو من المعجمات المتوسطة الحجم ومرتب على حسب المعاني ، ونعرف له أيضاً كتابي القاب والإبدال وإصلاح المنطق .

أما أبو عبيد فبعد من ساهموا في جمع الألفاظ ونشأة المعاجم بكتابه الضخم الذي لا يزال مخطوطاً حتى الآن وهو القريب المصنف ، وهو معجم مرتب على حسب المعاني .

وهكذا نرى أن فكرة المعاجم تطرت لأصحاب هذه الطبقة ، وأنهم بدأوها في صورة معاجم متوسطة الحجم ومرتببة على حسب المعاني . فكأنما كانوا يهدون إلى تلك الرسائل الصغيرة التي عرفت عن قدامهم ، فيضمونها بعضها إلى بعض ويكرنون منها معجماً . ولم يخطر بذهن أحدهم أن يرتب تلك الألفاظ التي اختارها ، أو التي جمعها ترتيباً هجائياً على حسب الحروف كما فعل أصحاب الطبقة التي جاءت بعدهم .

والطائفة الرابعة من العلماء اللغويين عاشوا جميعاً خلال القرن الرابع الهجري ، وأشهر أصحابها :

- (١) ابن رديد (توفي ٣٢١ هـ) .
- (٢) ابن الأنباري (توفي ٣٢١ هـ) .
- (٣) عبد الرحمن الهمداني (توفي ٣٢٧ هـ) .
- (٤) قدامة بن جعفر (توفي ٣٣٧ هـ) .
- (٥) القالي البغدادي (توفي ٣٥٦ هـ) .
- (٦) الأزهرى (توفي ٣٧٠ هـ) .
- (٧) الزبيدي (توفي ٣٧٩ هـ) .
- (٨) المصاحب بن عباد (توفي ٣٨٥ هـ) .

(٩) الجوهرى « توفى ٣٩٣ هـ » .

(١٠) ابن فارس « توفى ٣٩٥ هـ » .

وبعد القرن الرابع وبحق قرن المعاجم العربية أو كدوز الألفاظ ، ففيه ألف أكبر عدد من المعاجم المشهورة المعتمدة ، وفيه أخذ المعجم العربى الصورة المؤلفه لنا ، وفيه اتجه العلماء إلى ترتيب الألفاظ ترتيباً هجائياً ، وبدءوا ينصرفون عن الترتيب الجارى على حسب المعانى .

فليس بين من ذكرنا من أصحاب هذه الطبقة من استمر على وضع المعاجم المرتبة على حسب المعانى سوى « عبدالرحمن الهمداني » فى كتابه المسمى « بالألفاظ الكتائية » ، وقدامة بن جعفر فى كتاب له يسمى « الألفاظ » . وقد ظل بعض العلماء من الأعراب يؤمنون تلك المعاجم التى رتب على حساب المعانى خلال القرنين الخامس والسادس وأشهر تلك المعاجم : مبادئ اللغة للإسكافى^(١) ، وفقه اللغة لاثعالبى^(٢) والمخصص لابن سيده^(٣) ، والأشبهاء والنظائر لأبى البركات ابن الأنبارى^(٤) . غير أن الكثرة الغالبة بين الأعراب من أصحاب المعاجم قد اتجهوا إلى تلك التى رتب ترتيباً هجائياً . وبعد المخصص لابن سيده أتم وأشمل معجم مرتب على حسب المعانى . وكل الذين ألفوا بعده على هذا النسق كانوا عالة عليه ، فكأنما قد اختتم ابن سيده بمعجمه « المخصص » عصر هذا النوع من المعاجم . فلم يحاوله بعده إلا القليلون ، وانصرف العلماء فى كل العصور بعد ذلك إلى التأليف فى المعاجم المرتبة على حسب حروف الهجاء .

وبعد معجم الجهمرة لابن دريد أول معجم مرتب ترتيباً هجائياً بين معاجم

(١) لأتولى سنة ١٢١ هـ

(٢) لأتولى سنة ١٢٩ هـ

(٣) لأتوفى سنة ٤٥٨ هـ

(٤) لأتوفى سنة ٥٧٧ هـ

القرن الرابع الهجري فقد رأينا آنفاً أن العلماء قبل هذا القرن بدأوا تأليفهم بالمبائل الصغيرة، ثم انتهى الأمر بهم في أواخر القرن الثالث بتلك المعاجم الصغيرة المرتبة على حسب المعاني . ومع هذا فيقال لنا إن الخليل بن أحمد قد وضع معجماً ضخماً رتبه ترتيباً هجائياً وسماه « كتاب العين » ، أي أنه بهذا يكون قد سبق عصر المعاجم على النهر المؤلف لنا بما يقرب من قرنين !

كتاب العين :

ليس لدينا الآن نسخة قديمة كاملة لكتاب العين ، وكل ما بأيدينا منه لا يبدو أن يكون قطعة خطية في دار الكتب المصرية تحت هذا العنوان . كما لدينا كتيب صغير طبعه الأب أستاس الكرملي مشتملاً على بعض النماذج من كتاب العين . وقد اقتبس هذا القدر القليل من مخطوطات حديثة النسخ ، يقال مرة إنها في برلين ، وأخرى في العراق في بعض المكتبات الخاصة .

ومع هذا فنرى المعاجم التي بين أيدينا نصراً كثيرة منقولة عن « كتاب العين » ، كما يروى لنا أن كثيراً من علماء العربية في القرن الرابع الهجري قد رأوا هذا الكتاب ، وقرأوه ، وبحثوا في مسأله . فلا مجال للشك إذن في أنه كان هناك كتاب بهذا العنوان في صورة معجم كامل مرتب ترتيباً هجائياً .

ولم يظفر كتاب في عصرنا الحديث بالبحث والدراسة ، بقدر ما ظفر به كتاب العين ، غير أن نتيجة البحث كانت دائماً سلبية ، لكثرة ما روى عنه من أمور متناقضة .

وقد بدأ الطمن في نسبة هذا المعجم للخليل منذ ظهور الكتاب بعد موت مؤلفه بأكثر من قرن من الزمان فيروى ابن الفديم في الفهرست ما نصه :
[وقع في البصرة كتاب العين سنة ٢٤٨ هـ ، قدم به وراق من خراسان ، وكان

في ثمانية وأربعين جزءاً ، فباعه بخمسين ديناراً . وكان قد سمع بهذا الكتاب أنه في خراسان بمخزاة الطاهرية حتى قدم به هذا الوراق] .

أى أن أحداً من تلاميذ الخليل على كثرتهم لم يرو هذا الكتاب ، ولا عرف بينهم في صورة مؤكدة أن الخليل قد ألف هذا المعجم ، حتى ظهر الكتاب حياة في أسواق البصرة .

وحين نستعرض آراء القدماء في كتاب العين تراها تتلخص في الآتي :

- ١- يرى السيرافي أن الخليل لم يقم إلا بوضع الجزء الأول من هذا الكتاب .
- ٢- يرى بعض العلماء ومن بينهم الأزهرى أن واضع الكتاب هو « الليث بن المظفر » وقد نسبته إلى الخليل لينفق الكتاب ، وتزوج سوقه . فيقول الأزهرى في تهذيب اللغة [الليث بن المظفر الذى نحل الخليل بن أحمد تأليف كتاب العين ، لينفق باسمه ، ويرعى فيه من حوله] ثم يقول [وقد قرأت كتاب العين غير مرة ، وتصفحته قارة بعد قارة ، وعانيت بتتبع ما صحف وغير منه ، فأخرجته في موافقه من الكتاب ، وأحترت بوجه الصفحة فيه] إلى أن يقول [وهى قليلة في جذب الكثير الذى جاء صحيحاً] .
- ٣- وبوفق آخرون بين الرايين السابقين فيزعم أن الخليل ألف الجزء الأول الخاص بحرف العين ، ثم يقول إن الليث أكمله ، وسمى الليث نفسه بالخليل لحبه وإعجابه بالخليل بن أحمد | |

٤- وينسب صاحب معجم الأدباء رأياً لابن المعتز خلاصته أن الخليل قد ألف الكتاب ، وأهداه لايث ، واختصه به ، وبلغ من إعجاب الليث بالكتاب أن ظل يديم قراءته ، ويتوفر على دراسته بعد موت الخليل . ثم حدث أن اشترى « الليث » جارية جميلة غارت منها امرأته ، فأرادت زوجة الليث أن

تفجعه في أعز شيء لديه ، ولم تجد غير هذا الكتاب ، فأحرقته . فشق هذا العمل على الليث ، وقام بإملاء نصفه من ذاكرته ، ثم طالب بعض العلماء ممن حوله بإكمال النصف الآخر على غلط ما أملي .

وهذا هو السر فيما وقع فيه من خلل أو أصابه من تحريف !!

٥ - وروى أبو الطيب الأتقوى عن « ثعلب » أن الخليل رتب أبواب الكتاب ، وتولى قبل أن يحشوه ، أي أنه قام بوضع الهيكل . ثم يروى أبو الطيب أن الذين « حشوه » بعد الخليل كانوا من العلماء ، ولكنه لم يؤخذ منهم رواية ، وإنما وجد بنقل الوراقين ، فاختلف الكتاب لهذه الجملة . ويوافق على هذا الرأي « الزبيدي » في مقدمة كتابه « مختصر الدين » .

ويبدو أن السري كل هذه الآراء المتضاربة أن كثيراً من علماء القرن الرابع الهجري ، وهو قرن المعاجم العربية كما قلنا ، قد لاحظوا في الكتاب بعض الخلل والاضطراب ، فزهوا الخليل بن أحمد عن مثل ذلك . فيقول ابن جنى مثلاً [أما كتاب العين ففيه من التخايط والخلل والفساد ما لا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلاً عن نفسه] .

ويروى الزبيدي أن « ثعلب » كان يستدل على فساد نسبة الكتاب للخليل بأسباب منها : اختلاف نسخه ، واضطراب رواياته ، وما فيه من حكايات عن المتأخرين ، والاستشهاد بالردول من أشعار المحدثين . فكيف يروى الخليل عن الأسمي وأبي عبيد وابن الأعرابي ، في حين أن الخليل توفي وعمر أبي عبيد ستة عشر عاماً ؟!

ولعل أتقوى ما يوجه إلى هذا الكتاب من طمون ما ذكره أبو علي القالي من أن كتاب العين ورد من خراسان في زمن أبي حاتم ، فأنكره أبو حاتم وأصحابه أخذ الإنكار ، وأنه مضت مدة كبيرة قبل ظهور الكتاب ، فلم يروه

تلامذ الخليل أمثال النضر بن شميل ، وأبي الحسن الأختس ولو أن الخليل
ألف الكتاب لعله هؤلاء عنه ، وكانوا أولى بذلك من رجل مجهول الحال .
ثم يقول أبو طي [ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الأصمى واليزيدى وابن
الأعرابي إلى تزيين كتبهم بالحسابة عن الخليل ، وكفلاك من جاءوا بعدهم
كأبي حاتم وأبي عبيد وابن السكيت وغيرهم ، فما علمنا أحدا منهم نقل في كتابه
من الخليل حرفا من الالفه] !!

ومع كل هذه الطعون وجد المعجم من يدافع عنه ، وينقل منه ، ويرفع
من قدره . كالبرد وابن درستهويه وأبي إسحاق الزجاجي ، بل اعترف به ابن دريد
صاحب أول معجم بين معاجم القرن الرابع الهجري .

ترتيب كتاب العين :

رتب صاحب كتاب العين حروف الهجاء ترتيبا عرجيا ، غير أنه لم يبدأ
بالمهزة كما كان الواجب ، بل بدأ بالعين ، فجاء ترتيب الحروف على النحو الآتي :
ع . ح . هـ . خ . ع . ق . ك . ج . ش . ض . ص . س ، ز . ط . د . ت .
ظ . ذ . ث . ر . ل . ن . ف . ب . م . و . همزة . ي .

وأشكل الأمر على الأزهرى في تهذيبه ، فزعم أن السر في بدء الكتاب
بحرف العين [أن مؤلفه وجد مخرج الكلام كله من الحلق فصير أولها بالابتداء
أدخلها في الحلق ، ووجد « العين » أقصاها في الحلق ، ثم رتب على حسب
المخرج الأرفع فالأرفع] !! .

ويبدو أن تعليل ابن كيسان لا بدء بالعين أقرب إلى الصحة ، إذ يروى
عنه قوله (سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنها يلقحها

النقص والتغيير والحذف ، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء الكلمة إلا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهموسة خنية لا صوت لها ، فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين .

وخصص المعجم لكل حرف كتاباً ، فبدأ بكتاب العين ، ثم كتاب الحاء ، ثم كتاب الهاء وهكذا على حسب الترتيب المخرجي الذي ذكرناه آنفاً . ويقسم كلمات كل كتاب من هذه الكتب على حسب الصيغ الآتية :

(أ) المضاف الثلاثي والرباعي معاً ، أى يشرح معنى « عتق » ثم يشرح معنى « العتق » .

(ب) الثلاثي الصحيح .

(ج) الثلاثي المعتل مثل عاق ، وعظ ، عصا .

(د) اللغيف مثل عوى ، وعى .

(هـ) الرباعي مثل المسجد ، بعثر .

(و) الخماسي مثل الهينقع .

ويراعى صاحب العين الحروف الأصانية للكلمة ، فكلمة « مفتاح » مثلا يبحث عنها في الثلاثي الصحيح . وكلمة « رعفران » يبحث عنها في الرباعي .

كذلك مما يسترعى الانتباه في ترتيب العين أن المؤلف لا يكتفي ببحث الكلمة ، بل يمرض في نفس الموضوع إلى الصور الممكنة تكونها من حروف هذه الكلمة ، ويشرح معنى كل صورة إذا كانت مستعملة في اللفظة ، أو ينص على أنها مهملة . فحين يتحدث عن فعل مثل « ضرب » يمرض أيضاً للفعل « ربض » ، ضبر (العرس وثب) ، رضب (الرضاب رحيق الشفتين ، رض (الماء خرج قابلاً) ، ثم ينص على أن « بضر » من المهمل لأنها لم ترد في اللفظة . فالصور الممكنة للثلاثي الصحيح ست صور ، يمرض المؤلف لشرح استعمال منها في موضع واحد من معجمه ، دون ربط بينها إلا من الناحية

الصوتية . ولا يحاول مثلا أن يفسرها على نحو ما قام به ابن جني في الخصائص
ومما بالاشتقاق الكبير زامما أن هناك صلة دلالية بين هذه الصور^(١) .

ويشتمل الكتاب الأول من هذا المعجم على كل الكلمات التي تتضمن
حرف العين أيا كان موضعها من الكتابة ، ويشتمل الكتاب الثاني أى كتاب
الحاء على كل الكلمات التي تتضمن « حاء » أيا كان موضعها بعد أن تخرج منها
ما يتضمن حرف العين فقد سبق ذكرها في الكتاب الأول ، ويشتمل الكتاب
الثالث أى كتاب الحاء على كل الكلمات التي تتضمن حرف الحاء أيا كان
موضعه بعد أن تسبقه منها ما يتضمن عينا أو حاء ، مثل « العين » ، الحية
(زحر للضأن) ، الحية (زحر للجمار) ، والكتاب الرابع المخصص للخاء لا يشمل
الكلمات التي فيها عين أو حاء أو هاء ، فليس فيه أمثلة خنع ، أو خاع .

وهكذا ترى أن كتب المعجم تتدرج في عدد الكلمات ، ويقبل تضخمها
كتاباً بعد الآخر ، فلا نكاد نصل إلى كتاب « الهيم » حتى نجد يشتمل على
عدد قليل جدا من الكلمات .

أما طريقة الكشف في معجم كلوبن فهي النظر أولا إلى ما اشتبهت
عابه الكلمة من حروف ، فإن كان بينها « عين » أيا كان ترتيبها من الكلمة
رأينا مثل هذه الكتابة ترد في الكتاب الأول المسمى بكتاب العين ، فإن لم يكن
بها « عين » واشتبهت على « حاء » أيا كان موضعها من الكلمة كانت في
الكتاب الثاني المسمى بكتاب الحاء . ولهذا يجب دائما أن نذكر الترتيب
المخرجي للحروف ، بادئين في كل كلمة عن أهم حرف في المخرج ، وذلك
بأن ترتب حروف الكلمة على حسب هذه الخارج ، وعلى هذا فالمفروض
إذن أن تكون أول كلمة في المعجم هي [عح - أو ده] وليكن هذا لم يرد في اللغة

(١) أنظر « من أسرار اللغة » ص ٧٤

أو الاستعمال . وأول حرف وقع مع « العين » وكون معها دلالة من دلالات اللفظة هو « القاف » . ولذا نرى أن الفعل « عنى » هو أول كلمة في معجم العين ، هو ومقلوبه « قع » ، ثم العين مع الكاف « عك » ومقلوبها « كع » ، ثم العين مع الجيم « عيج » ومقلوبها « جمع » ، وهكذا حتى ينتهي الكتاب الأول ، مراعى دائماً البدء بالضعف ثلاثياً أو رباعياً ، ثم الثلاثى الصحيح ، ثم المعقل ، ثم المفيد ، ثم الرباعي ، ثم الخماسي .

هذا هو ترتيب « كتاب العين » ، فهل ننحفظ له أثراً أو صدى في ترتيب معجم الجوهرة أول معاجم القرن الرابع الهجري ؟ .

معاجم القرن الرابع :

(١) الجوهرة لابن دريد : ويعتدل المؤلف لتسمية معجمه بالجوهرة بقوله في المقدمة : — (وألفينا المستنكر الوحشي ، واستعملنا المعروف وسميناه كتاب الجوهرة ، لأننا احترنا له الجمهور من كلام العرب) ، ثم يذكر ابن دريد في المقدمة أن ترتيب كتاب العين على حسب الخارج أمر شاق على الباحث المتقدي . ، وأنه من أجل هذا آثر ترتيب الحروف على حسب الترتيب الشائع المؤلف اب ت ث ج ح . الخ فيقول : (وأجرينا على تأليف الحروف المعجمة إذ كانت بالمقلوب أعاق ، وفي الأسماع أنفذ ، وعلم العامة بها كعلم الخاصة) .

ويعد معجم الجوهرة من المعاجم التي سادت القبول والاحترام من معظم العلماء . ومع هذا فلم يسلم من الطعن والتجريح ، فيقول عنه ابن جنى : — [وأما كتاب الجوهرة ففيه من اضطراب التصنيف ، وفساد التصريف ما أعذر واضعه لبيده عن معرفة هذا الأمر (. ويقول الأزهرى : [ومن ألف في عصرنا الكتب ، فوهم بافتعال العربية ، وتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول ، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامهم أبو بكر بن دريد) .

ولعل أشد الثوار على الجمهرة هو « نفلويه » فقد ثارت بينه وبين ابن دريد
مهاجاة شعرية فيقول ابن دريد يشير إلى نفلويه :

أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صراخا عليه

ويقول نفلويه :

ابن دريد بقـره وهـي — عى وشـره
ويدعى من حمفـه وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا أنه — د غيره

ويشبه نظام الجمهرة ترتيب معجم العين في بعض النواحي . فابن دريد يقسم
الكلمات إلى المصنف الثنائي مثل [بت ، تب] ، وغيرها مما يسميه الصرفيون
بالمصنف الثلاثي ، ثم المصنف الرباعي مثل [بسبس ، ززل] ، ثم الأفعال
الثلاثية الصحيحة وما يشتق منها ، ثم الأفعال الثلاثية المعنلة ، ثم الرباعي ، ثم
الخماسي . وهو في تقسيمه هذا يسلك مسلك صاحب معجم العين ، غير أن
صاحب الجمهرة يقد هذا التقسيم بإنحزام بعض الأقسام الفرعية في ثنايا هذا
التقسيم . فبعد أن ينتهي من بحث الكلمات التي من المصنف الثلاثي والرباعي
تراه يذكر فصلا للكلمات التي تشتمل على الهمزة وما يتكرر معها ، وبعد
الأفعال الثلاثية الصحيحة يعرض لبعض الأسماء التي لامها وعينها من نوع واحد
مثل « التيب والحبب » ، والأسماء الجامدة التي عينها حرف علة مثل « باب » .
ولا تكاد تتضح لنا الحركة في مثل هذه الأقسام الفرعية ، واختصاصها
بفصول مستقلة .

كذلك يقسم ابن دريد طريقة معجم العين في بحث الصور المختلفة للكلمة
في موضع واحد ، فحين يعرض لكلمة « بت » يتكلم بعدها عن كلمة « عبث »

وهكذا . وتلك هي الطريقة التي التزمها صاحب العين ، والتي نسمى أحياناً بمقلوبات الكلمات .

أما وجوه الاختلاف بين ترتيب الجمهرة وترتيب العين فمقتلخص في أن صاحب الجمهرة بدأ حديثه عن كل كلمات الالف التي وردت من المضعف الثلاثي والرباعي ، وفسمها أو رتبها على حسب الترتيب الهجائي المألوف . فيخصص باباً للتي نشتمل على « باء » أيا كان موضعها من الكلمة ، ثم آخر للتي تشتمل على « تاء » وليس فيها « باء » ثم التي تشتمل على « ثاء » وليس فيها « باء » أو « تاء » ... وهكذا حتى ينتهي من تلك الكلمات المضعفة أو كما يسميها الثنائية . وهو بهذا يتجنب تكرار الكلمات في أكثر من موضع من مواضع المعجم ، غير أنه لم يسلم من هذا التكرار في بعض الأحيان . فحين تحدث مثلا في باب الباء عن الكلمة التي أولها باء وثانيها حاء وثالثها واو ، وهي « حبا الصبي بحبو » يشرح معناها في الأفعال الثلاثية الصحيحة ، ثم عاد وشرح معناها في الثلاثي المتل .

ونظام الجمهرة بسيط في أساسه ، غير أن الفروع التي أفحصها ابن دريد في نوايا التقسيم جعل النظام معقدا أشد التعقيد ، وأصبح من العسير على المبتدئ الكشف في مثل هذا المعجم ، مما جعل المستشرق « كرنسكو » على أن يضع له فهرسا مفصلا بلغ من ضخامته أن كاد يصل إلى حجم المعجم الأصلي .

٢ - ديوان الأدب لأبي إبراهيم الفارابي . وهو عن الفارابي الفيلسوف . توفي سنة ٣٥٠ هـ على أرجح الآراء ، ولا يزال معجمه مخطوطا .

وقد قسم المعجم على حسب الصحة أو الاعتلال والكلمات فجعله مسكوناً من ستة كتب هي :

(١) كتاب السالم (ب) كتاب المضعف (ح) كتاب المثال (د) كتاب
الأجوف ، وسماء ذوات الثلاثة (هـ) كتاب الناقص (وسماء ذوات الأربعة)
(و) كتاب المهموز .

ثم جعل كل كتاب من هذه الكتب ستة شطرين : الشطر الأول للأسماء
والشطرن الثاني للأفعال .

أما ترتيب الكلمات في كل شطر من هذين الشطرين فجاء على حسب التجرد
أو الزيادة في الكلمات ؛ أي بدأ بالمجرد ثم الزيد بحرف ثم الزيد بحرفين . وهكذا .
والكلمات في كل كتاب من الكتب الستة وفي كل شطر من شطري
الكتاب مرتبة على الترتيب المألوف لحروف الهجاء ا ب ت ث ج ... إلخ ..

وقد راعى في هذا ، الحرف الأصلي الأخير من الكلمة وجعله الباء ، ثم
الحرف الأصلي الأول منها وجعله الفصـل . فالفارابي هو في الحقيقة أول من اتبع
نظام الباب والفصل .

وعلى هذا فكل كلمة مثل « الدرع » تكون في الكتاب الأول المسمى بالسالم
وفي الشطر الأول من هذا الكتاب وهو شطر الأسماء ، وتكون في باب العين
فصل الدال مع الكلمات المجردة من الزوائد .

(٣) معجم البارع للقالى البغدادي المتوفى سنة ٣٥٦ هـ . وهو مرتب على
حسب الهجاء ، ولم يبق منه إلا نصف في مكتبة باريس . ويقول المستشرق كرنكو^(١)
إن أغلب ما جاء في هذا المعجم يرجع إلى الجهرة وتصانيف أخرى ككتاب
الألفاظ لابن السكيت .

(٤) تهذيب اللغة للأزهري سنة ٣٧٠ هـ . ولا يزال مخطوطاً حتى الآن^(٢) ،

(١) ج ٢ ص ١١٦ في *Islamica* .

(٢) تم طبعه أخيراً .

ولدينا منه نسختان خطيتان تكمل إحداهما الأخرى ، الأولى تشتمل على الحروف من العين إلى الذال ، وخطها جميل ولكن كتاب الزاى فقد منها . أما النسخة الثانية فتقسم إلى ١٨ جزءاً نقص منها الجزء الأول وهو المتضمن لعظم الكلمات المشتملة على حرف العين ، كما فقد منها الجزء السادس وهو المتضمن للماء مع الطاء والذال والياء والظاء والذال والياء . كذلك فقد منه ما يتعلق بكتاب الذال وكتاب الياء .

وترتيب هذا المعجم كترتيب معجم العين ، أى على حسب المخارج .

(٥) مختصر العين للزبيدي سنة ٣٧٩ : ولا يزال مخطوطاً حتى الآن .
الله صاحبه في بلاد الأندلس ، وهو صورة مسموخة للمعجم الأصلي ، وبكفى هذا أن نشير إلى ما جاء في آخره من قوله : - « وعدة الكلمات جسيمها على ما أورده صاحب العين من مستعمل وممهمل ستة آلاف ألف وستمائة ألف وتسعة وتسعون ألفاً وأربعمائة ، المستعمل منها خمسة آلاف وستمائة وعشرون » . فمن التؤكد أن هذا الأرقام غير دقيقة ، لأن العملية الحسابية تفتقر لما ١٢ مليوناً المهمل والمستعمل ، أما قصره المستعمل على خمسة آلاف فقير معقول ولا مقبول ، لأن ألفاظ اللغثة العربية تزيد عن هذا كثيراً جداً .

(٦) المحيط للمصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وهو معجم ضخم في سبعة مجلدات ، أكثر فيها المؤلف من ذكر الألفاظ ، وقليل من الشواهد . ويبدو أنه كان يهدف إلى حشد أكبر عدد ممكن من الألفاظ . والمعجم مرتب على حسب حروف الهجاء . ويوجد الجزء الثالث من هذا المعجم في دار الكتب .

(٧) الصحاح للجوهري المتوفى سنة ٣٩٢ هـ :

لم يكاد ينتهي القرن الرابع الهجري حتى توج معجم له يسبق له نظير في ترتيبه وتبويبه وهو الصحاح [بالكسر جمع صحيح، أو بالفتح صفة بمعنى صحيح مثل برى وبراء]. فهذا المعجم مع صراعاته للحروف الأصلية من كل كلمة، ينقسم إلى أبواب، لكل حرف من حروف الهجاء باب، والحرف الأخير من الكلمة هو الباب. فالكلمات التي تنتهي أصولها بالهمزة يبدأ بها المعجم وتسمى باب الهمزة، ثم التي تنتهي أصولها بالياء وتسمى باب الياء . . . وهكذا.

وينقسم الباب إلى فصول على حسب الحرف الأول من أصول الكلمات. وعدد أبواب المعجم كعدد حروف الهجاء أي ثمانية وعشرون باباً. وقد كان المتوهم أن يكون عدد الفصول في كل باب ثمانية وعشرين أيضاً، ولكن ما ورد فعلا من الكلمات المستعملة في اللفظة لا يتضمن كل هذه الفصول في كل باب. ولهذا اختلف عدد الفصول في الأبواب المختلفة، فمن الأبواب ما يشتمل على ٢٨ فصلاً، ومنها ما لا يتكاد يتجاوز الفصول فيه أصابع اليدين عدداً كباب الظاء. ويرجع ذلك إلى اختلاف نسبة شيوخ الحروف في كلمات اللفظة. فلابد من عن كلمة مثل « كتب » يظفر في باب الباء فصل الكاف. أما في مثل « استفهم » فالحروف الأصلية فيها هي « فهم »، وعلى هذا فيبحث عنها في باب الميم فصل الفاء.

وفد لقي هذا المعجم منذ تأليفه إعجاباً به، وإقبالاً عليه من جمهور العلماء. وبعد في الحقيقة أكل ما وصل إليه المعجم العربي القديم من نضوج في العرض والترتيب والتنظيم والتحقيق. ولا تكاد ترى أحداً ممن ألفوا المعجم بعده يضيف شيئاً جديداً على هذا التنظيم، وكل الذي قاموا به هو إضافة كلمات

جديدة لم ترد في هذا المعجم . ويعتبر الصحاح بين المعاجم كصحاح البحارى بين كتب الأحاديث .

ومع هذا أو رغم كل هذا لم يسلم المعجم من الطعن والتجريح . يقول « التبريزى » بعد أن يمدح حسنات المعجم : [إنه مع ذلك فيه تصحيف لا يشك و أنه من المصنف لا من الناسخ] !!

ويقول عنه ياقوت و معجم البلدان : [هذا مع تصحيف فيه في عدة مواضع تنسبها عليه المحققون ، وقيل إن سببه أنه لما صنفه سمع عليه إلى باب الضاد المعجمة ، وعرض له وسوسة فألقى بنفسه من سطح ذات] !! ويشير ياقوت إلى أن الذى أكل المعجم هو أحد الوراقين ، ولهذا اشتمل على التصحيف ! ! .

وظل هذا المعجم نحو أربعة قرون بعد تأليفه هدفاً للطعن بمصر العلماء ممن ألفوا المعاجم أو تدارسوها

فإن برى التوفى سنة ٥٨٢ هـ ألف كتاباً سماه [التنبية والإيضاح عما وقع من الروم في كتاب الصحاح] .

وألف الصاغاني التوفى سنة ٦٦٠ هـ [النكحلة والذيل لكتاب صحاح الأئمة] في ست مجلدات استدرك فيها ما فات الجوهري من كلمات ، ولا يزال مخطوطاً حتى الآن (١) .

وألف الصفدى التوفى سنة ٧٥٤ كتاب (نفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الروم) .

ويصف ابن منظور (٢) صاحب لسان العرب في مقدمة معجمه بمعجم الصحاح بقوله : (غير أنه في جو الأئمة كالقذرة ، وفي بحرهما كانت طارة ، وإن كان في بحرهما كالقذرة) !

(١) نصح الآن بعض الهيئات العلمية و طبعه بالقاهرة .

(٢) التوفى سنة ٧١١ هـ .

وقد بلغ التجريح مداه على يدى الفروزبادى سنة ٨١٦ هـ . حين يشير إلى
معجم الصحاح وصاحبه فى عبارات قاسية مثل « تصحيف فاضح ، ونحريب شنيع »
كلام باطل مردود ، تصحيف فبيح » !!

(٨) المجلد لابن فارس سنة ٣٩٥ هـ :

وقد اقتصر فيه صاحبه على الألفاظ الهامة المستعملة التى أخذ معصمها عن
السمع ، كما أخذ عن تقدمه . وهو مرتب على حسب حروف الهجاء ، ولا تزال
منه عدة نسخ مخطوطة فى مكاتب العالم ، ولكنه لم تنجح له الشهرة التى أتت
للساحح .

أشهر المعاجم بعد القرن الرابع

كان القرن الخامس الهجرى أقل حظاً فى تأليف المعاجم ، فلا يعرف من
معاصمه سوى اثنين ، أحدهما ضائع واندر ولا يروى لنا إلا اسمه وهو « معجم
الموعب » لثيمانى التوفى سنة ٤٣٦ هـ . ونشير إليه كتب اللغة وتصفه بأن مؤلفه
قد جمع فيه الصحيح مما حوى معجم العين ومعجم الحمرة .

المعجم الثانى هو « المحكم » لابن سيده الأندلسى التوفى سنة ٤٥٨ هـ .
صاحب المخصص . وتوجد منه نسخة خطية فى المتحف البريطانى ، وفى دارالكتب
أجزاء منه لا تكمل نسخة . ويقوم بعض العلماء بتحقيقه ونشره الآن .

ويبدو أن « ابن سيده » قد ألف معجمه « المحكم » فى أوائل القرن
الخامس ، وقبل أن تصل إليه شهرة الجوهري ومعجمه الصحاح ، فلم يتأثر به ،
بل صدف معجمه على الترتيب المخرجى كعجم العين ، وهو الترتيب الذى انصرف
معظم المؤلفين عنه فى أواخر القرن الرابع على يدى الجوهري . كذلك لم ينهج
ابن سيده فى معجمه « المحكم » نهج علماء العراق فى أواخر القرن الرابع من

الاقتصار على الصحيح من الألفاظ . ولذا جاء معجمه أضخم من معجم الجوهري وأشمل وأهم منه .

وظل الاتجاه بين المؤلفين والدارسين للمعاجم على النحو الذي سلكه الجوهري من الاقتصار على صحيح الألفاظ . فإصابة قرنين من الزمان . ففي القرن السادس الهجري وضع الزمخشري سنة ٥٣٨ هـ معجمه المسمى « أساس البلاغة » وهو معجم صغير نسبياً ، عني فيه صاحبه بالفاحية التاريخية لدلالة الألفاظ . فيسمى الدلالة الأصلية للكلمة بالحقيقة ، والدلالة المتطورة عنها بالجاز ، واسكنه على علمه وفضله لم نتضح له قوائين التطور في الدلالات كما أشرنا إلى هذا آنفاً (١) .

ثم عادت المعاجم إلى الشمول والتضخم على بدى الصاغاني سنة ٦٥٥ هـ حين ألف معجمه المسمى « بالعباب » . وليس بين أيدينا منه سوى الجزء الأول في دار الكتب ، وأربعة أجزاء أخرى في « أيا صوفيا » . وقد وصفته الروايات القديمة بأنه مكون من عشرين جزءاً ، وأن مؤلفه جمعه من كل كتب اللامعة المشهورة . ويبدو اتجاه الصاغاني في تضخيم المعاجم من مؤلفه الذي سماه « التذيل والتكملة » لمعجم الصحاح ، فهو في ستة مجلدات ، وتقوم بصيغته الآن بمض الهيئات العلمية .

غير أن مؤلفي المعاجم رغم ميلهم إلى تضخيمها ، قد ظلوا بعد هذا يتبعون طريقة الجوهري في ترتيب معجمه الصحاح من الباب والفصل . فابن منظور المصري يضع معجمه المشهور لنا وهو لسان العرب في عشرين مجلداً على طريقة الباب والفصل . ويبدو أن صاحب اللسان قد استغل كل ما جاء في تهذيب اللغة للأزهري ، والمحكم لابن سيده .

فقد نقل ابن منظور كل مواد هذين المعجمين ، وفتح في معظم الأحيان

(١) أنظر في هذا الكتاب فصل الحقيقة والجهل .

بنفس العبارات التي وردت في التهذيب والمحكم لشرح الألفاظ . فليس لابن مطور إلا فضل الجمع والاستيعاب .

ويتمهي تأليف المعجم العربية الضخمة بذلك المعجم المشهور المتداول بيننا وهو قاموس المحيط للفيروزبادي المتوفى سنة ٨١٦ هـ . وقد وجه الفيروزبادي كل عنايته إلى استيعاب أكبر عدد من ألفاظ اللغة ، وجمعهم في أقل عدد من المجلدات ، ناعياً على الجوهرى اقتصاره على الصحيح من ألفاظ اللغة . وكان يزعم أن الجوهرى قد فاته ثلثا اللغة أو أكثر ! ومع هذا يقول السيوطي في الزهر : [ومع كثرة ما في القاموس من الجمع للموارد والشوارد فقد فاته أشياء ظفرت بها في أثناء مطالعته لكتب اللغة .

وتصدى للفيروزبادي من المؤلفين كثيرون ، يستدركون عايه ما فاته ، وبحر حونه وبداهه من عن الجوهرى ، أمثال ابن الياس داود زاده سنة ١٠١٧ هـ في كتاب [الدر القيط في أغلاط المحيط] ، وكذلك أبو زيد عبد الرحمن عبد العزيز مصنف كتاب [الوشاح وثقيب الرماح في رد توهم الصحاح] ، وأحمد فارس الشدياق في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي في كتابه (الجاسوس على القاموس) ، وأحمد نيمور في كتابه (تصحيح القاموس المحيط) ، والاستشرق « لين لANE في مقدمة قاموسه العربي الانجليزي إذ يقول : « إن القاموس المحيط لا يبدو أن يكون مجموعة كلمات أخذت من معاجم أو كتب سابقة ، ولا سبباً من المحكم والعياب » . ثم يقول : « وقد تبين لي أن كثيراً من النقد الذي وجهه الفيروزبادي إلى الجوهرى قد أخذه عن حواشي ابن بري والبسطي على الصحاح ، أو عن تكملة الصاغاني » ١١

ومع هذا فقد صادف القاموس عناية من الدارسين في عصرنا الحديث بلغت في بعض الأحيان حد التقديس . وقد شرحه وعلق عليه السيد مرتضى الزبيدي سنة ١٢٠٥ هـ في عشر مجلدات ضخمة سماها « تاج العروس » . ويبدو أن

صاحب « تاج العروس » قد استعان بلسان العرب في معظم المواضع ، إذ يلحظ الدارس شبهة قريباً بين شروح كل من المعجمين .

دلالة الألفاظ في المعاجم :

عمد جامعو الألفاظ العربية في بادئ الأمر إلى النصوص التي وردت لهم من جاهلية أو إسلامية ، واستخرجوا منها تلك الألفاظ ، ثم شرحوها ، وفسروها ، في ذيل النص أو بين ثناياه . ولم يكن لهم من هدف سوى خدمة النصوص الأدبية التي رويت لهم واعتزوا بها ، وتآدبوا بأدبها ، ثم كان أن تضجعت تلك النصوص ، وأصبحت من الكثرة بحيث يصعب جمعها في كتاب واحد أو عدة كتب . وهنا خطر في أذهانهم القيام بتصنيف مفتاح لتلك النصوص الكثيرة جداً ، واكتفوا بحصر الألفاظ ، ونرح كل منها مع الإشارة في القليل من الأحيان إلى شاهد أدبي يسوقونه لتوضيح معنى اللفظ . وهكذا نشأت المعاجم وتطورت على النحو الذي رأيناه آنفاً . ووجد جامعو الألفاظ أنهم أمام بحر خضم من الألفاظ العربية التي تحتاج إلى تنظيم وترتيب ، فقاموا بحصرها أو مسحها على حد تمبير المهندسين ، مع القليل من الشواهد أو النصوص الأدبية حتى يمكن أن يضمها جميعاً في كتاب واحد من عدة مجلدات . بل إن منهم من اكتفى بالألفاظ دون شواهد حراً منه على حشد أكبر عدد من تلك الألفاظ في معجمه ، كما فعل الفيروزبادي في معجمه القاموس المحيط .

ونقل أصحاب المعاجم بعضهم عن بعض ، وتأثر بعضهم ببعض ، ولم يكن لديهم من الوسائل ما ييسر عملية الإحصاء والحصر ، كما قصرت همم المتأخرين منهم عن المضي بالتطور المعجمي إلى مداه ، فوقفوا بما هم عند طريقة الصحاح في الترتيب والتصنيف . فليس منهم من أتجه إلى البحث في تاريخ الألفاظ .

وتطورها جيلاً بعد جيل ، أو القيام بما قام به المحدثون في المعاجم من التعرض إلى الناحية التاريخية أو الاشتقاقية للفظ . وليس منهم من دأبنا على الناحية البلاغية للألفاظ ، أو وضع لنا مجال اللفظ ومحيط استعماله .

من أجل هذا وغيره من عيوب فكر بعض المحدثين من المستشرقين في وضع معجم عربي حديث تقتبس ألفاظه من النصوص ، وفيه تراعى كل الدراسات الحديثة التي يلاحظها الدارسون في المعاجم الأوروبية .

وأشهر من دعوا إلى هذا المعجم العربي الحديث من المستشرقين بروفسر « فيشر » في تقرير تقدم به إلى الجمع اللغوي ، بين فيه عيوب المعاجم القديمة وما يؤخذ عليها . وبمئينا هنا من هذا التقرير ما قرره « فيشر » بصدد البحث الدلالي للألفاظ . ففي رأيه أن المعاجم القديمة قد اضطربت في شرح مدلولات الألفاظ ، وانصفت بعدم الدقة في هذا الشرح ، كما اختلف أصحاب تلك المعاجم في مدلولات كثير من الألفاظ ، مما أدى إلى سوء الفهم لكثير من النصوص . كذلك يأخذ « فيشر » على معاجمنا القديمة أنها خلت من البحث في تاريخ الكلمة وتطور الدلالة فيها ، وتسجيل أول استعمال لها ، وآخر من استعمالها من الشعراء أو الكتاب . حتى أواخر القرن الثالث الهجري حيث انتهت عصور الاحتجاج فلا بد من الدقة في تحديد الدلالات ، والتعرض للدلالات متعددة للكلمة مرتبة ترتيباً تاريخياً وعقلياً على حسب تفرعها بعضها من بعض فالدلالة العامة تتطور عادة إلى دلالة خاصة ، والدلالة الحسية تتطور عادة إلى دلالة مجردة .

وفي الحق أن كثيراً جداً من الألفاظ في المعاجم قد أهمل شرحها إهمالاً شليماً ، فجاءت دلالاتها عامضة أو مبتورة ، وبعدت بهذا عن الدقة التي هي من أهم صفات المعجم الجيد . فمن مصنف المعاجم من كان يكتبني برمز « م » أمام الكلمة مشيراً بهذا إلى أن دلالتها معروفة ، في حين أنها محمولة لنا الآن جملاً

تماماً . ومنهم من قنع بوصف الكلمة بعبارة تقليدية غمضة كقوله « نبات في الصحراء » أو قوله « دويبة » ، أو « طائر » ، أو « موضع » ، أو نحو ذلك من شروح مختصرة مبتورة لا تسكاد تفيد شيئاً .

ونحن حين نستعرض جهود اللاحقين من مؤلفي المعاجم نرى أنها كانت تؤسس على جهود من سبقوهم ، ونلاحظ أن ما زادوه من مواد أو كلمات إنما عثروا عليه عن طريق المصادفة في نصوص شاردة ، أو سمعوه مصادفة من بعض الأعراب . ولذلك تسكاد تتفق أو تتحد المعاجم في شروحها وتفسيرها لمعاني الألفاظ . وهنا نسوق مثلاً لذلك الاتفاق أو الاتحاد لم تتمم تحبيره ، وهو كلمة « الرعاف » ، فقد جاء في شأنها بمعجمنا القديمة النصوص التالية التي رتبناها ترتيباً تاريخياً :

١ - الجمهرة : ر ع ف الرجل يرعف ، يرعف رعفاً ، والامم الرعاف .
والرعاف الدم بعينه . وأصل الرعاف التقدم من فولهم فرس راعف أي متقدم ،
فكان الرعاف دم سبق متقدم !!

٢ - تهذيب اللغة للأزهري :

..... وقيل للدم الذي يخرج من الأنف « رعاف » لسبقه علم الرعاف
..... وقال الليث الرعاف أنف الجبل وجمه الرواعف ، والراعف طرف
الأرنبة . أبو عبيد والأصمعي رعف (كنع ونصر) أبو حاتم عن الأصمعي
رعف (كنع ونصر) ولم يعرف رُعف ولا رِعِف في فعل الرعاف .

٣ - الصحاح للجوهري :

الرعاف الدم يُخرج من الأنف ، وقد رعف الرجل يرعف ويرعف ورعف
بالضم لغة ضمنية والراعف الفرس الذي يتقدم الحبل . والراعف طرف
الأرنبة وأنف الجبل .

٤ - لسان العرب لابن منظور

الرُعْفُ السَّبِقُ . . ورُعْفُهُ يرُعِفُه رُعْفًا سَبِقُهُ . . والرُعَافُ دمٌ يسبِقُ من الأنفِ .
رُعِفَ يرُعِفُ ويرُعِفُ رُعْفًا ورُعَافًا . ورُعِفَ ورُعِفَ ، قال الأزهري ولم يعرف
رُعِفَ ولا رُعِفَ في فعل الرُعَافِ . قال الجرهمي ورُعِفَ بالضم لغة فيه ضمنية . .
والرَاعِفُ الفرس الذي يتقدم الخيل ، والرَاعِفُ طرف الأرنبة . . والرَاعِفُ أنف
الجبل .

٥ - القاموس المحيط للفيروزبادي .

رُعِفَ كقصر ومنع وكرم وعنى وسمع خرج من أنفه الدم رُعْفًا ورُعَافًا
كغراب . والرُعَافُ أيضاً الدم بعينه . ورُعِفَ الفرس كمنع ونصر سبق والرَاعِفُ
طرف الأرنبة وأنف الجبل والفرس يتقدم الخيل !!

وانظر إلى هذه النصوص تجد وجه الشبه بينها واضحاً جلياً ، فالرُعَافُ في
رأيهم جميعاً الدم يخرج من الأنف ، ولم يعبر أحدهم عنه بكلمة مثل « يسيل من
الأنف » ، والرَاعِفُ عندهم جميعاً الفرس يتقدم الخيل ، ولم يقل أحدهم بسبقها
مثلاً ! ! وهو « أنف الجبل » ولم يصفه أحدهم بأنه الجزء البارز في مقدمة
الجبل مثلاً ! ! وهو طرف الأرنبة عندهم جميعاً ! !

وهكذا نرى أن الرجوع إلى المعاجم القديمة لا يجدي كثيراً في بحث دلالة
الألفاظ وتطور الدلالة . ومن الواجب على الباحث في دلالة اللفظ العربي الرجوع
إلى النصوص القديمة في الأدب العربي ، والاهتمام بهديها ، ودراسة الدلالة على
صورتها . وقد قلنا بجولة في ألفاظ الشر الجاهلي وجمعنا قدرأ كبيراً منها مقتبسة
من نصوصها ، ثم كان لنا فيها رأى بمد تيوبها في صورة معجم صغير . وسنعرض
لهذا في فرصة قادمة إن شاء الله .

تم بحمد الله

مراجع ورد ذكرها في الكتاب

أولية

- 1—Carnap. Rudolf :
The Logical Syntax of Language.
- 2—Bréal. Michel :
Essai de Semantique
- 3—Schlauch, Margaret :
The Gift of Tongues.
- 4—1 A Richards. & C.K. Odgen :
The Meaning of meaning.
- 5—P V. Bridgeman :
The intelligent individual and society
- 6—Arnold. Thurman :
The folklore of Capitalism.
- 7—Stuart Chase :
Tyranny of words.
- 8—Korzybski. Alfred :
Science and Sanity
- 9—Otto Jespersen :
Mankind. Nation and Individual. from a linguistic point
of View
- 10—Otto Jespersen :
Language. its Nature, development and Origin.
- 11—Mario Pei :
The Story of Language
- 12—Bloomfield. Leonard :
Language.
- 13—J. Vendryes :
Language. a linguistic Introduction to history.
- 14—M.M. Lewis :
(1) Infant Speech.
(2) Language in Society

- 15 - E. Sapir :
Language.
- 16 - R. A. Wilson :
The Miraculous birth of language
- 17 - A. Werner :
Language - families of Africa.
- 18 - S. R. Driver
An introduction of the literature of the Old Testament.
- 19 - Gesenius :
Hebrew Grammar.
- 20 - Ch. Bally :
Le langage et la Vie.
- 21 - W. H. Bleek :
Comparative Grammar of South African Languages.
- 22 - J. B. Greenough and G. L. Kittredge :
Words and their ways in English Speech.
- 23 - F. de Saussure :
Cours de Linguistique Générale
- 24 - H. Sweet :
The History of Language.
- 25 - W. D. Whitney :
Life and Growth of Language.
- 26 - A. Darmesteter :
La vie des mots.
- 27 - H. Fletcher :
Speech and hearing.
- 28 - G. H. Mc-Knight :
English words and their background.
- 29 - Ribot :
L'évolutions des idées Générales.

ثانيا : عربية :

- ١ - أمراز البلاغة : احمد القاهر الجرجاني
- ٢ - إعمار القرآن : نياقسلاني
- ٣ - أدب السكك : لابن قتيبة
- ٤ - إصلاح المنطق : لابن السكيت
- ٥ - الأصوات اللغوية : للدكتور إبراهيم أنيس
- ٦ - الإنباع والمزاوجة : لابن فارس
- ٧ - الألفاظ الكتابية : لعبد الرحمن الهمداني
- ٨ - الاشتقاق : لابن دريد
- ٩ - أصول النقد الأدبي : لأحمد الشايب
- ١٠ - الأشباه والنظائر : لأبي البركات بن الأنباري
- ١١ - الألفاظ المترادفة : لأبي الحسن الرماني
- ١٢ - البيان العربي : للدكتور بدوي طبانه
- ١٣ - بدائع القرآن : لابن أبي الإصبع
- ١٤ - التعريفات : لعلي بن محمد الجرجاني
- ١٥ - التربية عند العرب : خليل طوطح
- ١٦ - تيارات أدبية : للدكتور إبراهيم سلامة
- ١٧ - تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة
- ١٨ - تهذيب الألفاظ : لابن السكيت
- ١٩ - تلخيص البيان في معازات القرآن : للشريف الرياضي
- ٢٠ - تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية : القس طويبا العنيسي

- ٢١ - الجبر والمقابلة : للخوارزمي ، نشر وتحقيق الدكتورين
على مشرفة ، ومحمد مرسي أحمد
- ٢٢ - جواهر الألفاظ : لقدامة بن جعفر
- ٢٣ - الخصائص : لابن جنى
- ٢٤ - دائرة المعارف الإسلامية .
- ٢٥ - زهر الآداب : للحصري
- ٢٦ - شفاء الغليل : للخفاجي
- ٢٧ - الشعر والشعراء : لابن قتيبة
- ٢٨ - مروح التلخيص .
- ٢٩ - سور البديع : لعلي الجندی
- ٣٠ - « الصاحبي » في فقه اللغة : لأحمد بن فارس
- ٣١ - صبح الأعشى : للقائمشندي
- ٣٢ - « العربية » : يوهان فكترجة الدكتور عبدالحكيم الخجارج
- ٣٣ - العرب والأمبراطورية العربية : لروكاهان ترجمة الدكتور نبيه فارس
ومغير البعابكي
- ٣٤ - العمدة : لابن رشيق
- ٣٥ - علم اللغة : للدكتور علي عبد الواحد وافي
- ٣٦ - الفروق المصنف : لأبي عبيد
- ٣٧ - فقه اللغة : للشمالي
- ٣٨ - الفروق اللغوية : لأبي هلال العسكري
- ٣٩ - فتوح البلدان : للبلادري
- ٤٠ - القاب والإبدال : لابن السكيت
- ٤١ - كتاب الجيم : لأبي عمرو الشيباني

- ٤٢ - كتاب الفوائد : لأبي زيد الأنصاري
٤٣ - اللهجات العربية : للدكتور إبراهيم أنيس
٤٤ - المختص : لابن سيده
٤٥ - المثل السائر : لابن الأثير
٤٦ - المختصر في اللغة العربية الجنوبية القديمة .
للمستشرق جويدي
- ٤٧ - معجم البادان : لياقوت
٤٨ - مقاييس اللغة : لابن فارس
٤٩ - من أسرار اللغة : للدكتور إبراهيم أنيس
٥٠ - الزهر : للسيوطي
٥١ - المقابسات : لأبي حيان التوحيدي
٥٢ - موسيقى الشعر : للدكتور إبراهيم أنيس
٥٣ - المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية
: للأب مرمرجي الدومنيكي
- ٥٤ - مجاز القرآن : لأبي عبيدة
٥٥ - الوشح : للرزباني
٥٦ - الموازنة بين الطائيين : للآمدي
٥٧ - الفضليات : للفضل العبي
٥٨ - مناهج البحث اللغوي : للدكتور تمام حسان
٥٩ - مبادئ اللغة : للاسكافي
٦٠ - المحكم في أصول الكلمات العامية : لأحمد عيسى
٦١ - المرافعات في أشهر القضايا : للمحود عاصم
٦٢ - معاجم عربية قديمة مرتبة ترتيبا تاريخيا :

- (١) كتاب العين (٢) المحبرة (٣) ديوان الأدب للفارابي (٤) البارع
- للقالي البغدادي (٥) تهذيب اللغة للأزهري (٦) مختصر العين الريبدي
- (٧) المحيط للصاحب بن عماد (٨) الصحاح للجوهري (٩) المعجم لابن فارس
- (١٠) المعجم لابن سيده (١١) أساس البلاغة للمخبري (١٢) العباب
- للمصغاني (١٣) لسان العرب لابن منظور (٤) القاموس المحيط للفيروز بادي.

الفهرس

الصفحة

١٢ - ١

المقدمة :

نبذة مريمة عن دراسة الفلاسفة لدلالة الألفاظ ، ودراسة أصحاب علم النفس لها . مسلك الأفريين في هذه الدراسة الدلالية . تطورها في العصر الحديث وأهم ماألف فيها . صراع الإنسان مع تلك الدلالات

٣٧ - ١٣

الفصل الأول : نشأة الكلام

(١) المحاولات الأولى للاهتمام إلى النشأة

(٢) رأى علماء العرب في نشأة اللمة : أدلة القائلين بأنها توقيفية ،

وأدلة أصحاب الاصطلاح والمعرف بهم

(٣) أشهر النظريات في نشأة الكلام الإلهي لدى الأفريين الأوربيين

(٤) آخر ما اهتمدى إليه الأفريون بعدد انشأة الكلامية : وجوب

الاستثناس باغة الطافل ولغة البدائيين في هذه الدراسة ، وبأطوار اللغة الإنسانية في العصور التاريخية .

(٥) صورة خيالية لما كانت عليه لغة الإنسان الأول .

٦١ - ٣٨

الفصل الثاني : الدلالة : أداتها ، أنواعها ، فهمها

(١) بين اللفظ والكلمة : الفرق بينهما لدى النحاة هل نكلمة

حدود صوتية تميزها في الكلام المتصل ؟ اختلاف الأفريين الأوربيين في

ذلك ، وفي تعريف الكلمة

٢- أنواع الدلالات :

(أ) الدلالة الصوتية وهي مستمدة من عمليات النطق ومن طبيعة بعض الأصوات في المنطوق به ، ومن النبر الذي تتغير به الدلالة ، ومن الفعنة الكلامية .

(ب) الدلالة الصرفية ، وهي مستمدة من الصبغ وبنية الكلمات .

(ج) الدلالة الاجتماعية وهي مفهوم الكلمة المستقل عن أصواتها وبنيتها والذي على أساسه يتم التفاهم بين أفراد المجتمع .

٣- كيف يتم الفهم بين المتكلم والسامع :

(أ) العمليات العضوية والعمليات النفسية التي تسبق النطق وتمهد للفهم ، عملية النطق ، ثم ما يترتب عنها من أعمار أو تصرفات ، كل هذا ضروري لتتمام الفهم لأي حدث لغوي .

(ب) ماذا يدور في الذهن لدى سماع الكلام : رأى الروحانيين ، ومذهب الماديين في ذلك .

الفصل الثالث : الصلة بين اللفظ ودلالته : -

١- نظرة فلاسفة اليونان : اختلافهم بين الصلة الطبيعية ، والصلة العرفية .

٢- نظرة علماء العرب : تأثرهم بأراء فلاسفة اليونان .
ابن جنى وربطه بين الألفاظ والدلالات في فصول أربعة من كتاب الخصائص أصحاب المدرسة الاشتقاقية بين علماء العرب

٣- رأى المحدثين من اللغويين الأوربيين جـبرسن وعرضه لآراء اللغويين ، وتبنيه لـ فكرة الربط الوثيق بين اللفظ ودلالته . المواضع التي تتوثق فيها هذه العلة في رأى جـبرسن . ليس الربط طبيعياً ذاتياً ولكنه ربط مكتسب

٨٩ : ٧٥

الفصل الرابع : استيعاب الدلالة من الألفاظ : -

١- توحى أصوات اللفظ المجهول الدلالة لذهن المرء بمعنى خاص يستلبط على أساس ما في الذهن من الفاظ أخرى

٢- سجع الأصوات في كل لغة .

٣- نتائج بعض التجارب التي أجريت لبيان وحي الأصوات .

٤- وحي الأشكال ، ونتائج بعض التجارب عليها .

١٠٥ : ٩٠

الفصل الخامس : اكتساب الدلالة ونموها : -

١- لدى الأطفال :

ربط الطفل بين ما يسمع من الألفاظ وما يرى من أحداث الفهم يسبق النطق لدى الأطفال . مرحلة العامية في الدلالة .
تتمثل الأطفال في الاهتمام إلى الدلالة السكينة ومرحلة التعميم .
أنواع الدلالات التي تنشأ على الأطفال

السيطرة على أصوات اللغة وتركيب جملها تسبق السيطرة على دلالات الفاظها التي تتجدد وتتفرع مع الزمن أسس الألفاظ إلى ذهن الطفل المجازات العامة التي تنشأ دون قصد أو عناء بين أفراد البيئة ، وأثر هدايا ستمهلات الألفاظ

صفحة

اختلاف الدلالة لدى الأطفال باختلاف تجاربهم مع الألفاظ .
الدلالة في الأمم البدائية تشبه الدلالة لدى الأطفال في المراحل
الأولى . أمثلة من ملاحظات الدارسين لبعض الأمم البدائية في
استراليا وأفريقيا .

٢- الدلالة لدى الكبار : -

اللفظ ، الشيء ، الصورة الذهنية .
اختلاف الصور الذهنية باختلاف تجارب الأفراد في الحياة .
عسر الاهداء إلى الدلالة الدقيقة ، وقساعة الفاس بالدلالة
القاصرة . التحدد العامي للدلالات . موقف المعجم اللغوي
من الدلالات .

١٠٦ : ١٢١

الفصل السادس : المركز واهتمش في الدلالة

معنى الدلالة المركبة المشتركة بين أفراد البيئة .
معنى الدلالة الهامشية ونشأتها من التجارب المختلفة
للأفراد . أمثلة متعددة لتوضيح الفرق بين الدالتين .
دور الدلالة في المجال السياسي .

صراع القانونيين مع دلالة الألفاظ : أمثلة لبعض القضايا
المشروعة في تاريخنا الحديث ، وبيان دوراتها حول دلالة لفظ
من الألفاظ .

أثر الدلالة الهامشية في النقد الأدبي : أمثلة من نقد القداماء
للنصوص الأدبية . الدلالة الهامشية لكلمتي « الخير والسعادة »
عند الأمتاذ المقاد .

١١٢ : ١٣٣

الفصل السابع : تطور الدلالة

١ - ظاهرة التطور : يدركها كل دارس للنصوص التاريخية و لغة من اللغات . أمثلة كثيرة من الكلمات الدارجة في لهجات الخطاب بمصر ، ومقارنة دلالاتها بما كانت عليه في اللغة الفصحى .

٢ - الحقيقة والمجاز : الحقيقة والمجاز مظهر من مظاهر التطور الدلالي . نظرة القدماء للحقيقة والمجاز . شرط المجاز لدى المحدثين هو الغرابة والطرافة . متى يصبح المجاز حقيقة .
النظرة التاريخية للمجاز والنظرة المعاصرة . إمراف الزمخشري في فكرة الحقيقة والمجاز ، وأمثلة من معجمه أساس البلاغة .

١٣٤ : ١٥١

الفصل الثامن : عوامل التطور في دلالة :-

الاستعمال : دوران الكلمات على الألسنة سبب من أسباب التطور .

عناصر الاستعمال :-

(أ) سوء الفهم ، قد يؤدي إلى تطور اللفظة في الدلالة .
البيئات التي يتم فيها عادة تطور اللفظة وأمثلة هذا .

(ب) بلي الألفاظ ، وما يصيب بليتها من انكماش ، وأصواتها من تغير ، وأمثلة هذا في بعض اللغات .

(ج) الابتذال ، تغير نظرة المجتمع إلى دلالة بعض الألفاظ .
يقول المصور : أوضح المجالات لهذا : ١ - الألقاب والرتب

صحة

الاجتماعية ٢- الفاظ الفريزة الجنسية ٣- الفاظ الموت والأمراض
والسكرات .

٢- الحاجة : التطور المقصود المتعمد في الدلالة .

عناصر الحاجة إلى تطور الدلالة : ١- التطور الاجتماعي
والاقتصادي والسياسي يستلزم كلمات للتعبير عن الدلالات
الجديدة . الحصول على هذه الكلمات بما يحياها ألفاظ قديمة
وتعلمها على الدلالات الجديدة ، أو باستعارة الألفاظ الأجنبية .
أمثلة من ذلك في عصرنا الحديث . . . دور الاستعارة للألفاظ
الأجنبية في لغات مختلفة .

١٥٢ : ١٦٧

الفصل التاسع : أعراض التطور الدلالي

لتطور في الدلالة أعراض ومظاهر تشبه أعراض المرض
ومظاهره :

١- تخصيص الدلالة : تطور الألفاظ من دلالة عامة إلى
دلالة خاصة . وضوح هذا في الأمم البدائية وبين الأطفال ،
أمثلة من ذلك .

٢- تعميم الدلالة : انتقالها من الخاص إلى العام . قلة
شيوع هذا المرض في التطور الدلالي . أمثلة هذا .

٣- انحطاط الدلالة : ما يصيب الدلالة من ضعف وأثر
ذلك في انحطاطها . أمثلة لهذا المرض في العربية والإنجليزية .

٤- رقي الدلالة : قد يحدد اللفظ فترتي دلالاته . ندرة
هذا في تطور الدلالات ، أمثلة لهذا المرض .

صفحة

٥ - تفسير مجال الاستعمال : هذا العرض هو ما يسمى
بالمجاز .

دواعي المجاز : (١) توضيح الدلالة (ب) رمي الحياة
المعقولة . تغير مجال الدلالة المحسوسة إلى المجال المجرد للدلالات ،
أو العكس . متى يتم هذا أو ذاك ، أمثلة لكل منهما .
الانتقال من المحسوس إلى المحسوس . أمثلة هذا في
اللغة العربية .

١٦٨ : ١٨٦

الفصل العاشر : دور الدلالة في الترجمة : -

١ - تمت الترجمة بين اللغات في العصور القديمة والحديثة .

٢ - أهم الدواعي إلى الترجمة .

٣ - نظرة بعض علماء العربية إلى الترجمة في القرنين

الثالث والرابع من الهجرة

٤ - نظرية عبد القاهر الجرجاني في الترجمة : رأيه في

الاستعارة المفيدة وغير المفيدة ، ترجمة كل منها ، وأمثلة في هذا .

٥ - مشا كل الترجمة : من ناحية هندسة الجمل ، ومن

ناحية جمال اللفظ ، ومن ناحية الدلالة .

٦ - أثر الظلال الدلالية في الترجمة

٧ - ترجمة العلم وترجمة الأدب . تحمل اللفظ والأسلوب

الأدبي بعبارة من الصور والأخيلة وظلال المعاني

٨ - ترجمة النصوص الدينية ومقتضى

ملحة

٩- الترجمة السبعينية للمهد القديم : تاريخها ، أشهر الروايات فيمن قاموا بها . نظرة اليهود لها ونظرة للمسيحيين .

١٠- أشهر التراجم الأخرى للمهد القديم إلى اللغة

اليونانية

١١- التراجم القرآنية إلى الإنجليزية :

ترجمة جورج صيل ، رودويل ، بلهار ، محمد علي

الباكستاني ، بكتال ، يوسف علي

١٢- نماذج من هذه الترجمات السبعة : اختلاف المترجمين

في تخيير بعض الألفاظ . نتيجة لتخلاف تجاربهم مع الألفاظ .

١٣ عرض مريم لجمهور علماء العربية في بيان فنون

البلاغة القرآنية ، رأي أبي عبيدة ، رأي ابن قتيبة . رأي

الباقلاني ، رأي الشريف الرضي ، رأي ابن أبي الإصبع .

الفصل الحادي عشر : تعيب الألفاظ العربية من الدلالة :- ١٨٧ : ٢٧٤

١- أمية العرب . معنى كلمة الأى في الاستعمال القرآني .

شروع الأمية لدى العرب الجاهلين وأدلة هذا . موقف اليهود

حول يثرب من اللغة العربية والكتابة العربية .

٢- الأمية والثقافة اللغوية : الأدب الجاهل مرحلة

ناضجة في تطور الأدب العربي . لم تمنع الأمية العرب أن

يسكنوا ذوى ثقافة لغوية . الثقافة الأنوية عن طريق الجمع

وآثر هذا في موسيقية الأدب . موقف القاري . وموقف الأى

من حدود الكلام

صفحة

٣ - موسيقية الأدب العربي : اعتماد العرب على الأذن جعلها مرهنة وقادرة على التمييز بين الأصوات .

الشاعرية العربية بلغت بالفاظ اللغة أسنى درجات الموسيقى .
أثر ازدهار الأدب في ظل الأمية . الموسيقى أهم ما يتميز به
أدب الكوفيين . وحدة القصيدة العربية في موسيقاها . عناية
بقاد العرب بكل بيت على حدة . عرض مربع لقضية اللفظ
والمعنى . مظاهر الموسيقى في شعر القدماء وحطيمهم وأمثالهم .

الإنباع والزواجة وأمثاله في كتاب ابن فارس .

٤ - أثر الأمية في وصل الكلام :

الصورة السمعية للكلمة والصورة المكتوبة لها قوة ترابط
الكلمات لدى الأمي . الحركات الرابطة بين الكلمات في بعض
الحالات . أثر هذا في نشأة الحركات الإعرابية . سكان أوامر
بعض الكلمات لا يخل بالوزن الشعري . أمثلة هذا في أربعة
من أشهر البحور . الحركات الإعرابية ضرورة صوتية . أثر
قانون الـ Vowel-harmony في حركات الإعراب .

٥ - أثر الأمية في أدلة الألفاظ : كثرة الترادف في اللغة
العربية . المشترك اللفظي وقائه سببياً . موقف القرآن من
الترادفات والمشارك اللفظي . أشهر كتب الترادف والاشتراك
اللفظي . غموض الدلالة وميوعة حدودها في كثير من الألفاظ
العربية .

٦ - سراج علماء العربية مع دلالة الألفاظ :

تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحمن (الألفاظ المترادفة)

يشير بين الألفاظ المترادفة في حذرة الترادف .

منه

كتاب الأجناس لأبي عبيد ، أمثلة منه لبيان الإسراف
في المشترك اللفظي .

كتاب « الفروق اللغوية » لأبي هلال العسكري ، أمثلة
منه لبيان اختلاف مذهبه عن مذهب الرماني .

كتاب « التعريفات » لعلي بن محمد الجرجاني بعده ، مثل كتاب
أبي هلال .

نصوص من المخصص لابن سيده ، وتهذيب الألفاظ لابن
الكثير ، والألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمداني ، وجواهر
الألفاظ لقدمية بن جعفر ، وكما توضح صراح هؤلاء مع
دلالات الألفاظ .

٢٢٥ : ٢٥١

الفصل الثاني عشر : كنوز الألفاظ العربية

١ - طبقات اللغويين الذين ساهموا في نشأة المعجم العربية

(أ) الطبقة الأولى ١ - بصريين : أبو عمر بن الملا .
عيسى بن عمر الثقفي . أبو الخطاب الأحمسي . الخليل بن أحمد .
يونس بن حبيب . خلف الأحمر .

٢ - كوفيون : المفضل الضبي حماد الراوية .

(ب) الطبقة الثانية : أصحاب الرسائل والكتيبات الخاصة
بالألفاظ : أبو زيد الأنصاري . الأصمعي . أبو عبيدة . النضر بن
شميل . يزيد بن أبي عمير الشيباني .

(ج) الطبقة الثالثة : أبو حاتم المجستاني . أبو عبيد .
بن الكثير ابن الأعرابي ابن سلام . أبو عمرو شمر الهروي

منحة

(١) للطبعة الرابعة : أصحاب المعاجم بالمعنى المؤلف لنا :

ابن دريد . ابن الأنباري . الهمداني . قدامة بن جعفر .
القالي البغدادي . الأزهرى . الزبيدي . صاحب بن عباد .
الجوهري . ابن فارس .

٢ — أشهر المعاجم العربية القديمة :

(١) كتاب العين ، مؤلفه ، ما وجه إليه من طمن ،
طريقته و التبويب والتصنيف .

(٢) معجم الجوهرة ، طريقته و التبويب ، وجوه الشبه
بينه وبين كتاب العين .

(٣) معاجم القرن الرابع الهجرى . ديوان الأدب للفارابى
البارع للقالي البغدادي ، تهذيب اللغة للأزهري ، مختصر العين
للزبيدي ، الهيكل للصاحب بن عباد ، الصحاح للجوهري ،
الجدل لابن فارس .

(٤) أشهر المعاجم بعد القرن الرابع الهجرى

المحكم لابن سيده ، أساس البلاغة للزمخشري ، العباب
للصاغاني ، لسان العرب لابن منظور ، قاموس الفيروزبادي ،
تاج المروس .

٣ — دلالة الألفاظ في المعاجم العربية :

قصورها و الشرح الفائق ، واعتماد أصحابها بعضهم على
بعض . الحاجة إلى معجم تاريخي حديث . تقرير « فيشر » .
نماذج من المعاجم المختلفة .

١٠/١٤

دلالة الألفاظ

ألف:

دكتور إبراهيم أنيس

الطبعة الخامسة

١٩٨٤

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

٥٥٦
٥٥٦

٥٥٦